رواية

صرخة وطن

بقلم

محمود عابدين

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : **رواية ... صرخة وطن**

المـــــؤلف : محمود عابدين

رقـم الإيداع : 1570/ 2019

الترقيم الدولي: 978-977-834-044-0

الطبعة الأولى 2019

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى روح والدِي الذي شرُفت – كُل الشرف – بحمل اسمه.. إلى روح والِدتي التي سقتني الوطنية والمروءة بملعقة المحبة مذ كنت في أحشائها وحتى رحيلها إلى الرفيق الأعلى...

إلى زوجتي الحبيبة، وأولادي الأعزاء الذين تحملوا انشغالي عنهم لفترات طويلة دون ضجر أو ملل.. إلى روح إِخوتي وبقية أهلي الذين قابلوا ربهم على أمل اللقاء بهم إن عاجلا أم آجلا...

وإلى بقية إِخوتي وأهلي الذين يمدونني دائما بالصبر والجلد على مرارة الأيام وسُوء تقلبها.. وإلى شخصيات عظيمة بعينها مدت لي يد العون والمساعدة حين شعرت بمرارة الغربة القاتلة...

في وطني الغالي وبين أهلي وناسي.. وإلى زملائي وأصدقائي.. وإليكم أنتم أعزائي القُراء.. أُقدِم لكم روايتي التي استحضرت في جزءٍ منها أمجاد وأرواح ملوك وملكات أجدادنا قدماء المصريين (الفراعنة)...

لتبدو مزيج على لسان أبطالها؛ بطعم الخيال العذب والواقع العتيق والمعاصر؛ لتجسيد قضية وطن.. عانى شعبه وتاريخه وإعلامه وثقافته وهويته وحضارته.. الويل من تراث المماليك «العبيد» الذين حكموا أسيادهم المصريين...

على يد مؤسسهم الأول أحمد بن طولون مُنذ أن اغتصب حكم المحروسة من الدولة العباسية عام 868 هـ؛ في واقعة مؤلمة يُندى لها التاريخ.. ورغم أن مواطنهم «المملوك» والي مصر محمد على قضى على1200 منهم في مذبحة القلعة عام 1811م...

ورغم أن ابنه إبراهيم باشا قضى بعده مباشرة على 400 مملوك هو الآخر.. إلا أن الوالي وابنه ارتكبا خطأ لا يُغتفر عندما أدخلا أبناءهم في خدمتهما، وزوجا نساءهم لأتباعهما، وهذه مأساة أخرى توضح أن «العبيد» لم ينقرضوا بيولوجيا ولاسلوكيا ...

محمود عابدين

Email.mabdeen221@gmail.com

هاتف: 0161912815

■ الفصل الأول
مصر العظيمة

عزيزي القارئ، دعني أرسم أمامك لوحة فنية لحي شعبي مُطعم بمساحات أرُستقراطِية قليلة.. اخترت لك منطقة الجيزة، وتحديدًا بجوار المحكمة ومحطتي مترو الأنفاق والقطار الساعة التاسعة صباحاً.

بدايتي ستكون بمشهد لأهلنا «الصعايدة» وهم يأكلون بنهَم ساندويتشات الفول بالزيت الحار من عربات الباعة الجائلين المتناثرة بهذا المكان.

ثم بمشهد آخر لعدد من المُلتحين مع منتقبات يقفون بالقرب من فنانين وكُتاب ومثقفين ومحامين وشخصيات عامة وأمنية وأثرية، وسط كل ذلك ستلاحظ بعض الأجانب يقفون بكاميراتهم.

يهمسون بلغات وإشارات غير مفهومة في أغلبها لمتابعة آخر تطورات قضية سرقة وتهريب «كنوز مصر الأثرية» إلى الخارج يوم 28 يناير 2011 وما بعده.

وأنت تتابع رَسمي، ركز جيدًا في مسحة الحزن المصحوبة بقلق وترقب على وجوه أهالي المتهمين في المحكمة، بينهم من يبكي بصوت مكلوم، ودموع الصمت تملأ وجهه وتنساب على صدره.

ومنهم أيضا من ينقم وينعي حظه العاثر بآهات ووجع، ومن يسب ويلعن الظروف، والبعض تفلت منه تنهيده ألم لا يعلمها إلا الخالق.. وآخرون ستحار في

تحديد هوية إحساسهم ومشاعرهم، ومع ذلك فوجودهم في اللوحة مُهم.

إلى هنا انتهت لوحتي الأولى.. وسأبدأ في رسم الثانية من داخل القاعة المجاورة للأسانسير مباشرة بداخل المحكمة، الدور الثالث.

حيث تتجاوز مساحتها 300 متر، ويجلس بها عدد كبير من أنصار المتهمين وعدد قليل من المحامين، أعلى المنصة يجلس ثلاثة قضاة، وممثل للنيابة العامة وسكرتير الجلسة، بجوارهم يقف الحاجب للبت في القضايا المنظورة أمامهم، التي تبدأ بقضية المتهم ماهر أحمد عبدالرحمن.

***

*** ماهر أحمد عبد الرحمن.. شاب يبلغ من العمر 37 عاماً، ذو شخصية محبوبة وجادة بين زملائه وأساتذته ومعارفه، ريفي خجول، يتمتع بنسبة ذكاء حادة، متوسط الطول، قمحي البشرة، يُشبه إلى حد بعيد في تكوينه النفسي والجسماني والعقلي ضباط المخابرات العامة، ورث عينين زرقاوين من والدته وشقيقاتها، وطيبة القلب وصفاء النية والوطنية وحب الأرض من والده، يعشق مصر إلى حد الوَله.**

***

مُلخص القضية دون إسهاب:

بلاغ مقدم من عدة جهات للنائب العام ومباحث الآثار ومباحث الأموال العامة والنيابة العامة، مدعوم بصور ومستندات ضد رئيس مجلس إدارة وتحرير صحيفة «الرأي الحر» لاتهامه بسرقة وتهريب قطع أثرية مفقودة من المتحف المصري بميدان التحرير يوم 28 يناير 2011.

تم دعم البلاغ بمستند يكشف عن أن من بين المسروقات قطعًا فريدة للملك توت عنخ آمون موجودة بمعرض زوجة المتهم وشريكته في ولاية كاليفورنيا بأمريكا.. ومستند ثانٍ يؤكد تلقي المتهم أموالا كبيرة من جهات أجنبية لتمويل

جريدته.. بالإضافة لتهمة نشر أخبار وتحقيقات كاذبة ضد قيادات أثرية فوق مستوى الشبهات.

بناء على ما سبق، أمر النائب العام كل الجهات المعنية باتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة للتأكد من صحة الاتهامات، وبعد أن ثبتت التهمة على المتهم، تم القبض عليه وحُجز في قسم شرطة الجيزة، ليتم عرضه بعد ذلك عدة مرات على النيابة العامة وقاضي التجديد، ثم يُحول إلى محكمة الجنايات بناء على إدانته في التهم نفسها الموجهة إليه.

داخل قاعة المحاكمة، بصوت مرتفع، ينادي الحاجب:

- محكمة.

يقف الجميع وعيونهم مسلطة على الباب الذي سيدخل منه رئيس المحكمة، قاضي شمال، قاضي يمين، ممثل النيابة، وأمين السر.. وهُم في طريقهم إلى المنصة.

بعد وقوفهم دقائق معدودة على المنصة يأذن رئيس المحكمة للحضور بالجلوس.

ينادي حاجب المحكمة مرة أخرى:

- الرول رقم (1) قضية رقم (1).

وائل بك، وكيل النيابة (شاب ثلاثيني مثقف، فارع الطول، أسمر البشرة، من أسرة ميسورة الحال بالصعيد) يقف على يمين المنصة ليتلو الاتهامات الموجهة للمتهم:

- ثبت بالدليل القاطع وجود عدد من القطع الأثرية المفقودة من متحف التحرير يوم 28 يناير 2011 في معرض شريكة المتهم بولاية كاليفورنيا، وهي سيدة أمريكية تُدعى سارة ليفني ماردوخ، ويتابع:

– إضافة إلى ما سبق، هناك اتهام آخر موجه للمتهم، وهو خاص بشيكات بمبالغ كبيرة حولتها شريكته الأمريكية على البنوك المصرية باسم المتهم، وليس هذا فحسب، بل دأب المتهم على نشر أخبار كاذبة ومسيئة لمصر ولشخصيات أثرية مصرية فوق مستوى الشبهات بجريدته «الرأي الحر»، سواء عن طريق مقالاته الأسبوعية، أو تحقيقات وحوارات وأخبار صغار الصحفيين العاملين في ذات الجريدة، وأخيرًا بواسطة كُتبه التي ألفها مؤخرًا وتملأ الآن كبرى مكتباتنا في مجال الآثار.

رئيس المحكمة المستشار سمير بك الكيلاني، بصوت وقور وهادئ يسأل المتهم:

– هل أنت معترف بارتكاب الجرائم الموجهة إليك؟

***

*** المستشار سميرالكيلاني.. رجل خمسيني هادئ الطباع، متوسط الطول والوزن، من أسرة ميسورة الحال بصعيد مصر، لا يخشى في الحق لومة لائم، له باع طويل في إصدار الأحكام القضائية الرادعة ضد أعداء مصر من الإرهابيين والعملاء والخونة والفاسدين.**

***

المتهم يرد على رئيس الجلسة بصوت مكلوم وعينان تغرغران بالدموع:

– أقسم بالله العظيم تلاتة، لم أرتكب أي جريمة من هذه الجرائم على الإطلاق.

رئيس المحكمة – بصوت يُوقظ صمت الجميع – ينادي:

– النيابة.

يقف وكيل النيابة:

– أطالب بأقصى عقوبة على المتهم ماهر أحمد عبدالرحمن رئيس مجلس إدارة

وتحرير جريدة « الرأي الحر » فيما هو منسوب إليه، تأسيسًا على المستندات والصور التي أرسلت نسخة منها إلى مكتب النائب العام ومباحث الآثار، ومباحث الأموال العامة، والتي ذكرناها سابقًا.

وقبل أن ينادي رئيس المحكمة على الدفاع، يصرخ المتهم من داخل القفص الحديدي في مشهد إنساني لا تخطئه عين، ويكرر:

- بريء.. والله بريء.. والله العظيم تلاتة أنا بريء!!

فجأة، يرتفع صوت نسائي قوي يهز القاعة ويُطالب المتهم بالصبر والثبات.

ينظر المتهم ناحية الصوت المألوف على أذنيه، يستجمع قواه، يبتسم بعد أن يهز رأسه مرتين في إشارة إلى العمل بالوصية. إنها زوجته وأم ولديه.. دكتورة ميار (طبيبة الأطفال).

لم تكتفِ ميار بالنصيحة الصوتية لزوجها، بل اتجهت نحو قفص الاتهام بخطى سريعة وثابتة، لتمسك بيده في مشهد عاطفي نادر الحدوث في مثل هذه المواقف والظروف، وسرعان ما تراجعت الزوجة إلى مقعدها بناء على نصيحة زوجها.

بنبرة إنسانية وحادة في الوقت ذاته، يُحذر رئيس المحكمة زوجة المتهم من تكرار ما فعلته، وإلا سيضطر لطردها من الجلسة.

عدد من موظفي وزارة الآثار وأنصار مافيا الآثار بالداخل والخارج حضروا المُحاكمة يهتفون بعد بيان النيابة بإدانة المتهم:

- يحيا العدل، يحيا العدل، يحيا العدل.

رئيس المحكمة يُكرر تحذيره للحضور، وإلا سيُخلي القاعة منهم حفاظا على حُسن سير الجلسة.. ثم يستمع لشهادة بعض الإعلاميين والشخصيات العامة والصحفيين والكتاب، ومن أبرزهم الأستاذة الدكتورة زوزو عبد الحليم.. بالإضافة إلى عدد آخر من المحامين يتقدمهم: نقيب المحامين، كُتاب وأثريون

وأكاديميون وشخصيات عامة لصالح المتهم.

***

*** زوزو عبد الحليم.. سيدة وطنية، على قدر عالٍ من الجمال، تنتمي لأسرة أرستقراطية بقرية ريفية مجاورة لقرية ماهر.. والدها أحد كبار المستشارين بمحافظة الدقهلية.. لها عدد من الأشقاء في مراكز مرموقة.. متزوجة من أستاذ لها بكلية الصيدلة، زاملت ماهر في الدراسة منذ المرحلة الابتدائية .. مرورا بالإعدادية.. وختاما بالمرحلة الثانوية.**

*** كما جمعها به حرم جامعة القاهرة.. فتخرجت هي في كلية الصيدلة وعينت بها معيدا ثم مدرسا ومدرسا مساعدا وأستاذا بعد حصولها على درجتي: الماجستير والدكتوراه.، تمتلك صيدلية شهيرة بالقرب من ميدان التحرير، جمعتها أيضا صداقة راقية منذ طفولتها بماهر، نظرا لتقارب فكرهما واهتمامهما بالقضايا الوطنية ذات الاهتمام المشترك، ومنها الآثار. ونظرا لميولها الأدبية؛ فقد اختارها ماهر ككاتبة صاحبة فكر وحضور في جريدته ضمن كوكبة شهيرة من أصحاب الأقلام الوطنية الرصينة.**

***

قبل الحديث عن دور الدكتورة زوزو المهم في تضميد جراح عدد من مصابي ثورة 25 يناير 2011 بتشجيع ودعم من زوجها الدكتور ممدوح مهران (أستاذ بكلية الصيدلة جامعة القاهرة).. وذلك من خلال المستشفيات الميدانية التي ملأت ميدان التحرير في هذا التوقيت الصعب من تاريخ مصر، هناك بعض التفاصيل الجميلة التي ربطتها عاطفيا منذ الطفولة البريئة بزميل دراستها الطفل ماهر خلال المرحلة الابتدائية، حيث كان يجمعهما فصل دراسي واحد.

ولأن ماهر كان طفلا خجولا بطبعه، وفي الوقت ذاته من المتفوقين في دراسته،كانت الطفلة المتفتحة والمدللة زوزو من أشد المعجبات بخلقه وتفوقه،

كما كانت دائمة الحديث مع والديها عن شهامته في الدفاع عنها ضد الأطفال المتطفلين – هكذا كانت تصف زملاءها الأطفال الذين يعاكسونها – فأحبته والدة زوزو بشدة، وكانت تُصر على مضاعفة عدد ساندويتشات: المربة والقشطة واللحم لابنتها حتى تتقاسمها مع ماهر، ومن هنا نشأت علاقة عاطفية جميلة وسامية بين ماهر و زوزو، ستتضح ملامحها تباعا.

من المواقف الطريفة الواجب ذكرها في علاقة راقية من هذا النوع بين الطفلين البريئين أن والدة زوزو، السيدة الوقورة (آمال هانم خورشيد، ليسانس الحقوق، خمسينية مثقفة جدًّا) أثناء ترتيبها كتب ابنتها، وقع تحت يدها – بالصدفة البحتة – خطاب غرامي بخط يد ماهر لزوزو، قرأت الوالدة العاقلة كلمات ماهر بعناية شديدة، وابتسمت قائلة:

– ابن أصول يا ولد يا ماهر كما توقعناك، فكلماتك لابنتي تنم عن تربية وأخلاق وبيت طيب، وبصوت حنون استدعت الأم ابنتها لتفهم منها حكاية الرسالة الغرامية التي يعترف فيها طفل صغير بحبه لزميلته ويعدها بالارتباط بعد أن ينتهيا من المرحلة الجامعية، ثم تُسدي إليها بالنصيحة اللازمة في مثل هذه الحالة، فسألت الأم ابنتها بمنتهى الرقي:

– هل هذا الخطاب يخصك حبيبتي؟

تتلعثم زوزو ابنة الثانية عشرة ربيعا وتجيب والدتها:

– نعم يا مامي.

الأم بصوت هادئ تطبطب بيدها اليمني على كتف صغيرتها بعد أن رمقتها بنظرات اللوم والعتاب:

– أنا عارفة كويس إن ماهر طفل مؤدب ومحترم وابن ناس طيبين، ومش ممكن يضرك حبيبتي، ومع ذلك إنت ابنة عائلة كبيرة، وباباك واخواتك وأعمامك وأخوالك ناس كُبار أوي في البلد يازوزو، وليهم وضعهم و..... ، تابعت:

– فهل يصح من ملاكي الجميل أن تسمح لطفل زميل لها، وفي هذه السن الصغيرة أن يكتب لها رسالة غرامية؟!

زوزو تبكي بشدة فتتساقط دموع عينيها على وجنتيها لتصل إلى صدرها، رعبا وخوفا من أن يصل خبر الخطاب لوالدها أو أشقائها الكبار :

– أرجوك يا مامي، دي آخر مرة، سامحيني، والله مش هتتكرر تاني حبيبتي.

الوالدة بحنان وحكمة وصرامة المربية والحقوقية الواعية تجلس على ركبتيها وتحتضن صغيرتها بحنان:

– خلاص حبيبة قلبي، أنا مسامحاك، ومش هاقول لبابا ولا اخواتك، بس توعديني، إن دي آخر مرة تسمحي لحد – أي حد – يعمل معاك كده، وتفهمي ماهر إن ماما عرفت قصة الخطاب وقرأته، و بتقول لك إنها زعلانة منك، ومش راح تبعتلك ساندويتشات مرة تانية.

زوزو تسترد ابتسامتها بخجل شديد، وتحتضن والدتها وتقبل يديها بحرارة:

– حاضر يا مامي، مش هاكلم ماهر تاني أبدا بعد ما اقول له انك زعلانة منه.

الوالدة تتقمص دور المربية والإخصائية الاجتماعية:

– لا حبيبتي، أنا ما قلتش كده خاااالص، بس ماهر لسه صغير وانت كمان، يعني هو مثل أخوك تمام، كلميه وبلاش تزعلي منه خالص، لكن زي ما اتفقنا، قولي له بلاش جوابات الغرام دي، وعاملني مثل أختك مُنى.

في صباح اليوم التالي مباشرة، حاول ماهر أن يتقرب من زوزو في الفصل أو أثناء الفسحة، لكنها حسمت أمرها، عملا بوصية والدتها وحفاظا على التقاليد والعادات التي نشأت عليها، فاستشف الطفل ماهر أسباب ابتعادها عنه.

عندئذٍ صمم ماهر على الاعتذار لزوزو بعد أن أخبرته برسالة والدتها له، فكانت صدمته كبيرة على فعل ارتكبه ببراءة الأطفال، لم يكن يدرك عواقبه، ومع

ذلك استمرت مشاعره الجميلة نحو زميلة دراسته الطفلة بين ضلوعه ولم تفارقه، كما استمرت علاقته الراقية بها كزميلة وصديقة وأخت حتى بعد أن تزوج كل منهما وأنجبا.

عودة مرة أخرى إلى دور دكتورة زوزو في علاج مصابي ثورة 25 يناير 2011 ومتابعتها الحثيثة لكافة تفاصيل المؤامرة الإخوانية - الأمريكية الخطيرة ضد مصر وحضارتها.

إذ كانت تراقب عن كسب كيف تمت سرقة كنوزنا من متحف التحرير يوم 28 يناير الأسود.. سواء من خلال تواجدها داخل المتحف بجوار عناصر قواتنا المسلحة، أو من خلال متابعتها للتصاريح المتضاربة وغير الصحيحة لمسئولي الآثار عن عدد القطع المسروقة.

كما كانت زوزوشاهد عيان على عمالة وخيانة عدد من الشخصيات التي ارتدت عباءة الوطنية في غفلة من الزمن وأصبحوا ضيوفا دائمين في وسائل الإعلام الرسمي والخاص في هذا التوقيت، منهم: فنانون وسياسيون ومثقفون وأدباء وشعراء وكتاب وإعلاميون و.... ملء السمع والبصر.

ومن ثم جاءت شهادتها أمام المحكمة باتة وقاطعة لصالح المتهم، فقالت:

- سيدي الرئيس.. هيئة المحكمة الموقرة، إحقاقا للحق، وحفاظا على سير العدالة والكشف عن الحقيقة في واقعة اقتحام متحف التحرير يوم 28 يناير 2011، أؤكد لعدالتكم أن المتهم الماثل أمامكم كان يساعدنا في تضميد جراح مصابي الثورة طوال فترة تواجدنا بالميدان، عندما تم الهجوم على المتحف، كنت أنا واحدة ممن رافقه مع عدد آخر من أبناء مصر الشرفاء لحماية المتحف من اللصوص، ولديَّ عدد من الشهود والصور الشخصية وفيديوهات الهواتف المحمولة التي تثبت صحة ما أقوله.

رئيس المحكمة يسأل دكتورة زوزو:

– ما علاقتك بالمتهم؟ وكيف ومتى تعرفت عليه؟

زوزو تنظر ناحية ماهر في القفص الحديدي بحسرة، وتدعو له الله بصوت مرتفع أن يكشف عنه الضر لما لمسته في شخصه من وطنية وشهامة و..... ثم تتجه بذات النظرات الحادة التي تشبه نظرات الصقور إلى رئيس المحكمة:

– سيدي الرئيس، أنا أحد كُتاب جريدة الرأي الحر التي يترأس مجلس إدارتها وتحريرها هذا الشاب الوطني الحر الدكتور ماهر أحمد عبد الرحمن.

– كما أن معظم كتاباتي سواءَ في هذه الجريدة وموقعها الإلكتروني أو عدد من الجرائد والمواقع الالكترونية الأخرى، كانت ولاتزال عن: الطب والصيدلة والفلك والمرأة في العصر الفرعوني، أي أن ملف الآثار بالنسبة لي كان ولا يزال يحتل المرتبة الأولى في سلم اهتماماتي بجوار عملي الأكاديمي كأستاذة بكلية الصيدلة، جامعة القاهرة.

رئيس المحكمة يشكر الأستاذة الدكتورة زوزو – خصوصا بعدما أخبره القاضيان الجالسان على يمينه ويساره بأنها ابنة المستشار الكبير عبد الحليم باشا – على شهادتها وموقفها الإيجابي من حضارة بلدها.

كما شكر أيضا كل من أدلى بشهادته في قاعة المحكمة، ومن ثَم تحولت المُحاكمة بسرعة البرق، من محلية إلى رأي عام يتابعها الإعلام العالمي والإنتربول الدولي ومنظمة اليونسكو باهتمام بالغ.

وقبل أن ينطق سمير بك قرار المحكمة بتأجيل الدعوى (القضية) لجلسة 5 إبريل 2012، لاستكمال المرافعات، وسماع بقية شهود القضية، ومرافعة النيابة العامة، استأذنه محامي المتهم الدكتور مدحت مينا، بتسليم هيئة المحكمة عدة مستندات وصور مدعومة بمقالات وتحقيقات وحوارات للمتهم ولكتاب وصحفيين وأثريين كبار لدحض الاتهامات الموجهة لموكله.

***

*** مدحت مينا.. شاب مسيحي متفتح، يُشبه في تكوينه الجسدي وصفاته النبيلة إلى حد بعيد زميل دراسته حتى المرحلة الثانوية دكتور ماهر (بطل الرواية)، كما كان جارا وصديقا مقربا له.**

*** وأيضا مستشار جريدته القانوني، حاصل على درجة الدكتوراه في القانون العام، متزوج من قريبته، طبيبة أطفال أيضا، مارجريت أيوب، ولديه منها طفل، كما أن لمارجريت شقيقة تُدعى ميرفت، زميلة ماهر بإعلام القاهرة، وتشغل منصب رئيس تحرير جريدة الرأي الحر، وسيأتي ذكر دورها تباعا.**

***

رئيس المحكمة يتسلم المستندات من محامي المتهم، ويمنحه الفرصة لقراءة بعضها، بناء على طلبه، ومنها مقال بعنوان «ترفق بآثارنا» للكاتب «عوني يوسف»، المعروف في الوسط الأدبي والثقافي والفني بوطنيته ومصداقيته، يقول فيه:

– عبر حوار لي في موقع «أقباط ضد فساد الآثار» فجر كاتبنا الصحفي دكتور ماهر أحمد عبدالرحمن، قضية في منتهى الخطورة عندما وجه سؤالين لوزارة الآثار:

– السؤال الأول: ما صحة خبر إنشاء المتحف اليهودي في محافظة الشرقية؟!

– الثاني: ما السبب الخفي لغلق متحف الزعيم الوطني أحمد عرابي في المحافظة نفسها؟!.. كما حذر موكلي أيضا وزارة الآثار من «ثقب الهرم الأكبر» في مقال له ممهور برقم بلاغ مقدم للنائب العام.

رئيس المحكمة موجها كلامه لممثل النيابة:

– أسئلة الدفاع مشروعة ومنطقية ، يجب بأي حال عدم إغفالها، بل يجب تقديم أدلة قاطعة للرد عليها.

ينفي وكيل النيابة علمه بهذه التفاصيل، ويعِد المحكمة في الجلسة التالية بتسليمها إجابات واضحة وصريحة عن أسئلة الدفاع.

رئيس المحكمة يقاطع الدفاع بعد كلمة وكيل النيابة:

– مهلا يا أستاذ، هل لديك أدلة على هذا الكلام ؟!

الدفاع بتركيز واهتمام بالغ:

– نعم، وأعِد عدالتكم بإحضار بقية الأدلة والمستندات والصور التي تكشف العبث بغرفة الملك خوفو داخل الهرم الأكبر في الجلسة المقبلة، بالإضافة إلى كشف دور موكلي في الدفاع عن حضارتنا ضد مافيا صهيونية خارجية تُعاونها مافيا داخلية.

ولأن المتهم – بحكم عمله – كان مُلمًّا بملف الآثار، فقد استأذن المحكمة في الكشف عن معلومات مهمة تمس قضيته.

رئيس المحكمة يأمر الحرس بخروج المتهم من القفص الحديدي للإدلاء بما لديه من أقوال، والعودة للقفص بعد انتهاء حديثه.

المتهم يستجمع قواه ويستحضر ما ينفعه من كتاباته في هذا المجال ثم يدنو من هيئة المحكمة:

– سيادة الرئيس، الهيئة الموقرة، إن آثارنا هي عرضنا وشرفنا، ومن ينكر هذه الحقيقة، فمصر منه بريئة، وكلامي هذا ليس من باب الوجاهة أو المنظرة، بل هو ثقافة وقناعة كل الشرفاء الأثريين والكُتاب والمثقفين.

– كما سبق وحذرت مرارا وتكرارًا من «جريمة ثقب الهرم الأكبر» على يد جمعية أمريكية مشبوهة في عدة مقالات وتحقيقات لي مدعومة بصور ومستندات وبلاغ للنائب العام أطالب فيه بوقف هذه المهزلة فورًا، ولكن لم يهتم أحد حتى الآن بهذا الأمر!!

يقف المتهم برهة ليبتلع ريقه، فيأمر رئيس المحكمة بسرعة إحضار كوب من الماء حتى يشربه، بصوت مكلوم، يشكر ماهر رئيس المحكمة على كرمه

وإنسانيته، ثم يواصل حديثه:

– السيد الرئيس، الهيئة الموقرة، لقد جاء الإعلان عن الكشف الذي أشرت إليه داخل الهرم الأكبر من خلال فيلم تسجيلي أذيع في ألمانيا دون علمنا.

– وفي عام 1993 طلب وفد ياباني عمل ثقوب جديدة لنفس الادعاءات، وثقبوا فعلا الهرم الأكبر بدعوى أن أعضاءه سيتعاونون معنا بالتكنولوجيا المتطورة، لكنهم – وهذا ما توقعناه – لم يتوصلوا إلى شيء، سوى تسويق معداتهم تجاريا بإعلان صورها وهي تعبث بأحجار هرمنا الأكبر .

طوال نصف ساعة تقريباً، ساد صمت ملحوظ داخل جلسة المحكمة بسبب الأسرار التي كشفها المتهم.

رئيس المحكمة يصوب عينيه ناحية باب القاعة، ويستفسر عن أصحاب الأصوات المرتفعة التي «شوشرت» على الجلسة؟

الأمن لرئيس المحكمة:

– معالي المستشار، هنا شخص اسمه دكتور على عبدالرحمن (أثري على المعاش) ويصر على دخول القاعة للإدلاء بأقوال – يراها مهمة – في صلب القضية.

رئيس المحكمة يُوجِه الأمن:

– مافيش مشكلة إذا كان الأمر كذلك، خلوه يدخل.

بعد دخول دكتور على عبدالرحمن إلى القاعة، يسأله رئيس الجلسة:

– إنت مين.. وعاوز إيه؟

– أنا دكتور على عبدالرحمن (مسئول أسبق عن منطقة آثار الهرم)، وكنت على خلاف دائم مع رؤسائي المتعاقبين لأسباب إيجابية تصب جميعها في صالح حضارتنا، لذا أطلب الكلمة من عدالتكم في صلب القضية المنظورة أمامكم الآن.

رئيس المحكمة يُرحب:

- بكل سرور، اتفضل.

دكتور على يتجه نحو المنصة بخطى ثابتة ليُسلم رئيس الجلسة مستندات تُدين قيادات أثرية بعينها مع أجانب.

أنصار المتهم يهتفون بصوت قوي يهز مبني المحكمة:

- يحيا العدل.. يحيا العدل.. يحيا العدل.

بلُغة إنجليزية قوية، وتحريض من أثريين، وتجار آثار مصريين وأجانب، حضر جلسة المحاكمة المحامي الأمريكي مايكل باولو (سِتيني نحيل) طالبًا الكلمة من رئيس المحكمة بنبرة تشبه حفيف الأفاعي، للدفاع عن الجمعية الأمريكية المتهمة بـ«ثقب الهرم الأكبر».

بصوت حكيم، وعقلية دبلوماسية تُقدر حجم الموقف وثقل القضية وخبث المحامي الأمريكي، يرد رئيس المحكمة على المحامي الأمريكي:

- هذه أمور داخلية، ولا علاقة لأى جهة خارجية بها، وإذا رغبت الدفاع عن أي أمر يمس جمعيتكم بشأن هذه الواقعة، فعليكم مراسلة الجهات المعنية بذلك كوزارتي: الخارجية والآثار.

دكتور على يتابع ما بدأه بصوت وإيمان للحق أقرب:

- السيد الرئيس، الهيئة الموقرة، ليعلم الجميع، أنه لولا هذه الآثار التي تحدت الزمن، واستمرت متماسكة بأصالتها حتى نراها نحن، ونجني المليارات من خلفها، ما كان العالم قد احترمنا، ولا كان أحد قد عرفنا ووقرنا، لذا يمكنني القول إنه في عام 1994 ظهرت شروخ جديدة في مقبرة الملك خوفو، ويردف:

- إضافة لما سبق، هناك شروخ قديمة بأحد أركان حجرة دفنه، ورغم مرور عام 2000 دون الكشف عما روجه الصهاينة من أسرار مختبئة داخل الهرم

الأكبر، فإننا فوجئنا بـ« الجمعية الأمريكية» تستكمل هذه الدراسات، وتنقل الحدث على الهواء مباشرة ليشاهده معظم سكان العالم، عدا مصر والشرق الأوسط، لأن عملية البث أُذيعت قُبيل الفجر!!

المتهم يقاطع دكتور على بعد أن يستأذن رئيس الجلسة للإدلاء بمعلومات أخرى مهمة:

– أعتذر للمقاطعة، لكن لأمر مهم أردت التأكيد أو استكمالا للحقائق التي كشفها دكتور علي، وهو أحد مصادري الوطنية المحترمة والمهمة، أضيف أن هذه الجمعية ربحت مئات الملايين من الدولارات لاحتكارها حق الامتياز في تسويق هذا الحدث إعلاميا !!

– كما جاءت المفاجأة عندما قالت مذيعة مصرية – من خارج الهرم نقلاً عن مذيع الجمعية المشار إليها من داخل الهرم، وبعفوية شديدة – إن «الهدف من ثقب الهرم الأكبر هو العثور على مخطوطات لمزامير وألواح التوراة، بالإضافة لأوراق خاصة بقارة أطلا نتيس المفقودة»!!

رئيس المحكمة يكرر توجيهه إلى النيابة:

– معلومات خطيرة جدًّا كشفها المتهم وكذلك الأثري دكتور على، لا يمكن أن تمر علينا كمواطنين أولًا وقضاة ثانيًا مرور الكرام.

وكيل النيابة ينهض واقفا:

– مرة أخرى، مستعدون لتنفيذ ما تطلبه هيئة المحكمة.

الدفاع يختتم مرافعته بعد انتهاء دكتور على من شهادته التاريخية دفاعا عن آثارنا:

– السيد الرئيس، الهيئة الموقرة، يشرفني المثول أمام عدالتكم، فأنتم عدل الله فوق الأرض، لأطالب ببراءة موكلي فيما هو منسوب إليه تأسيسا على الأدلة التي

سلمتكم جزءًا منها، وشهادة بعض الشهود والأجهزة الأمنية المعنية بهذه الأمور، فضلا عن تاريخ موكلي الصحفي، وما كتبه دفاعا عن (آثار مصر)، أي عِرض مصر وشرفها، ويتابع:

– في الحقيقة، ليست البراءة هي مطلب أو هدف موكلي الوحيد بعد التشهير بسمعته وجريدته، بل أطالب له برد اعتباره معنويا بالطريقة والشكل اللذين يتناسبان وحجم الحملة الشرسة التي تعرض لها، وماديا بتعويض من وزارة الآثار لا يقل بأي حال عن عشرة ملايين جنيه، وشكرًا.

ينهض نقيب المحامين (سبعيني، ذو شخصية وطنية، ضخم الجثة، يخشاه كل أعداء الوطن بسبب تصديه للصوص المال العام) من مكانه بعد استئذانه من رئيس المحكمة:

– السيد الرئيس، الهيئة الموقرة، القضية الآن لم تعد بين جهة حكومية وصحفي، بل أصبحت بين دولة ومافيا داخلية وأخرى خارجية، تسرق حضارة أمة من أعرق الأمم منذ نشأة البشرية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

– وحتى لا أطيل على عدالتكم، فإنني كمواطن مصري أولا، وكمُحامٍ ونقيب للمحامين ثانيا، أطالب هيئة المحكمة الموقرة بالرجوع إلى مانص عليه قانون الآثار 117 لسنة 1983 وملحقاته، وما نصت عليه الدساتير المصرية فيما يخص حضارتنا وتاريخنا، لتوقيع أقصى العقوبة على لصوص تاريخنا بتهمة «الخيانة العظمى» وشكراً.

رئيس المحكمة بعد سماعه هذه المرافعات، يُكلف محامي المتهم بإحضار بقية ما لديه من المستندات التي أعلن عنها لصالح موكله، كما يكلف وزارة الآثار ومباحث الآثار والنيابة العامة وغيرها من الجهات المختصة، بإعداد التقارير اللازمة عن «ثقب الهرم الأكبر» وصحة إنشاء المتحف اليهودي بالشرقية من عدمه، وغلق متحف الزعيم أحمد عرابي، ثم يرفع بعد ذلك الجلسة إلى يوم 5 إبريل عام 2012 لسماع شهادة بقية الشهود.

ينصرف المتهم من سرايا المحكمة، في حراسة أمنية مشددة!!.. ويبيت ليلته في الحجز بقسم الجيزة؛ غرفة الحجز 60 مترا مربعا، بالدور الثالث العلوي، بها عدد كافٍ من الشبابيك، ودورة مياه وحوض للاغتسال والوضوء وركن مجهز للصلاة، و20 سريراً بدورين.

كما تطل الغرفة على شارع رئيسي بعرض 20 مترًا مليء بالمارة والمواصلات والباعة الجائلين، داخل الحبس نوعيات مختلفة من المثقفين واللصوص وتجار المخدرات والقتلة والفاسدين و.... ، ولم ينقذ المتهم من سوء أخلاق بعض المحتجزين سوى شهامة أحدهم، ويدعى عطوة أنتيكا.

***

*** عطوة أنتيكا.. رجل نوبي، يبلغ من العمر 40 عاماً، يقترب طوله من 170 سم، ذو بنيان قوي، أسمر اللون، يمتلك محلا صغيرا لبيع الأنتيكات والمستنسخات في نزلة السمان، يخافه الجميع نظرا لعلاقاته غير المُعلنة مع جهاز سيادي قوي، له تاريخ طويل وعريض وسمعة طيبة بأهل النزلة وكل موظفي وزارة الآثار.**

***

تم القبض على «أنتيكا» بتهمة نشر أخبار ووثائق غير صحيحة عن قيادات الآثار على صفحته بوسائل التواصل الاجتماعي، وهي تهمة مصطنعة بالاتفاق بين «أنتيكا» نفسه وجهة سيادية يتعاون معها لحماية المتهم – دكتور ماهر أحمد عبدالرحمن- من مخالب مافيا الآثار داخل غرفة الحجز، والتي تريد الفتك به حتى لا يفتضح أمرها.

ولأن المتهم عضو نقابة الصحفيين (منتسبين).. بجوار عمله كأستاذ صحافة بجامعة القاهرة، فقد زاره داخل محبسه المستشار القانوني لنقابة الصحفيين الأستاذ عبدالمعين عليوة (55 عاما) برفقة محاميه، ووالدي المتهم وشقيقته

الصغرى والوحيدة مُنى (المحامية، زوجة ضابط الشرطة، الرائد محمود شعبان)، وزوجته دكتورة ميار (طبيبة الأطفال)، وطفليه نادر (10 سنوات) ونادية (8 سنوات) وكلاهما تلميذان بمدرسة (نصر أكتوبر للغات بمدينة 6 أكتوبر).

بالإضافة إلى جمع غفير من زملائه الصحفيين وتلاميذه في كلية الإعلام، وذلك بعد أن استسمح دكتور مدحت (محامي المتهم) مأمور السجن بناء على تصريح من النيابة العامة، بزيارة موكله لمدة 12 ساعة منفصلة.

■ الفصل الثـاني
ذكريـات الطفولة

في غرفة منفصلة مُحصنة أمنيا تقترب مسـاحتها مـن 12 متـرا، بجـوار مكتـب مأمور القسم، جلس المتهم مع محاميه مدحت بعد أن ودع الزائرين، ليحكـي لـه مقتطفات من حياته أثناء إقامته في أمريكا ومصادره في الحقـل الأثـري وخارجـه، وعن كتاباته وكُتبه منذ أن تـرأس مجلـس إدارة وتحريـر جريـدة «الـرأي الحـر»، وبداية عمله كمدرس لمادة الصحافة بإعلام القاهرة.

قبل حديثه عن أي شيء، ابتسم المتهم وظل نحو 10 دقائق يُذكِر فيها محاميـه بأيام دراستهما في الابتدائية والإعدادية والثانوية، وكيف كانا متلازمين في المذاكرة واللعب بالكرة الشراب، وحضور الأفراح في الكنيسة، وعقد القران في المسجد.

يتحسر كلاهما على هذه الذكريات، وتمنيا لو أنها تعود يومـا، ويُـذكِره محاميـه بيوم أن تشاجرا مع زميلين من قرية مجـاورة بسـبب نقـاش دينـي عقـيم، لتنتهـي المشاجرة على يد قسيس الكنيسة وإمام المسجد بالصلح، كما يستحضران وصف زملائهما الأطفال لجمال ورقـة الطفلـة زوزو، وكيـف كـانوا يشـبهونها بالملكـة الفرعونية حتشبسوت، تلك الفتاة المُدللة، والتي كانت تحضر إلى المدرسة بسيارة مرسيدس آخر موديل، يقودها سائقها الخـاص، وكيـف كـان يتصـدى مـاهر لأي طفل يحاول أن ينظر – مجرد نظرة – لها، هنا يبتسم ماهر ويذهب إلى عالم آخر من عوالم الماورائيات.

يستيقظ ماهر من حلمه الجميل، ويصمت قلـيلا ليجـد ابتسـامة عريضـة عـلى

وجه محاميه، فيضحك الصديقان، كأنهما يتحسران على ذكرياتهما الجميلة التي سلبتها منهما هموم الحياة ولقمة العيش.

يعاود المتهم النظر بحيرة بعد أن تفارقه الابتسامة المصطنعة، ينظر إلى صديقه نظرة البائس، ليسأله عن موقفه القانوني من القضايا المنسوبة إليه.

المحامي يكشف لصديقه صعوبة موقفه القانوني، ومع ذلك يطمئنه:

– بالمناسبة يا ماهر، دكتورة زوزو أرسلت إليك معي سلام خاص، وبتطلب منك أن تصبر وتثق في الله من براءتك، وبتوعدك إنها ستبذل قصارى جهدها لخروجك من هذا الحبس في أقرب وقت ممكن، ويردف:

– أما عن موقفنا من القضية، فهو حتى الآن غير مريح، وتحديداً تهمة سرقة بعض القطع الأثرية من متحف التحرير، والخاصة بالأسرة الفرعونية الثامنة عشرة.. والتي أكد وكيل النيابة أنها موجودة بالفعل في معرض شريكتك الأمريكية بولاية كاليفورنيا.

***

*** الأسرة الثامنة عشرة.. أهم أسرة فرعونية حكمت مصر، ومحل اهتمام دائم من اليهود لأسباب عقائدية وسياسية، أشهر حكامها؛ المحارب العظيم أحمس الأول قاهر الهكسوس، وحكمت مصر من 1225 حتى عام 1550 قبل الميلاد، نجح أحمس الأول على مدار 20 عاما، هي فترة حكمه لمصر، في القضاء على حكام الأقاليم الذين تعاونوا مع الهكسوس، وعيّن بدلاً منهم وطنيين مخلصين لمصر وشعبها.**

***

المتهم يحاول الخروج من الواقع المؤلم بالحديث للحظات عن الماضي السعيد:

– تعرف يا مدحت، دكتورة زوزو دي أصيلة بجد، بنت بلد يعني، فمنذ

طفولتها وحتى الآن، لم أر منها غير كل الخير لكل من تعرفهم، فعلا والله «ست بـ 100 راجل».

يتوقف ماهر عن الكلام عدة دقائق يحدث فيها نفسه همسا في وجود مدحت، ثم يواصل:

– لقد اتضحت الرؤية الآن بحجم الخطر المُدبر لي من شخصيات بعينها داخل مصر وخارجها، وهذا ما سبق وحذرتني منه دكتورة زوزو عندما كانت تقرأ ما أكتبه عن سرقة وتهريب الآثار، لقد توقعت هذه السيدة الأصيلة اعتقالي وغلق جريدتي وقصف قلمي نهائيا، وها هي البداية، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فأنا راضٍ بقضاء الله، لعل وعسى يُكفر الله عني ذنوبي بسبب هذه المحنة.

بعد حديثه مع نفسه، يلتفت ماهر لمحاميه ويسأله:

– هل تحتاج إلى محامين معك يا مدحت مثل: المستشار القانوني لنقابتي أو شقيقتي مُنى أو زوجها ضابط الشرطة، أو غيرهم لمساعدتك؟

– عاوزك تطمئن يا ماهر، وإذا تعسرت الأمور فسأطلعك على كل شيء بالتفصيل المُمل، ودعنا الآن نسجل كل صغيرة وكبيرة عن: كتبك ومقالاتك وتحقيقاتك وحواراتك وأخبارك حتى نضع أيدينا على أي ثغرة تساعد في فك شفرة هذا اللغز، أو إن شئت قل هذا «المغرز» اللعين، لنستطيع الرد على الاتهامات الموجهة إليك بالأدلة والبراهين والتواريخ والمستندات.

يخرج المحامي جريدة يومية خاصة من حقيبته، ويطلب من المتهم الاطلاع على خبر منشور فيها.

– المتهم يلتقط الجريدة من يد محاميه وينظر فيما هو منسوب إليه باستغراب:

– يااااه يا مدحت، خبر بالصفحة الأولى فيه صورتي وببنط عريض وفي مساحة ربع صفحة للنيل مني!!، ثم يسأل محاميه:

– ألم ينص القانون على أن «المتهم برىء حتى تثبت إدانته» ؟

المحامي يحاول تهدئة موكله بعد أن يرى ملامح التوتر والقلق على وجه:

– كلامك صحيح يا ماهر، لكن لاحظ أن لك أعداءً كثيرين داخل الإعلام وخارجه، وما كتبوه عنك في هذه الجريدة الصفراء أمر متوقع، وفي المقابل هناك جرائد أخرى وكُتاب وخبراء آثار وشخصيات عامة معروفة، ويواصل:

– وحتى بعض الإعلاميين والقنوات الفضائية يناصرونك ويتابعون أخبارك، بل ويشيدون جميعًا بقلمك ومواقفك الوطنية من قضايا الفساد بشكل عام، وسرقة وتهريب الآثار بشكل خاص، وهم الآن على استعداد تام أن يشهدوا لصالحك في المحكمة.

المتهم يستجيب لنصيحة محاميه بعد أن تهدأ ثورته من الظلم الذي وقع عليه:

– صدقت والله، إذًا دعنا الآن ننسى ما كُتِب ضدي، لنتفرغ للبحث عن مخرج من هذه الورطة وبأسرع وقت ممكن.

المحامي بابتسامة تحمل معاني التفاؤل والأخوة يُداعب صديق عمره:

– تمام يا صديقي المناضل، فقط ركز معي، كيف تم تلفيق هذه القضايا لك، ومن تحديدا داخل وزارة الآثار وخارجها له مصلحة في اتهامك وقصف قلمك؟؟

– لا أنكر عليك يا مدحت، فأنا بحاجة لبعض الوقت حتى أسترجع فيه الماضي القريب والبعيد لأضع يدي على أي خيط نبدأ من خلاله معرفة تفاصيل هذه المؤامرة الدنيئة، ويردف:

– وعليك أنت كصديق قبل أن تكون المحامي الخاص بي، أن تتابع الجرائد والفضائيات وتقابل بعض الأثريين المخلصين الذين سأعطيك أرقامهم وبعض المعلومات عنهم حتى يثقوا فيك، ويتحدثوا إليك بأريحية تامة، وليتك تستعين بشقيقتي مُنى وزوجها ودكتورة زوزو في تحركاتك، كما أتمنى أن تصطحبهم

معك في زيارتك القادمة لي.

– أصبت، هذا ما كنت أنوي فعله، والآن سأتركك لأن موعد الزيارة اقترب على الانتهاء، وإن شاء الله سأزورك غدا في الميعاد نفسه.

ما سبق كان ثمار حديث مطول بين المتهم ومحاميه في الزيارة الأولى، وقبل أن ينصرف كل منهما إلى حال سبيله، أقسم المحامي إنه لن يهنأ براحة قبل أن يبرئ صديقه من أي تهمة باطلة وجهت إليه.

المتهم يشكر صديقه، ويعود مهموماً إلى محبسه بصحبة رجل الأمن التابع لقسم الشرطة، ليستقبله «أنتيكا» بوجبة سمك بلطي وطبقين من الأرز بالصلصة مع طبق سلطة، كانت زوجة «أنتيكا» قد أرسلتها إليه .

أكل الصديقان حتى شبعا وحمدا الله، وفرقا باقي الأكل على زملاء الحجز.

وبكلمات الصبر على ما أصابه، ظل «أنتيكا» يُبشر صديقه بفرج الله، وخروجه من محنته في أقرب وقت ممكن، تلك الكلمات عادة يتداولها السجناء فيما بينهم ليواسوا بعضهم طوال محنتهم.

مزج المتهم ابتسامته الباهتة بنصف تصفيقه تنم عن التشاؤم من إثبات براءته بسهولة:

– برافو «أنتيكا»، لأنك وطني ومخلص، فأنت تتمنى لي البراءة، لكن الكلام ده لو كانت قضيتي مع شخص أو عدة أشخاص عاديين، لكنها مع منظمات وناس كبيرة أوي، كما أن أعدائي لا يمكن التغلب عليهم بسهولة.

– يعني خلاص بقى يا صاحبي، واضح أني انتهيت إلى هذا الحد، ولم يعد بمقدوري كتابة ولو حرف واحد في ملف الآثار أو غيره بعد ذلك، فالقضية أكبر وأخطر مما تظن، على الرغم من كل المؤشرات الإيجابية التي تؤكد براءتي.

يصمت «أنتيكا» بعد أن شعر بمرارة وغصة في حلق صديقه، ثم

يستأذنه؛ليغوص في نوم عميق، حال بقية السجناء الذين اقترب عددهم من الخمسة عشر سجيناَ.

فيما خاصم النوم عيني المتهم، وظل مستيقظا يستجمع مراحل حياته منذ بدايتها، استعدادا لتوثيقها في دفتره الخاص الذي يسجل فيه ما يراه مهما في حياته، متبعا في ذلك نهج بعض رموزنا الصحفية مثل: محمد حسنين هيكل ومحمد التابعي وغيرهما.

أما عن محاميه، فعاد إلى منزله لتستقبله زوجته دكتور مارجريت (37 عاما، طبيبة أطفال) بابتسامتها المعهودة وحضورها الطاغي، وطفلهما المدلل «جورج»، بالمحبة والمداعبة كعادتهما معه، وبتجهيز الأكلة التي يفضلها (مكرونة باشاميل).

لكن دكتور مدحت هذه المرة لم يكن على ما يرام، ولأن الزوجة تعرف جيدا تفاصيل قضية صديقه وأهميتها بالنسبة له، كانت تترك راحتها ورعاية وحيدهما جانبا لتتفرغ لخدمة ومساعدة زوجها.

داخل غرفة الحبس ألقى المتهم بجسده المنهك على سريره بعد أن نام الجميع، وفي جو هادئ وصمت يشبه مشهد القبور إلى حد ما، بدأ يحدث نفسه وكأنها صديقه الصدوق المقرب منه، فيشتكى إليها مأساته ويأتمنها على أخص أسراره.

وهنا تبلورت الفكرة، ورأى أنه من الأفضل توثيق كل صغيرة وكبيرة تخصه في دفتره الخاص، مؤمنا بأن ما حدث ويحدث له يخص كل فرد في وطنه، ولا بد أن يطلع عليه الشعب المصري في وقت ما.

كما كان ماهر يُمني نفسه أن ينشر مذكراته في جريدته عندما تتيح له الظروف ذلك، أو إذا خدمه الحظ تتحول حياته إلى عمل درامي، مثل: جمعة الشوان ورأفت الهجان والنمر الأسود وغيرهم، وعلى الفور أمسك سلاحه المحبب (قلمه) وبدأ يوثق كل صغيرة وكبيرة في حياته من داخل محبسه على ضوء شمعة؛ كان قد أعدها

لهذا الغرض؛ حتى لا يزعج رفاق الحجز أثناء نومهم.

يبدأ المتهم في الكتابة بعد أن عصر فكره ورتب كل ما مر به:

- «بسم الله الرحمن الرحيم».. ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.. «سورة يوسف».. وبعد:

- هذه هي مذكراتي بخط يدي، أكتبها عن قناعة تامة، ورضا نفس؛ حتى يرتاح ضميري وأزيح حملا ثقيلا من على كاهلي ظل لوقت طويل يؤرقني، وأعلم أن هذه المذكرات ليست في صالحي على المستوى الشخصي إطلاقا، وقد تؤثر على مستقبلي الأكاديمي والصحفي.

- كما أن مذكراتي هذه قد تهدد حياتي أيضا إذا وقعت في يد مافيا الآثار الداخلية أو الخارجية، وقد تقضي على استقرار بيتي لو علمت زوجتي أنني ارتبطت بأخرى، ولكنها الضريبة المفروضة على من هم في مثل ظروفي، ولا بد أن أدفعها إن عاجلًا أو آجلا، ولنبدأ الآن في الكشف عن أن طُموحي كان لا يقل عن طموح كبار العلماء – الوطنيين، كنت أريد أن أخدم بلدي التي عشقتها دومًا وأبدًا.

يتوقف ماهر لدقائق معدودة يُشعل فيها سيجارة ويرتشف معها فنجاناً من الشاي بالنعناع، يليه فنجان ثانٍ من القهوة، كان قد أعدهما من سخانه الكهربائي الذي سمح له به مأمور القسم بشكل استثنائي، ثم يكتب:

- على مدار الأربع سنوات التي قضيتها بدراستي في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، على يد أساتذة عظام، كنت دائما وأبدا أبحث وأقرأ عن مصر التاريخ والإنسان والجغرافيا والحضارة، مصر ما قبل التاريخ، وفي عهد

الأسرات الفرعونية الـــ 30 ، مصر محمد على وأولاده وأحفاده، ومصر محمد نجيب وجمال عبدالناصر والسادات ومبارك، وما بينهم تاريخ الساعاتي حسن البنا (مؤسس جماعة الإخوان وأذرعها) لأعرف من أنا وأي قبلة سأتوجه إليها.

– كما كنت أتوق ليوم أتوج فيه بوظيفة مُقدم برنامج إذاعي أو تليفزيوني، أو رئيس تحرير جريدة قومية، أو حتى حزبية أو خاصة لأثبت وجودي المهني من ناحية، ومن الناحية الأخرى أحارب الفساد الذي استشرى في معظم ربوع وطني الحبيب.

– وأخص منه ملف سرقة وتزوير وتهريب آثارنا وبيعها للصوص التاريخ عن طريق مرتزقة من أبناء جلدتنا أشك في مصريتهم، وأرجح انتماءهم بـــ «الجينات والسلوك والدم» لطبقة العبيد «المماليك» الذين حكموا أسيادهم المصريين في واقعة تاريخية يندى لها جبين البشرية.

ما سبق ذكره ببساطة شديدة كان هو ما حلم به ماهر طوال فترة دراسته، ويواصل الكتابة في دفتره بنهم شديد مع تركيز أشد؛ حتى لا يفوته شيء يريد إلقاء الضوء عليه، فيكتب:

– الآن فقط تذكرت قيمة كل كلمة كتبتها دكتورة زوزو في مقالاتها الجريئة عن مماليك العصر وثورة وثوار يناير عام 2011 ودور الأمريكان ونشطاء السبوبة الذين ملؤوا وسائل الإعلام بكلامهم الخبيث وسمومهم القاتلة جنبا إلى جنب مع جماعة الإخوان الإرهابية في التخطيط لضياع المحروسة، ويسترسل ماهر:

– لقد كانت دكتورة زوزو مُحقة حينما نوهت أيضا عن عملاء وخونة كل عصر، هؤلاء الذين نهبوا ثروات مصر بقوانين ظالمة ، مثل هذه النوعية لا تقل خطورة بأي حال عن تجار الدين الذين غرروا بشبابنا واستخدموهم ضد مصر أسوأ استغلال بالاتفاق مع السفارة الأمريكية لإحداث الفوضى في كل ربوع مصر في 25 يناير، وهو ما تسبب في حالة التشوش بالصورة العامة للشباب المشاركين في أحداث هذه الثورة، ومن ثم اختلط الحابل بالنابل.. وتم سرقة متحف التحرير

ومتاحف ومخازن آثار أخرى بشكل منظم من قبل مافيا الداخل والخارج معا.

ويردف المتهم من داخل غرفة الحجز:

- كما كانت زوزو تطالب في مقالاتها بتوخي الحذر من معاناة هذا الشعب المكلوم، وكانت تنصحنا دائما بأن نقرأ ما كتبه علماء بقامة «المقريزي» و «ابن خلدون» وغيرهما خاصة في علم الاجتماع عن الأسر والعصابات التي كانت تتحكم في غلو الأسعار، وتخطط وتنفذ مسلسل الإفقار والمجاعات التي ضربت مصر منذ عام 808 هجرية وما بعدها، ثم تحاول تشخيص أسباب الأزمة الطاحنة التي عاشتها مصر أوائل القرن التاسع الهجري.

- لقد كان «المقريزي» – رغم ما قيل عنه وفي حقه من منتقديه - في رسائله الصغيرة سابقا لعلماء الاقتصاد الأوروبيين بمائة سنة على الأقل في عرض وشرح النظرية القائلة بأن «النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من السوق».. كما توصلنا من رسالته أيضا إلى نظرية «دورية الأزمات الاقتصادية».

ويكمل ماهر على لسان زوزو، فيقول:

- حينها أدرك الجميع معنى التضخم الاقتصادي.. وذلك بعد أن قدم «المقريزي» شرحا وافيا للتضخم وأثره على مختلف طبقات المجتمع.. وفي محاولته لتشخيص سبب الأزمة الاقتصادية في عصره، والتي تشبه إلى حد بعيد ما عشناه فترة حكم مبارك، والربط بين الفساد السياسي من ناحية، والاستغلال الاقتصادي الخاص بالضرائب على كل شيء، ثم انهيار النظام النقدي من ناحية أخرى؛ لذا أجمع كثير من أهل العلم على منح «المقريزي» لقب «قمة الهرم في العصر الذهبي للكتابة التاريخية في مصر والشام».

***

*** «المقريزي».. مؤرخ مسلم، شيخ المؤرخين العرب، واسمه بالكامل «أحمد بن علي المقريزي» المعروف باسم «تقي الدين المقريزي»ولد عام**

1364 بالقاهرة، وتوفي 1442 فيها أيضا، كما أنه أحد الذين اهتموا بالتأريخ بكل نواحيه.. ألف كتابا عن السلوك، وضعه في أربعة أجزاء ضخمة صدر كل منها في ثلاثة مجلدات، ويعتبر «الكتاب العمدة» في التأريخ لدولتي الأيوبيين والمماليك منذ نشأة الدولة الأيوبية في منتصف القرن السادس الهجري حتى وفاة «المقريزي»، وقد جمع فيه بين أسلوب التأليف الحولي والتأليف وفقا لعهود حكم السلاطين.

من خلال مقالات دكتورة زوزو عن هموم الوطن.. كان ماهر دائما وأبدا يسأل نفسه ذات الأسئلة التي يتمنى أغلبنا أن يجد لها إجابة واضحة وصريحة لا لبس فيها، مثل:

– هل من سبب لحيرة وتوهان المواطن المصري البسيط عندما يُريد قضاء مصلحة من جهة حكومية هنا أو هناك؟؟.. هل من سبب مقنع لتكدس محاكمنا بمئات الآلاف من القضايا سنين وسنين حتى يتم البت فيها؟؟ بأي حق تتفاوت رواتب موظفي الدولة إلى حد «سخط» و «ضجر» معظمنا من هذا الواقع الظالم؟؟.. ولماذا نصطنع لبعض – كمصريين في الخارج – المشاكل التي تفوق في شكلها ونوعها أي جالية أخرى؟؟.. ومن الذي أسس قاموس الشتائم القبيحة التي نستخدمها ضد بعضنا بعضا بشكل مقزز؟؟.. ولماذا ترتعد فرائصنا عندما ندخل قسم الشرطة ولو كنا أبرياء؟؟، ويكرر ماهر على نفسه السؤال الأهم:

– يا ترى يا هلترا، من هو العقل المدبر للسيطرة على الاقتصاد و(تعطيش) السوق أو (تجويع) الناس؟؟..وهل أصحاب مثل هذه العقول يريدون من أفعالهم الـ «.....» حدوث اضطرابات داخلية تؤدي إلى الفوضى؟؟، يصمت ماهر للحظات مرة أخرى كي يتذكر شيئا ما يظنه غير ذات أهمية حتى يدونه، ثم يسافربروحه إلى هذا الزمان والمكان اللذين عاش فيهما أجدَّاده لينشد من خلالهما العزة والكرام، فيقول:

– كما كنت أريد من هذا كله تفسيرا تاريخيا واجتماعيا جديرا بالاحترام

والبحث، لأفتح بابا عقلانيا لبدء تطهير الذات الاجتماعية المصرية من أسوأ رواسبها الإنسانية والنفسية والخلقية.. لذا كان ضروريا أن أبحث أيضا عن مصادر ثقات لمعرفة مساحة حكم العبيد لمصر، فوجدته طويلا جدًّا.. ويبدأ باغتصاب المملوك (العبد) أحمد بن طولون حكم مصر من الدولة العباسية، وتحديدا في عهد الخليفة العباسي المعتز بن توكل عام 868 هـ، والذي ورث الحكم لأبنائه وأحفاده لمدة 38 عاما. ويُكمل:

– وبذلك كان هذا الشخص أول «عبد» مملوك يحكم أسيااااادا، ورغم ما أشيع في عهد الوالي محمد على أنه قضى على العبيد (المماليك) سياسيا في مذبحة القلعة 1811م، إلا أن هؤلاء العبيد لم ينقرضوا بيولوجيا ولا سلوكيا ، صحيح أن إبراهيم باشا بن محمد على قام هو الآخر بمذبحة لـ«المماليك» وقتل فيها 400 مملوك، كما قتل والده 1200، لكنهما ارتكبا خطأ لا يغتفر عندما أدخلا أبناء المماليك في خدمتهما وزوجا نساءهم لأتباعهما، وهذه مأساة أخرى انعكست على المجتمع بشكل أو بآخر.

ويختتم ماهر استفساراته باستحضار عدد من أرواح أجدادنا قدماء المصريين مثل: مينا وأحمس ورمسيس الثاني ونفرتيتي وحتشبسوت؛ ليسألهم رأيهم عن أحفادهم الذين تآمروا عليهم لصالح عدو لعين، فيقول:

– بظني أن «مينا» موحد القطرين (مملكتي الشمال والجنوب) حوالي عام 3200 ق.م كان سيقول:« بئسا لكم ولمن سيأتي من بعدكم إذا كانوا سيشبهونكم في بيع عظامنا وممتلكاتنا».

– وسيؤكد لنا البطل العظيم أحمس الأول محرر مصر.. وطارد الهكسوس.. وقاهر الآسيويون.. وأشهر مؤسسي الأسرة 18.. من عام 1525 وحتى 1550 ق.م.. بأننا أسوأ من أن ننتمي إلى انجازاته وتاريخه.

– وسيعرض الملك الشاب توت عنخ آمون بوجهه عنا.. لأننا تركنا لصا

يُدعي هيوارد كارتير ومعه ثلاثة لصوص آخرون يعبثون بمقبرته ويسرقون منها أسرارا في منتهى الخطورة يوم أن اكتشفوهـــــــــــــــا.

– أما رمسيس الثاني أشهر وأقوى ملوك مصر والعالم أجمع.. والذي حكمنا من 1213 وحتى 1279 ق.م.. فسيكتفي بالسخرية منا بعدما سلمنا جثمانه للعدو اللعين يجري عليها تحليلات زائفة بفرنســـــــــــــــا.

– بينما ستعاتبنا بشدة الملكة نفرتيتي.. جميلة الجميلات وزوجة الملك إخناتون وأم الملك توت عنخ آمون.. لصمتنا المشين وعدم ردنا على كل مُدِعٍ – أجنبي أو مصري – يتقول عليها ويشكك في أصولها المصرية الأصيلة.

– ولن تتوانى الملكة العظيمة حتشبسوت عن إطلاق لعناتها على أحفادها بسبب ما وصلوا إليه من فساد وإفساد وسرقة ونهب لتاريخها وكنوزها لصالح محتل «لعين».. أو مواطن «ألعن» باع ضميره وفرط في وطنيته مقابل متاع زائل.

■ الفصل الثالث

تطهير الذات

وحتى يكون ما نكتبه ذا قيمة بحثية – هكذا يكتب ماهر في مذكراته من داخل غرفة الحجز – فإن المراجع التاريخية تشير إلى أن ما تطرق إليه كان مجرد أمثلة فقط لكشف مساوئ الحكم المملوكي لمصر، فيقول:

– الغريب أن كل أمير مملوكي كان يحرص على أن تكون له المماليك «بتوعه»، وإذا وصل مملوك إلى عرش السلطنة حرص على تكوين مجموعة مملوكية جديدة، حتى يضمن أنها ستكون «بتاعته»، لأنه لا يضمن ولاء مجموعته التي كان منها.. وظلت فكرة «البتاع» و «البتوع» تتوارث جيلاً بعد جيل، ويردف:

– إن أغلب محاضرينا ومفكرينا وخبرائنا وعلمائنا شخصوا مرضنا دون أن يعرفوا جذوره التاريخية.. إذ يقال دائماً: «نحن نخاف وما نختشيش»، بمعنى أننا نخاف لكن ينقصنا الحياء، فالموظف – مثلا – لا يؤدى عمله إلا خوفاً من مديره، والمدير غالبًا يكون لديه دافع شخصي غير راتبه وحوافزه لمباشرة عمله، والمدير أحيانًا يمكن أن يصدر أوامر مخالفة للقانون والنظام إذا ضمن العاقبة، ولم يكن هناك ما يخيفه.

ويفند ماهر هذا الواقع المأساوي:

– مما يذكر في هذا الصدد أربعة أفكار أساسية تحلقت حولها فكرة العبيد البيض أو المماليك عن الاقتصاد والحياة الاقتصادية: فكرة (الريع) فكرة العمولة

أو السمسرة، وتداخلت معها فكرة تجارة النفوذ، البقاشيش (المفرد: بقشيش) والحلوان (المفرد حلاوة).. والسلب.مع أن السلب المصاحب للفوضى وغياب القانون كان يعد أهم ملامح (الاقتصاد الداخلي) في العصور التي ساد فيها تراث العبيد البيض، إلا أنني أستمسح القارئ عذرًا في ألا أتعرض لهذا الملمح – رغم أهميته – في هذا الفصل لسببين:

– الأول:القارئ سيجد معلومات كثيرة عن هذا السلب إذا تصفح كتب التاريخ المملوكي أو كتب التاريخ العثماني، حيث كان المماليك هم الحكام الحقيقيين، ولم يكن يمثل السلطة العثمانية إلا «والٍ عثماني» ضعيف الشأن، يمثل رمزًا أكثر مما يمثل سلطة حقيقية.

– الثاني: عمليات السلب والنهب بشكلها المباشر، وصورتها المادية: قيام المماليك بالهجوم على البيوت والمتاجر والمزارع. إلخ، قد قلت رويدا رويدا في التاريخ المصري مع تطور الدولة والاحتكاك الحضاري وقيام المؤسسات.إلخ

وقبل أن يختتم سرد جزء من كل هذه المأساة الإنسانية، يقدم ماهر اعتذاره للقارئ على خوضه في فترة حرجة من تاريخ أسود في عمر مصر يندى لها الجبين، فيقول:

– أعرف أني أسرفت في أمور قد لا تهم القارئ كثيرا، لكنها – من وجهة نظري – هي أحد المحاور المهمة في تشخيص الأمراض الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التي ألقت بظلالها على مصر.. لذا كان ضروريا أن أوضح جزءًا منها، ثم أعود مرة أخرى لتدوين ما بدأته ونوهت عنه لأدق تفاصيل حياتي:

– وبصراحة أنا لا أدري: هل من حُسن أم سوء حظي أنني كنت الأول على دفعتي، الأمر الذي صاحبه تعاطف أساتذتي معي وإصرارهم على تعييني كمعيد لمادة الصحافة بالجامعة نفسها، وبالفعل كان لهم ما أرادوا، وبدأت الدراسة التي تستلزم منى الظهور بوضع اجتماعي يناسب وظيفتي الجديدة، وكانت هذه هي المعضلة الأولى التي واجهتها في بداية حياتي العلمية والعملية معا، لأن أسرتي

ريفية ومتوسطة الحال.

– وبكل أمانة، لم أشأ حينها أن أفاتحهم في الأمر، رغم أن الحيرة والقلق والحزن كانت تسيطر دائمًا على وجهي، وفي أوج صراعي مع نفسي طوال أسبوعين كاملين قضيتهما بغرفتي داخل منزلنا البسيط بقرية ريفية متواضعة تتبع مركز المنصورة، انتظارا لما يمكن أن تسفر عنه تلك الظروف المأساوية، وإذ بصوت والدي الجهوري يناديني:

– ماهر، يا ماهر، ما ترد عليّ يا ابني.

يتوقف ماهر عن الكتابة للحظات ويتأمل غرفة الحبس ووجوه المحبوسين وهم نائمون، فيشرد بفكره ويسأل لهم الله أن يفك كربهم ويخرجهم من هذا المكان على خير، لم يُوقظ ماهر من هذه الحالة إلا صوت «شخير» عالٍ جدًّا لمتهم على سرير بجواره، ثم يُعاود استحضار ما سيكشفه من أسرار عن حياته الخاصة حفاظا على بيته ووضعه الاجتماعي قدر الإمكان، فيقول:

– بعيدا عن الخوض في أمور أسرية لا تهم القارئ كثيرا، نهضت من مكاني، وبسرعة البرق، خرجت من غرفتي، واتجهت ناحية والدي، لأعتذر له بشدة عن تأخري عليه، فنظر إليّ الوالد بعطف وحب وحنان وقال لي:

– شوف يا ماهر، أنا الحمد والشكر لله اتصرفت في قيراطين من ضمن مساحة 8 قراريط، هي ما نمتلكه من الدنيا يا ابني لتشتري اللي أنت عاوزه لزوم وظيفتك الجديدة اللي أسعدتني وأسعدت والدتك وأختك الوحيدة، وكثيرين من أهل قريتنا.

يشعر ماهر بدوار وصداع مفاجئ، وبصوت يمتزج بالمرارة على بيع القيراطين يسأل والده:

– ومن الذي اشترى أرضنا يا والدي؟

- راجل طيب ومحترم يا ابني، سيادة المستشار عبد الحليم باشا حلمي، لقد فرح جدًّا لما عرف أنك اتعينت معيدا في كلية إعلام القاهرة، وحتى قال لي أيضا إن الدكتورة زوزو بنته اتعينت هي الأخرى معيدة بكلية الصيدلة في نفس الجامعة، وعلى فكرة يا ابني الراجل ده بيحبك جدًّا من كثرة حديث بنته عنك منذ طفولتكما وحتى الآن.

ماهر واضعاً يده اليمنى على رأسه ويتذكر الرسالة الغرامية التي أرسلها لزوزو وهما في المرحلة الابتدائية، فيبتسم بخجل شديد، وبصوت هادئ يسأل والده:

- هو حضرتك يا حاج ما لمحتش زوزو هناك؟

يبتسم الأب وقلبه يعتصره الألم، ثم بضع يده على كتف ابنه ليسأله:

- معناه إيه السؤال ده يا ولد يا ماهر يا حبيبي؟.. هو انت مفكر إن أهلها .....

- ينظر ماهر في الأرض وهو يقطع حديث والده قبل أن يُكمل مالا يرغب في سماعه عن الفوارق الاجتماعية والثراء والفقر، فيقول:

- أبدا أبدا يا حاج، أصل .....

يعاجله والده بمشاعر أبوية سامية بعد أن اشتم في كلامه شيئا ما حتى يرفع الحرج عنه:

- شوف يا ماهر يا ابني، زوزو تم خطبتها منذ وقت قريب لأستاذ جامعي مشهور، وبعدين يا ابني، ميار بتحبك، وانت كمان بتحبها من زمان، وإن شاء الله تكون من نصيبك، وأبوها وأمها ناس على قد حالهم زينا و.....

ماهر يشفق على والده من الحديث بهذا الانكسار:

- أكيد يا حاج، ميار فتاة يتمناها أي شاب، وأنا سعيد جدًّا بأن تكون من نصيبي، وكمان أهلها ناس طيبين جدًّا، أما بالنسبة لزوزو، الله يهنيها ويسعدها يا حاج، أنا بس كنت عاوز أطمئن عليها والله مش أكتر.

الوالد مشفقا على ابنه ويحاول أن ينسيه أمر زوزو:

- شوف يا ماهر، المستشار عبد الحليم باشا حلمي، والد زوزو، رجل قضاء كبير ومعروف، وأولاده واصلين أوي ، وكمان يا ابني الرجل المحترم ده من الشخصيات المهمة جدًّا، مش بس في محافظة الدقهلية، لكن على مستوى مصر كلها يا ابني والله، ونحن نعتبره قدوتنا جميعا في عمل الخير ، وعلى فكرة يا ماهر، الراجل ده قبل ما يدفع لي ثمن الأرض أمام الشهود، قال لي:

- يا حاج أحمد، في أي وقت يتوفر معاك الفلوس، رجعها وخد أرضك.

لم يتمالك ماهر نفسه من الـــ «.....»، وبسرعة أغلق الموضوع وقال لوالده:

- زوزو تستحق كل الخير، مجتهدة وطموحة، وفوق كل ذلك «بنت أصول فعلا»، ربنا يسعدها ويهنيها. أما عن ضياع جزء من أرضي التي عشقتها طوال 23 عامًا، هي عمري في هذا الوقت يا والدي، والتي كنت دائمًا وأبدًا أساعدك في زراعتها أثناء محاصيل: الذرة والأرز والقمح، والخضراوات: البسلة واللوبيا والباميا والفلفل الأخضر والباذنجان، فأعدك بأن أستردها في أقرب وقت ممكن.

وقبل أن ينطق ماهر بكلمة واحدة حاول والده الحاج أحمد عبدالرحمن عوض (45 عامًا ضخم الجسم، غائر العينين، غليظ اليدين، ذو لون قمحي يشبه إلى حد بعيد لون أرضنا الطيبة) أن يخفف عنه آلامه وحزنه ويمسح دموعه التي انهمرت على خده حزنًا على بيع القيراطين.

وقال الوالد لماهر تطييبا لخاطره:

- يا ماهر يا ابني، أنت عندي أغلى من الأرض وحتى من نفسي، ونفس الشعور يا ابني عند والدتك وأختك الوحيدة، ولو كنت بعت قيراطين علشان تبقي أحسن أو على الأقل زي زمايلك الأساتذة، فأنا يا ولدي واثق إنك هتعوضني عنهم أضعافًا مضاعفة لما أمورك تمشي، وحالك يتغير للأفضل.

ويواصل ماهر كتاب مذكراته من محبسه:

– هذا المشهد الحزين رأته والدتي الحاجة زينب عبد الوهاب على (السيدة الريفية التي تحفظ كتاب الله وتفسيره، رغم أنها لم تنل من التعليم سوى المرحلة الإعدادية) وكعادة أهل الريف، تركت والدتي دراستها في السنة الثالثة الإعدادي، أي في عمر الزهور، لتتزوج من أبي و«تتستت» في بيتها كما نقول بلغة أولاد الريف، وأيدت والدتي رأي والدي، وكذلك وقفت شقيقتي تؤيد الكلام نفسه، وتشيد بقرار بيع القيراطين من أجلي، وهو موقف عظيم من أسرة فقيرة وبسيطة، لكنها متماسكة ومحافظة؛ تعرف جيداً قيمة العلم، وتقدر أمانة الأبناء.

ويتذكر ماهر أول يوم من استلام عمله الأكاديمي في كلية الإعلام بجامعة القاهرة:

– وجاء موعد عملي الجديدبالجامعة في أول شهر أكتوبر من كل عام كالمعتاد، ولأنني وشقيقتي كنا نقيم بالمدينة الجامعية طوال فترة الدراسة.. كان لا بد أن أبحث عن سكن خارجي لي وأترك شقيقتي كما هي في سكن الطالبات لحين أن أدبر أموري.

– ومن فضل الله على عبده المخلص، استأجرت شقة متواضعة عبارة عن غرفة وصالة ومطبخ وحمام بمبلغ 350 جنيهًا في منطقة بين السرايات، أي أمام مقر عملي بالجامعة مباشرة، وانتظمت في دراستي شهرًا كاملا، وكل يوم يكون هناك تواصل هاتفي مع والديّ، وشخصي بشكل يومي مع شقيقتي (الطالبة بالسنة الثالثة بكلية حقوق القاهرة) والتي تقيم – كما سبق وأشرت – في السكن الجامعي مع زميلاتها.

أما عن جارته ميار التي رشحها له والداه كزوجة، فهي طالبة بكلية الطب البشري أيضًا بجامعة القاهرة، كما كان دائم الاتصال بها بشكل يومي، ومع الوقت نشأ بينهما حُب أفلاطوني، لذا يكتب:

– كنت وميار نحرص على الخروج مرتين كل أسبوع:

– الأولى: أمشي معها على كورنيش النيل نأكل ذرة مشوية و«ترمس»، ثم نأخذ قسطًا من الراحة على المقاعد الخرسانية المخصصة للمارة لنتحدث في هموم الدراسة، وعلاقتنا بالزملاء ومشاكل أسرتينا، والتخطيط لمستقبلنا، ثم نحبس بـ«اتنين شاي في الخمسينة»، لنفترق بعد ذلك، هي على سكنها الجامعي بكليتها، وأنا على سكني الخارجي مباشرة.

– والمرة الثانية كنا نخرج لمشاهدة أحدث الأفلام العربية والأجنبية بإحدى دور العرض بوسط البلد.

خلال الأيام الأولى من عمله كمعيد بإعلام القاهرة، فوجئ ماهر بعميد الكلية الأستاذ الدكتور علي أبوزيد يطلبه ضروري في مكتبه، فكتب ماهر عن هذا الموقف:

– عندما أخبرتني سكرتيرة العميد بهذا الاستدعاء، خشيت أن أكون قد ارتكبت خطأ ما، ولا أدري كيف ولماذا انتابني هذا الشعور، وبمجرد امتثالي أمام أستاذي الجليل، وجدت الابتسامة تعلو وجهه البشوش وبدا أصغر من عمره بعشر سنوات، وهو الذي تجاوز الستين عامًا!!

***

*** الأستاذ الدكتور علي أبو زيد.. أحد أساتذة الصحافة العظام، ليس في مصر وحدها، ولكن في العالم العربي والإسلامي أيضا، عين عميدا لإعلام القاهرة بالإجماع من زملائه، يبلغ من العمر 64 عاما، شخصية وطنية من الطراز الفريد.**

***

عودة إلى دكتور على، يقول ماهر:

من ابتسامته التي استمرت نحوي دقيقتين متواصلتين على وجهه، قال لي:

– اتفضل يا ماهر، اتفضل يا ابني، عندي ليك خبر عظيم جدًّا.

عندئذٍ اطمأن قلب ماهر، وبدأ يلتقط أنفاسه وامتثل للأمر، ثم جلس فوق كرسي بجوار أستاذه، وقال لنفسه:

- «واضح إن الدنيا ضحكت لك أوي يا واد يا ماهر»، ويواصل:

- بدأ دكتور على حديثه معي بالتهنئة الحارة على اختياري من قبل مجلس إدارة الكلية للفوز ببعثة لنيل درجَتي: الماجستير والدكتوراه من أمريكا في الصحافة المتخصصة من جامعة كاليفورنيا.

ويصف ماهر هذا الموقف:

في الحقيقة وقع الخبر على سمعي وقلبي في البداية كالصاعقة، ولكن رويداً رويداً بدأت أستوعب الأمر، ثم وافقت على البعثة بعد دعم وتشجيع من بقية أساتذتي بالجامعة.

■ الفصل الرابع
وداع الأحبة

طوال شهرين كاملين، هي فترة استعداده للسفر وتمهيد هذا الأمر لأسرته الصغيرة، كان ماهر قد تواصل مع جامعة كاليفورنيا وحصل على التفاصيل اللازمة للإقامة والدراسة فيها.. وعن هذه الفترة يكتب في مذكراته:

– لأن علاقتي بزوزو كانت علاقة صداقة وزمالة على أرقى مستوى، كان لابد أن أودعها قبل سفري، وبالفعل تقابلنا أمام سلالم كليتها (صيدلة القاهرة)، هنأتها على تفوقها وتعيينها معيدة بذات الكلية، وشرحت لها كل تفاصيل بعثتي الدراسية لأمريكا، فدعت الله لي، ثم تعاهدنا على التواصل بواسطة السوشيال ميديا، حيث إنها كانت إحدى صديقاتي على صفحة الفيس بوك منذ أن أنشأتها، ويسترسل:

– حان وقت السفر، وقبل مغادرتي مصر الحبيبة بيوم، ذهبت إلى كليتي لأودع زملاء المهنة وأساتذتي وكل من لي بهم علاقة داخل الكلية أو خارجها، من: عمال وموظفين و.....

– وأثناء دخولي بوابة الجامعة، فوجئت بالدكتورة زوزو تناديني بعد أن أوقفت سيارتها جانبا، أسرعت نحوها وصافحتها، فسألتني:

– على فين العزم ماهر؟

– هاسلم على أساتذتي وزملائي وأودعهم قبل سفري.

– طيب تسمح لي أتمشى معاك شويتين حتى تنتهي من مهمتك وأوصلك للمكان اللي انت عاوزه بسيارتي.

ماهر يبتسم ابتسامة عريضة بها معانٍ جميلة:

– يا خبر، هو إحنا قد المقام، والله فيك ألف خيريا دكتورة زوزو، بس أنا مش عاوز أتعبك معايا.

زوزو تبادل ماهر المودة:

– عيب عليك يا ولد يا بتاع الجوابات الغرامية، ما تقولش كده، وبطل كلامك البايخ ده، إحنا اخوات وأصدقاء وبلديات.

يبتسم ماهر ويداعب زميلة الطفولة، فيسألها بدهاء:

– أصدقاء بس؟!

ترفع زوزو صوتها الراقي بابتسامتها المعروفة، ولكنتها شبه الأجنبية:

– يا ولد يا ماهر، قلت لك بطل شقاوة، إنت لسه فاكر؟!، خلاص يا سيدي أنا، عدينا المرحلة دي، أنا الآن متزوجة يعني أنا زي أختك يا ..... «فلاااااح»... افهم بقى وشلني من دماغك الـ «.....».

يُكرر ماهر ابتسامته ويبدى اعتذارا مصطنعا لزوزو، ويتمشيان بجوار بعضهما حتى دخلا صالة الأساتذة، فوجدا كوكبة منهم ، أصروا جميعا على الحديث معه لنصحه قبل سفره إلى أمريكا، فكتب:

– على الرغم من ضيق وقتي، إلا أن مثلي لم يكن يحلم يومًا بنيل شرف الجلوس مع آخر جيل إعلامي – أكاديمي من الزمن الجميل، لأسمع نصائحهم لي، حيث كانت – بحق – نصائح راقية جدًّا، تحولت مع الوقت إلى مناقشة، أو محاضرة مفيدة إلى أقصى حد ممكن حول «هوية الإعلام الأمريكي في تزييف الحقائق»، ويستطرد:

– كل الموجودين بصالة الأساتذة رحبوا بي وبضيفتي الكريمة دكتورة زوزو (المعيدة بكلية الصيدلة) بعد أن قدمتها إليهم، وبمجرد جلوسي لأرتشف فنجان قهوتي المفضل الذي يأتيني به دائما عم مجاهد (ستيني نوبي ودود) نظرت إلى الدكتورة مها الحربي (خمسينية، أستاذة العلاقات العامة) وهي تمسك بين أصابعها كوبًا من النسكافيه، وتنظر فيه بعمق كمن تستطلع من بقاياه مستقبلها، وتلقي بجسمها الممتلئ على كنبة أنتريه كأنها مصممة لها تحديدًا، ثم تحدثت مبتسمة:

– آاااه يا ماهر، ليت الشباب يعود يومًا، بصراحة يا ابني كنت أتمنى ألا تغادر كليتك إشفاقا عليك من آلة الإعلام الأمريكية الصهيونية، وكل ما أستطيع أن أقوله لك، هو الحذر من خلط الأمور في هذه الدولة التي أفسدت الكون بأكمله بإعلامها الموجه.

– كما أنصحك بأن تكون صاحب رأي يا ماهر، صاحب عقلية يعني، تفكر وتنطق بالحق وتوجه الآخرين له وبه، وإياك أن تكون ممن يُساقون بعصا المكافآت والمناصب.. احذر أن تكون مثل كثيرين هذه الأيام يباعون ويشترون في سوق العقول بثمن بخس، مثل: الإعلامين والكتاب الآكلين على كل الموائد.

وقبل أن يشكر ماهر أستاذته على نصيحتها، كتب:

– فوجئت حينها بنصيحة مضادة ألقاها ثمانيني شقي ومتصابٍ، وهو الأستاذ الدكتور أحمد النحاس (بروفيسور الصحافة المصرية بلا منازع) عندما داعبني مازحاً:

– ماهر يا ابني، خلص الدكتوراه بتاعتك وخليك في أمريكا، إحنا أهوووووه أمامك، أخدنا إيه يعني بعد ما أفنينا عمرنا في تعليم أجيال وأجيال من الإعلامين؟ بعضهم من دور أحفادنا؛ الآن يتقاضون الملايين، وأصبحوا بين ليلة وضحاها ملياردیرات نظير عملهم في الإعلام الخاص، أما إحنا، يا عيني علينا يا إحناااا، هههههه، جاتنا نيلة في حظنا الـ« هباب»، هههههههه.

وبابتسامة يملؤها الدهاء والمحبة في ذات الوقت، ترد عليه الأستاذة الدكتور مها الحربي:

– أستاذنا الدكتور أحمد النحاس يا ماهر بيضحك معاك، بيشاكسك يعني، وإياك تأخذ كلامه مأخذ الجد، فأنت تعلم أنني أحبك وكنت ممن دعمك ووقف بجوارك حتى تم اختيارك كمعيد لتصبح زميلا لنا، لذا أريد فقط أن ألفت انتباهك للإغراءات التي سيقدمها لك الأمريكان أو أتباعهم لشراء ذمتك لتصبح ترسًا في عجلة بروباجندا اليوم التي يمتلكها الأغنياء والساسة الصهاينة من ناحية. وبعض أصحاب المال الكبار من الناحية الأخرى.

ولأن دكتورة زوزو على درجة عالية جدًّا من الثقافة والإلمام بقضايا الإعلام ودهاليزه، طلب منها ماهر الإدلاء برأيها فيما يتناقشون فيه، فقالت:

– مع احترامي لأساتذتنا جميعا، كان لي وجهة نظر يعرفها جيدا ماهر، وهي خاصة بطريقة الأمريكان في التواصل معنا كشعوب مطحونة أرهقها الفقر وأضناها المرض ليبيعوا لنا أملا زائفا من خلال منتج عفن أو فكر احتكاري، أو في الغالب مرشح سياسي مدعوم منهم مثل مرشح الإرهابية.

– لذا فإنني أنبه دائما وأبدا بأن هناك فرقا كبيرا جدًّا بين صُنع البروباجندا وصنع الخبر، بمعنى أبسط يمكننا الآن أن نختلق حدثا للهرج والمرج والقتل والتفجير (صناعة الخبر).. أما طريقة عرض هذا السخف خبرًا فـ «كهنة البروباجندا» يعرفون جيدًا كيف سيعرضون الخبر المصنوع ليتماشى مع مصالحهم (صناعة الكباااار).

بعد لحظة صمت طويلة، ونظرات حادة، تترك الدكتورة نهاد عليوة (خمسينية رائعة الجمال، أستاذة الدعاية والإعلان) كوبها المزين بصورة فتى يُهدي وردة بيضاء لحبيبته، والممتلئ بشاي بحليب، وتترك أيضا قلمها وأوراقها جانبًا، لتتحدث عن ذكريات ابتعاثها للدكتوراه في جامعة نيويورك، منذ 20 عامًا، فتقول:

– الأمريكان وسنين الأمريكان يا ماهر، أقصد الصهاينة دون مبالغة، فأنا يا ولدي لا أحب المبالغة، ولكنها الحقيقة المرة، حقيقة صناعة أحداث 11 سبتمبر على سبيل المثال لا الحصر، لذا أنصحك بالبحث عمن ضرب برجي التجارة العالميين، وتكمل:

– إن المجرمين الحقيقيين بعد ضرب برجي التجارة بدقائق حركوا آلة البروباجندا في إعلامهم وإعلام أتباعهم وعملائهم، فرضوا كذبهم على الجميع، وادعوا أن العراق والقاعدة في أفغانستان هما من ارتكبا هذا الحدث، وبذلك هيؤوا الرأي العام العالمي – إلا من رحم ربي – لضرب البلدين بدم بارد. وتضيف دكتورة نهاد:

– وإمعانًا في إجرامهم أطلقوا شعارًا منحطًا يقول «من ليس معنا فهو ضدنا».. وبدءوا بالفعل في ضرب «العراق وأفغانستان» بكل أنواع الأسلحة المحرمة وغير المحرمة، والنتيجة الكارثية هي: مقتل مليون شخص في العراق، ونحو 240 ألف شخص في أفغانستان، لا لشيء مما ادْعاه هؤلاء الـ «.....» سوى للحصول على المزيد من بترول الأولى وأفيون الثانية.

أثناء الحوار دخل الصالةالدكتور ناجي رحيم (الستيني الأنيق، أستاذ اللغة الإعلامية)، ممسكًا نصف ساندويتش مربى بقشطة في يده، ويملأ فمه ببقايا النصف الآخر من الساندويتش، ليسأل ماهر:

– مقتل مليون مواطن في العراق، وربعهم تقريبًا في أفغانستان، هذا الكلام حقيقي وصحيح 100٪ يا ماهر، هل تعلم السبب الحقيقي وراء مقتل هذا العدد الرهيب يا ابني؟!

– أكيد يا أستاذي العزيز نهب ثروات البلدين ولا شيء غير ذلك.

– نعم يا ابني، هو كذلك، مع إضافة أن البروباجندا الأمريكية وقتها أقنعت

معظم المشاهدين والمستمعين والقراء حول العالم بالتعاطف مع جنودهم الذين يبيدون أبرياء لا ناقة لهم ولا جمل في هذه الكارثة الإنسانية، ويردف:

– تلك البروباجندا اللعينة يا ماهر يمتلكها أثرياء أولاد «.....»، سلبوا بها عقول البسطاء، فأصبح هؤلاء البسطاء يؤيدون الحرب على الأبرياء (المجرمين من وجهة نظرهم التي سممتها بروباجندا الصهاينة).

ورغم انشغالها بتصحيح أوراق امتحانات طلابها، والرد على متصلين كثيرين من هاتفها الجوال، إلا أن دكتور هبة محمود (الأربعينية – القمراية، مدرس مساعد الإذاعة والتليفزيون) أصرت أن تثري الحديث بروحها الجميلة وضحكاتها الرزينة، وبعض قفشاتها نصف المجنونة، فقالت:

– زميلي العزيز ماهر، حتى في بلداننا، وليس في أمريكا وحدها، تلاحظ أن الأغلبية الكاسحة (حزب الكنبة تحديدًا كما نسميهم) تُصدق بعض مُقدمي برامج التليفزيون لأسباب نفسية كشفها أكثر من مرة متخصصون في هذا المجال.

– منها على سبيل المثال أن هؤلاء يكشفون عن معلومات خاصة وغير متداولة تأتيهم من جهة هنا أو هناك دون غيرهم، طبعا لأسباب أيضًا معروفة ، والمحصلة النهائية (الكارثية) هي أن حزب الكنبة يقع تحت سيطرة كل كلمة يقولها مذيع تجده في أحيان كثيرة لا علاقة له بالإعلام وعلومه.

فيما تبتسم الدكتورة راوية العبد (ستينية، حادة الطباع والمزاح، متوسطة الجمال، أستاذة التشريعات الإعلامية) بعد انتهائها من تسجيل حلقة تليفزيونية بعنوان «مصداقية الإعلام في العالم العربي» مع أحد المذيعين بفضائية يمتلكها رجل أعمال معروف بنهبه أراضي الشعب، فتقول:

– بعض المذيعين – خاصة العاملين منهم في «الجزيرة» وأخواتها – لا يكتفون بالكذب على مشاهديهم طوال الوقت، بل يجيدون صناعة إشعال الحرائق ونشوب الحروب في الأماكن وضد الدول أو الطوائف أو الجماعات التي

يستهدفها أسيادهم.

– وهنا يقتنع المشاهد بهذه الـ «.....» ويؤيد تلك الفتن بقيام الناس على بعضهم بعضًا، فتظهر الأحقاد وتدور رحى الحروب لتأكل الأخضر واليابس بأسلحة الـ «.....»، وبهذه الخطط أو البروباجندا الحقيرة، يتحول حزب الكنبة إلى بوق إعلامي يؤيد ما خطط له ونفذه الـ «.....».

ولأن الدكتور سيد الطويل (أستاذ الإخراج الصحفي والإذاعي والتليفزيوني) العالم ببواطن الأمور وكل أسرار الصحافة والإذاعة والتليفزيون العالمية كان متواجدًا في هذه الجلسة، فقد لفت انتباه الحضور بصوته الجهوري وهو يبتسم بمرارة تارة، وبتهكم تارة أخرى، على ضحالة أحد المذيعين في برنامج «توك شو» كان يتابعه، فيستأذنه الحضور أن يُدلي برأيه عن سيطرة أباطرة الإعلام العالمي على كل أشكل وأنواع الميديا، فيزيد السبعيني جميل الروح بضحكاته «المجلجلة» من تهكمه بعد أن يُبعد البايب بيده اليسرى عن فمه، فيقول:

– انظروا حولكم، انظر معهم يا ماهر وتمعن – كرجل أكاديمي أصبحت متخصصا – في الإنتاج الثقافي والسياسي للقنوات الفضائية والإذاعة والصحف، ستجد بينهم جميعًا عاملًا مشتركًا، أو هدفًا واحدًا يخدم في النهاية مصالح «الكباااار».

ويسأل «الطويل» ماهر:

– فاهم يا ابني ؟.. أنا باقول لك «الكباااار فقط».. وإذا تحدثنا عن أمريكا كمثال لهذا الإعلام، فسنجد أن ملكية إعلامها بالكامل تعود إلى عدد قليل جدًّا من الملاك، وليس هذا فحسب، بل سنلاحظ أيضًا أن وسائل الإعلام هذه على اختلاف أنواعها لا يمكن أن تخرج عن أيديولوجية يحددها هؤلاء الملاك، فأمريكا بها 2000 قناة تليفزيونية، و15 ألف محطة راديو، و1300 جريدة، و20 شركة إنترنت، و6 استوديوهات أفلام.

بعد أن سمع ماهر هذه الحقائق من أستاذ الأساتذة، كتب يقول:

– لحظتها، كان لا بد أن أكشف عن حقيقة المعلومة التي قرأتها في أكثر من وسيلة إعلامية عالمية، فقلت لأساتذتي إن لديَّ معلومة حديثة تؤكد أن كل هذا العدد الضخم من وسائل الإعلام الأمريكية تتحكم فيه 6 شركات عملاقة، تعود ملكيتها لـ 6 أثرياء فقط، وهذه الشركات هي: Com CAST.. News Corp.. Time Warner.. CBC.. Walt Disny.. Viaco.. ويندرج تحتها شبكات إخبارية وقنوات فضائية عامة ومتخصصة وجرائد ومجلات عالمية، وتعمل في سياق إعلامي محدد داخل أيديولوجية يهودية موحدة.

ويدعم ماهر حديثه بأن كل مذيعي أمريكا يقولون العبارة نفسها التي تُملى عليهم في التوقيت نفسه، حيث سبق وتم فضحهم بهذا الجُرم الأخلاقي والمهني على الإنترنت من خلال عباراتهم المتشابهة.

ويردف ماهر وسط إعجاب الحضور وتصفيقهم له:

– وحتى لا نذهب بعيدًا عن سياق الموضوع، فإن علاقة الصداقة التي تجمع الدولة برجال الإعلام والبنكيين الكبار واحدة ووثيقة إلى حد بعيد، علاقة مؤبدة لا يسمح لها أطرافها أن «تتفسخ»، لأنه لو سقط طرف من أطراف الصداقة، ستنهار بقية الأطراف، لذلك لم ولن يسمحوا بزعزعة هذه الصداقة.

***

*** البنكيون الكبار.. هم أحفاد وأتباع وعبيد اليهودي «الماستر روتشيلد».. هؤلاء يسيطرون بأموالهم الـ«.....» على كل وأي شيء، ليس بغرض الاستثمار كما يشيعون ويروجون في إعلامهم الـ«.....».. لأن ثروتهم تكفي نسل نسلهم لأبد الآبدين، ولكنهم يستخدمون هذه الأموال للسيطرة على الدول والمؤسسات والمنظمات والأشخاص الذين يقفون عثرة في تحقيق رغباتهم السياسية والعقائدية الانتقامية والمحمومة، وفي الغالب لا يكتفي البنكيون**

بالسيطرة على من يعترض طريقهم، بل يصرون دائما وأبدا على إذلالهم و«مرمغة» أنوفهم في التراب. وهذا هو الواقع الأليم الذي نراه اليوم.

***

إلى هنا انتهت الجلسة النقاشية المثمرة بين ماهر وأساتذته وزوزو، والتي كشفت له عن حقائق إدارة النظام الإعلامي والسياسي العالمي، فكتب يقول:

– بعد ذلك مشيت قليلاً مع زوزو حتى مكان «ركنة» سيارتها، ثم استقللت معها السيارة حتى محطة مصر، شكرتها وودعتها على أمل التواصل في أقرب وقت ممكن. ثم استقللت القطار المتجه إلى مدينة المنصورة، ومنها إلى قريتي التي تبعد عن المدينة 8 كيلو مترات، لأودع أسرتي الصغيرة وبقية أهلي وجيراني وأصدقائي، فكان – بحق – مشهداً رائعاً تتجلى فيه أسمى معانى الوفاء والمحبة والترابط.. وفوجئت بميار تزورني مع والديها ليودعوني جميعا قبل سفري إلى مصيري المجهول، ويستطرد:

– نظرت إلى ميار، وجدت وجهها مفعماً بالحيوية، ووقعت عيناي بعينيها، كانت النظرات أقوى من أي كلام، وأوفى من أي عهود، ودون أن أدري تجاهلت كل العادات والتقاليد المتبعة، وكدت أحتضن يدها وأقبل جبينها أمام الجميع، ولكني استطعت لجم مشاعري في اللحظات الأخيرة، وسيطرت على جنوني.

***

*** ميار.. جارة دكتور ماهر في القرية، حاصلة على بكالوريوس طب جامعة القاهرة، تصغر ماهر بعام واحد فقط، شُعلة من النشاط والحيوية، مُلتزمة، بارة بأسرتها وأسرة زوجها، رفضت فكرة العيادة الخاصة، واكتفت بالعمل في المستشفى الحكومي لمساعدة الفقراء.**

***

عودة مرة أخرى لما كان يدونه ماهر في مذكراته، فكتب:

- في روحانيات هذا الجو الرائع قال والدي لوالد ووالدة ميار:

- خلونا نقرأ فتحة ماهر على ميار، ونفضها سيرة بقى.

يتوقف ماهر عن الكتابة لمدة 10 دقائق تقريبا ليسترجع ويستجمع فيها أدق تفاصيل الموقف الآتي ذكره بكل ما فيه، فأوضح:

- وما هي إلا ثوانٍ، وإذ بي أسمع صوت والدتي وشقيقتي ووالدة ميار تزغردن في بيتنا البسيط كالبلابل، ثم لحظات أخرى ووجدت بيتنا ممتلئا بالمهنئين المشاركين لنا فرحتنا من جيراننا الذين توافدوا على المنزل إثر الزغاريد التي أطلقتها الوالدة والشقيقة، والتي أسعدت الجميع.

- وتمت قراءة الفاتحة، وأهدتني والدتي دبلتين في الحال، الأولى فضة لي، والثانية ذهب لميار، وكأن الأسرتين كانتا قد اتفقتا على كل شيء دون علمي وعلم خطيبتي!!

خلال هذه الدقائق صاحبت السعادة والفرحة والبهجة وجوه المحبين والمهنئين بشكل عام، وأسرتي ماهر وميار بشكل خاص، وظلت والدة ميار، الحاجة علية المحمدي (43عاماً)، والحاجة عليه بالمناسبة، مديرة المدرسة الابتدائية التي كان ماهر وابنتها تلميذين فيها.

فجأة يرن هاتف ماهر الخاص، الذي سربه إليه محاميه بحجرة الحجز وأوصاه بألا يراه معه أي أحد، وألا يستخدمه إلا للضرورات فقط، وبصوت خافت يرد على رقم خاص «برايفت نمبر»، ويسأل المتصل باستغراب:

مين؟!

- هلا دكتور ماهر حبيبي، طمني عليك.

- ياااااه، هو معاليك لسه فاكرني يا أحمد بك أبو العزايم ؟!.. وكمان عرفت رقم موبايلي داخل الحجز؟!، طيب يا معالي الباشا، ليه تتركوني كده مرمي وأتبهدل

بالشكل ده وسط المساجين و.... ده أنا راجلكم برضه، مش كده ولا أنا غلطان؟

***

- أحمد أبو العزايم.. ضابط من جهة سيادية مصرية، يبلغ من العمر 35 عاما، يشبه في هيئته وثقافته وروحه البسيطة مشاهير هوليوود وبوليوود.

***

يعتذر أحمد بك للدكتور ماهر، ويطيب خاطره:

- معلهش اصبر شوية، وما تشيلش هم أي حاجة، وصدقني ما كانش عندنا أي علم بمشكلتك دي مع الـ «.....» إلا بعد إلقاء القبض عليك وعرضك على النيابة، وثق أن من ارتكب هذا الجرم سواء أكان ذلك داخل وزارة الآثار أو خارجها بالمخالفة للقانون، سينال عقابه وبرضه بالقانون، وإن شاء الله هتخرج في أقرب وقت ممكن، ويواصل:

- بلغ سلامي لـ«أنتيكا»، وخد بالك من «وائل بشلة» المحجوز اللي معاك، لأن الولد ده مجرم واستأجره «أعداء مصر» علشان يأذيك، ولو بصلك بس أو رمشلك،«أنتيكا» عارف هيعمل فيه إيه. أما بالنسبة لرقمك وموبايلك اللي سربه لك محاميك، فمأمور القسم على علم بكل شيء، وبتوجيه منا دون أن تعرف أنت ولا دكتور مدحت، هذه التفاصيل.

- يتعجب ماهر:

- تمام يا افندم ده شغل عالي أوي، يعني «أنتيكا» تبعكم؟!.. آاااااه، بقي الحكاية كده معالي الباشا، لكن فعلا المجرم وائل بشلة حاول يعتدي عليَّ مرتين من غير ما أعرف السبب، فكان «أنتيكا» له بالمرصاد.

- أيوه «أنتيكا» رجلنا من زمان يا ماهر، وعارفين إنه أحد مصادرك في الملف الأثري، مش بس كده، وكنا نتعمد نسلمه معلومات بعينها حتى يوصلها إليك،

كمان إحنا خليناه يسبقك في الحجز بالاتفاق مع مصلحة السجون علشان ما حدش يضايقك، خصوصا «بشلة».

- المتهم بأريحية تامة:

- تمام أحمد بك، ربنا يطمنك.

انتهت المكالمة ، وعاد ماهر مرة أخرى لتوثيق أهم ما مر به في حياته:

- وحانت لحظة السفر، فما كان من والدة ميار ووالدها (الحاج أحمد 47عاما، ناظر مدرسة ثانوي)، إلا أنهما أصرا على مصاحبة أسرتي إلى مطار القاهرة لوداعي، واستقللنا جميعاً سيارة ميكروباص في تمام الساعة الثانية ظهرا لتوصلنا إلى المطار في تمام الساعة الخامسة عصراً، وأمام صالة الركاب رقم «1» ودعت الجميع بدموع حقيقية ومشاعر جياشة خشية من تقلبات ومفاجآت رحلة السفر في بلاد الغربة.

داخل المطار أخرج ماهر جواز سفره لضابط الأمن الشاب المسئول برتبة رائد، فرحب به ودعا له بالتوفيق بعد أن سأله عن الغرض من سفره إلى أمريكا؟، فأجابه ماهر:

- مسافر كمبعوث من كلية الإعلام بجامعة القاهرة إلى جامعة كاليفورنيا للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في الصحافة.

الضابط يدعو لماهر بالتوفيق في رحلته، وفجأة يتوقف عن استكمال الكتابة بعد أن أرهقه التفكير، وحل عليه التعب، وغلب عليه النوم، فأطفأ شمعته، واستسلم طواعية إلى نسيان همومه ومأساته ولو مؤقتا، بعد أن غاص في نوم عميق على سريره في غرفة الحجز.

■ الفصل الخامس
«ماس» – فلوريدا

22 مارس 2012، وعلى غير عادته، استيقظ «أنتيكا» مبكراً، وصلي الصبح، وجلس يقرأ سورة البقرة، صوت «أنتيكا» العذب أيقظ ماهر من نومه العميق، ومع ذلك كان سعيدا بالتغيير الذي طرأ على صديقه ومصدره، فدعا له بمزيد من الهداية والتقوى وراحة النفس، وفي تمام الساعة 12 ظهراً سمع ماهر صوت أمين شرطة يناديه:

– دكتور ماهر أحمد عبد الرحمن؟

– نعم، مين؟

– أنا نوباتجي الحجز، استعد من فضلك للخروج، مأمور القسم عاوزك.

كعادته جلس مأمور القسم (العميد أمجد بك علام، 47 سنة ملتزم ودود إلى أقصى حد) في غرفته المكيفة مع دكتور مدحت يتجاذبان الحديث عن جرائم الإرهابيين داخل مصر وخارجها، حتى حضر المتهم من محسبه، فحياه المأمور. وما هي إلا لحظات حتى جلس المحامي مع موكله بالغرفة المخصصة للقائهما، بعد أن استأذنا المأمور.

المتهم يسأل محاميه بعد أن سلما على بعضهما:

– عندك جديد يا مدحت؟.. ولماذا لم تأت بأختي وزوجها ودكتورة زوزو

معك؟ أنا حقيقي محتاج أتكلم معاهم يا أخي.

– أختك تعبت شوية يا ماهر، وأخدها زوجها للطبيب، واضح كده، والعلم لله إنها هتخلف «ماهر الصغير قريب جدًّا»، هههههه..معلهش.

– أما بالنسبة للدكتورة زوزو فهي حقيقة بترسل لك السلام، وتعدك بزيارة في أقرب وقت ممكن، وتلتمس منك العذر لانشغالها بظروف وفاة والدتها.

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، رحمها الله وغفر لها، لقد كانت آمال هانم من السيدات الفضليات، كما كانت دائما من أصحاب الأيادي البيضاء على فقراء قريتنا والقرى المجاورة.

يصمت ماهر لحظة؛ يقرأ فيها سورة الفاتحة وبعض قصار السور على روح والدة دكتورة زوزو، ثم يخرج عن صمته ليسأل محاميه:

– صحيح خبر الحمل بتاع أختي ده يا مدحت؟.. الله يسمع منك حبيبي، أحسن أهل زوجها مستعجلين جدًّا على موضوع الخلفة بقالهم فترة، وده موضوع شاغلني أنا شخصيا أكتر بكتير من أي حد تاني، المهم خير يا مدحت، خبر إيه اللي عاوز تقول لي عليه؟ فيه إيه طمني.

المحامي يصوب نظره ناحية موكله، واضعا يده اليمنى على كتفه:

– القطع الأربع الأثرية التي تم اتهامك بسرقتها عثر عليها موظف بالآثار داخل شنطة بمحطة مترو شبرا صباح أمس الأول، فتوجه بها على الفور للمجلس الأعلى للآثار، وسلمها للوزير الذي أكد بدوره أن هذه القطع في منتهى الأهمية.

يقاطعه ماهر باستغراب بعد أن ضرب كفا بكف:

– إنت بتقول إيه يا مدحت؟!، صحيح الكلام ده ؟!

– والله زي ما باقول لك كده، وآدي الجريدة يا سيدي علشان تصدقني.

يلتقط ماهر الجريدة من يد محاميه ليقرأ كلامًا في متن الخبر على لسان أحد

موظفي الآثار فيقول:

- عثرت على الشنطة بمحطة مترو شبرا صباح أمس الأول.. حيث كانت المحطة مزدحمة، وعندما أتى القطار لم أركب، وانتظرت حتى تهدأ الزحمة، وبعد أن انصرف القطار، كانت المحطة خالية تماما، فوجدت شنطة، شككت في أمرها، فقمت على الفور بالتوجه إليها وفتحتها، فوجدتها مليئة بالقطن، فنزعت القطن فوجدت القطع الأثرية بداخلها.

يصمت ماهر للحظات، ثم يسأل نفسه همسا وابتسامة السخرية ترتسم على وجهه من «عبث» قيادات الآثار وأتباعهم:

- يعني ما تمش القبض على لصوص الآثار كالعادة؟!.. آه يا أولاااد الـ«.....».

مدحت يسأل موكله منزعجا:

- فيه حاجة يا ماهر؟.. عاوز تقول حاجة يعني؟

يخرج ماهر عن صمته، ويسأل مدحت وعلامات الاستغراب والدهشة لا تزال ترتسم على وجهه:

- شوف يا أخي، كل مرة يرجعوا فيها آثار مسروقة للوزارة من داخل مصر أو خارجها، وما يكلموناش عن اللي سرقها!!.. فأنت إيه رأيك يا مدحت بصفتك محاميا كبيرا ولك باع في «دهس» قضايا خطيرة من هذا النوع؟!

- المسألة مش محتاجة تفكير يا ماهر.

- يعني إيه فهمني، أنا دماغي هتنفجر والله.

مدحت يحاول أن يُخرج موكله مما أصابه:

- لا تنفجر ولا حاجة يا ماهر، أنت راجل صحفي وفاهم إن اللصوص دول

ناس كبيرة أوي، وبلاش أتكلم عنهم أكتر من كده، بدليل قطعة الآثار الأصلية اللي اتسرقت واتحط مكانها قطعة مقلدة من مخزن ميت رهينة، واتباعت بحوالي «30» مليون دولار في بلجيكا، وعلى ما يبدو حتى الآن إن أمين المخزن إياه خرج منها زي الشعرة من العجين!!

- تعرف يا مدحت أنا نفسي في إيه؟

مدحت متعجلا الإجابة:

- خير يا ماهر، نفسك في إيه يا صاحبي، خير يااااارب؟

ماهر بعد لحظة صمت ونظرات يملؤها الأمل يصوبها ناحية محاميه:

- دائما وأبدا تمنيت أن أقابل هؤلاء الـ «كبار» في نظر الغير، الصغار في نظري لأسألهم:

- هل حقا أنتم تحافظون على آثار شعبكم؟! وإذا كان الأمر كذلك، فمن ساهم منكم في تهريب كنوزنا للخارج للصهاينة ببلايين أو مليارات الدولارات؟.. بصراحة كنت أظن أننا بقيام ثورة 25 يناير نجحنا جزئيا في هزيمة المماليك. ونجحنا في إزاحة الرأس فعلاً، لكننا تركنا - بمنتهى حسن النية - بقية الجسد يحاول، تبديلا وتوفيقا، أن يستبدل مكانه رأساً آخر لا يختلف، فقط، إلا في ملامح الوجه..!

- ومع محاولات التبديل والتوفيق، بدأت الحقائق «المُرَّة» تتكشف، فمن استجلبهم مبارك يحتفظون بمواقعهم من خلف الستار، وإن أزيح واحد، حل محله «آخر» قديم، ولاؤه قطعا لمن جلبه «رأسا» لا «وجها»، ويعرف كيف يحافظ على أسرار «الغرف المظلمة».. وتدريجيا اختفي حسن النية «المفرط»، لندرك بعد سنة أن الثورة غير المكتملة تعني هزيمة من قاموا بها، وهي «الهزيمة» المستحيلة لشعب عرف مكمن قوته.

مدحت يشفق على صديق عمره محاولاً إخراجه مما هو فيه، فينصحه:

– هون على نفسك يا ماهر، ودعك من هؤلاء ، فلن ينفعك أحد إذا أصابك مكروه لا قدر الله.

– آاااااه يا أولاد الـــ «.....»، على أي حال يا مدحت، رجوع الآثار بالطريقة دي، هيكون أول خيط ممكن نمسكه لإثبات براءتي.

– شوف يا ماهر، رغم إنه خبر مش كافي، لكن إن شاء الله تعالي أنا متفائل بكل الخير، عاوزك بس تطمئن، وبلاش تتوتر أكثر من كده، وعن نفسي، أثق في الله إن براءتك جاية – جاية، هي مسألة وقت مش أكتر.

يهمس ماهر بصوت منخفض مع نفسه:

– كلام مدحت هو نفس الكلام اللي قاله لي أحمد بك.

يسمعه محاميه محاولا معرفة ما كان يفكر فيه صديقه:

– مين أحمد بك ده يا ماهر؟ أنا محاميك حبيبي، ولازم تعرفني كل شيء، هو فيه حاجة أنت مخبيها عني؟!

ماهر يخفي علاقته بأحمد بك عن محاميه لأسباب سيكتشفها القارئ من السطور القادمة:

– لا لا لا ، أبدا يا مدحت، مفيش حاجة، أنا بس كنت بافكر بصوت عالي حبتين حبيبي.

انتهت الزيارة بانتهاء تلك الكلمات، وقبل أن يستأذن المحامي في الانصراف، أعطى موكله كيساً كبيراً، كانت دكتورة ميار (زوجة ماهر) قد أعدته لزوجها، به من الأكل «البيتي» والمشروبات ما لذ وطاب.

عاد المتهم مهموماً إلى محبسه بصحبة رجل الأمن التابع لقسم الشرطة، فيستقبله صديقه «أنتيكا»، بكوبين من الشاي الكشري، وسيجارتين لف، يستمر «أنتيكا» في مواساة صديقه بكلمات الصبر، المصحوبة ببعض «النكت» البايخة،

كي يخرجه من حالة الحزن التي تلازمه.

بعد أن وزع ماهر ما كان معه من أكل ومشروبات على المحتجزين، ظل شارد البال، لم ينقذه من هذه الحالة إلا رجاء «أنتيكا» له أن يرمي همومه على مولاه، حينئذٍ نهض ماهر من مكانه ليتوضأ كي يصلي فرض الظهر، ويستمر على هذا الحال في صلاته وتسبيحه وقراءة القرآن إلى أن جاء موعد الشرطي الذي يوزع عليهم وجبة العشاء، فأكل لقيمات بسيطة وتناول كوبا من الشاي الكشري مع «أنتيكا»، ثم استغفر ربه ووضع جنبه على سريره بعد أن قرأ قصار السور القرآنية وأضاء شمعته وأخرج دفتره وقلمه بعد أن نام الجميع، ليواصل ما بدأه من مذكراته.

على الجانب الآخر عاد مدحت إلى منزله، لتستقبله زوجته بكل أنواع الكلمات الجميلة، ثم تسأله:

يا ترى فيه جديد بالنسبة للدكتور ماهر؟

– ليس بأفضل مما حكيت لك عنه المرة السابقة يا مارجريت، مع أننا توصلنا لخبر ربما يكون في صالحه.

بعد انتهاء الحديث بين الزوجين عن ماهر، ظل مدحت يقظا في مكتبه داخل منزله، يرتشف الشاي والقهوة من يد زوجته، ويتفحص كل معلومة ولو بسيطة في وسائل الإعلام، لعل وعسى أن يعرف المزيد عن تفاصيل قضية صديقه، لكن لا يوجد شيء ذو قيمة كان قد توصل إليه من وجهة نظره القانونية.

أما عن دكتورة زوزو، فرغم حزنها الشديد على فراق والدتها، إلا أنها كانت تتابع عن كثب كل صغيرة وكبيرة عن سير قضية ماهر، سواء من وسائل الإعلام، أو من محاميه وشقيقته مُنى وزوجها ضابط الشرطة محمود.

من داخل غرفة الحبس، يُخرج ماهر دفتره وقلمه بعد أن أضاء شمعته، ويبدأ في استكمال توثيق مراحل حياته:

– ما زلت أذكر تلك اللحظة التي أقلعت فيها طائرة مصر للطيران المتجهة إلى أمريكا من مطار القاهرة خلال رحلتي العلمية كطالب لدرجتي الماجستير والدكتوراه في الصحافة على نفقة جامعة القاهرة.

– وتلك السيدة منى محمد (أربعينية مصرية مقيمة بأمريكا) التي كانت تجلس بجواري، جميلة القلب والتكوين، خفيفة الظل إلى حد كبير، لم أنس إطلاقا حديثها الرائع عن مصر. وإصرارها على أن أتواصل معها كلما احتجت شيئا من هنا أو هناك، وقبل أن تهبط بنا الطائرة إلى الأرض الأمريكية بعد رحلة طيران امتدت حوالي 14 ساعة تقريبا، نظرت من شباك الطائرة إلى هذه الأرض الشاسعة، ويتابع ماهر:

– حينها دار برأسي ما سبق وقرأته عن جرائم الإبادة التي مارسها الأمريكان بحق الهنود الحمر (أصحاب الأرض الأصليين) ولا أدري: كيف قارنت بين هذا السيناريو الدموي السخيف، وما فعلته وتفعله حتى اللحظة، تلك العصابة الصهيونية بشعبنا الفلسطيني، وما يدور حاليا ومن قبل في كل من: أفغانستان والعراق .

يتوقف ماهر لحظة عن الكتابة ليتذكر كيف هبطت الطائرة في أرض مطار سان فرانسيسكو الدولي «San Francisc International Airport».. بولاية كاليفورنيا، والذي يبعد عن وسط مدينة سان فرانسيسكو حوالي 21 كيلومترا، ويعتبر البوابة الرئيسية للسفر إلى آسيا، وهو ما يعرف بمنطقة أوسترالاسيا، كما أنه ثاني أكبر مطار في كاليفورنيا بعد مطار لوس أنجلس الدولي. ويكتب:

– لم تمر لحظات من وقوفي أمام ضابط الجوازات الأمريكي بمطار سان فرانسيسكو، إلا ووجدت صوتا شاباً يناديني بالإنجليزية، ويعرفني باسمه:

– مرحبا سيد ماهر، أنا «جو» مندوب جامعة كاليفورنيا، حضرت لاستقبالك من المطار إلى مقر إقامتك الذي وفرته لك الجامعة.

ويستطرد ماهر:

- وقبل أن أرحب بـ «جو» وأشكره على صنيعه، قال لي:

- منذ زمن بعيد وأنا أقرأ عن مصر وتاريخها العظيم وموقعها الفريد وشعبها الطيب المضياف، لذا كنت سعيدا جدًّا حينما علمت أني سأستقبل شابا مصريا.

يبتسم ماهر في وجه «جو» ويقول له:

- إن شاء الله تعالى ستزور مصر، وستكون ضيفا كريما عليَّ في منزلي يا «جو».

ويواصل ماهر:

- شكرني «جو» على كلماتي البسيطة له، وفي لمح البصر أنهى لي ضابط أمن المطار جميع الإجراءات اللازمة، وسلمني جواز السفر مصحوبا بترحاب حار جدًّا في بلدي الثاني، هكذا قالها لي الضابط الأمريكي ذو الأصول الإفريقية.

- المهم قبل أن أغادر المطار برفقة مندوب الجامعة، وجدت السيدة مُنى وزوجها وأولادها أمامي يعرضون عليَّ خدماتهم، فما كان منى إلا أن شكرتهم جدًّا بعدما تبادلنا العناوين وتواعدنا على التواصل، ويتابع ماهر:

- استقللت السيارة مع «جو» شيفروليه حديثة، ووصلنا إلى مقر إقامتي في برج سكني فخم جدًّا يبعد عن الجامعة حوالي 10 دقائق سيراً على الأقدام، مكان إقامتي كان عبارة غرفة نوم وحمام ومطبخ به ما أحتاج إليه من أدوات نظافة ومأكل ومشرب وعصائر تكفيني لمدة أسبوع على الأقل، ثم صالة استقبال بها مكتب فوقه جهاز لاب توب وبجواره كرسي، وطقم أنتريه شيك، وتتزين حوائطه برؤساء أمريكا جميعا من أول رئيس لها وهو جورج واشنطن (1789-1797)، والقائد العام للقوات المسلحة للجيش القاري أثناء الحرب الأمريكية الثورية، وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وحتى الرئيس الحالي أوباما.

قبل أن يستأذن «جو» في الانصراف، قال لماهر:

– يوجد بجوارك عدد من دارسي الماجستير والدكتوراه، أتوا من بلدان مختلفة، وعلاقتي بهم طيبة للغاية، لأنني أيضا صحبتهم من المطار إلى هنا: فهل ترغب أن أعرفك بهم أو ببعضهم؟

– على الرحب والسعة مستر «جو»، لمَ لا؟ هذا كرم كبير منك.

يستأذن «جو» لمدة 10 دقائق، بعدها يطرق باب ماهر:

– تفضل سيد ماهر، الجميع ينتظر التعرف عليك في كافتيريا البرج بذات الدور، وهو مكان مخصص لراحتكم واستقبال ضيوفكم متى رغبتم.

ماهر يصف هذا المشهد:

– شكرت «جو» بالطبع، وسرت معه عدة خطوات، وإذا بمجموعة دارسين من الجنسين يرحبون بي بشدة، مع العلم أن بعضهم أصبح الآن أسماء مشهورة ورنانة في ميديا عالمنا العربي، شكرتهم جدًّا، وقضيت معهم بعض الوقت، شربت فيه الشاي والنسكافيه، وأكلت الساندوتشات الخفيفة.

– وظل «جو» بجواري حتى ودعتهم، وعدت إلى مسكني، وقبل أن يغادر «جو» المكان، سألني مرة أخرى إن كنت أحتاج إلى أي مساعدة.. فشكرته جدًّا، وقلت له: على وعد باللقاء في صباح اليوم التالي مباشرة.

نظر ماهر حوله من نوافذ مسكنه الزجاجية، وبدأ يحدث نفسه:

– الآن وفي هذه اللحظة، لم أجد من يؤانس وحدتي وغربتي القاتلة، الآن فقط أصبحت وحيدا، لا بأس أن أصنع لنفسي عالما خاصا أملؤه بما أستطيع من السعادة وراحة البال، على الفور، بدلت ملابس سفري بأخرى للنوم، جلست فوق كراسي الأنتريه وأخذت نفساً عميقا لدقائق معدودة أرتشف فيها فنجان النسكافيه الذي أعددته لتوي في مطبخي الجديد، ويتابع:

– تأملت الفراغ الرائع الموجود أمامي في البرج السكنى، فوقعت عيني على

بحيرة مياه صغيرة يسبح بها بعض الطيور، لا بأس، مشهد جميل يدعو للتأمل، خاصة تلك «البطة الأم» التي تعلم صغارها السباحة ضد التيار، يا لها من قدرة إلهية إذا أمعنا النظر فيها وتدبرناها.

حينها يتذكر ماهر كلام الخالق عز وجل فيقرأ:

- بسم الله الرحمن الرحيم: « ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .. سورة آل عمران الآيات : 190-191، ثم جلست أنظر وأتأمل كل وأي شيء هنا.

كما استرجع أيضا تلك اللحظة التي فتح فيها التليفزيون، وقلب عدة قنوات، فيكتب:

- لا يوجد شيء جديد عندهم، الإعلام نفسه الذي يتحكمون فيه كما يتحكمون في الاقتصاد والفن والسياسة، تقرير عن «بن لادن» تبثه إحدى قنواتهم تُظهره إرهابياً منذ نشأته وحتى لحظة مقتله، ينسبون إليه عمليات القتل والتفجير هنا وهناك، يا الله: أليست أمريكا هي من صنعت «بن لادن» وساعدته على إنشاء تنظيم القاعدة الإرهابي ليحارب الاتحاد السوفييتي ويخرجه من أفغانستان، ثم بعد ذلك تعلن عن مقتله مرة تلو الأخرى لأسباب سياسية بحتة؟!

- صدقت دكتورة زوزو عندما كشفت لقارئها في مقال لها بأن رئيسة وزراء باكستان Benazir Bhutto تم اغتيالها بعد مرور شهرين بالتمام والكمال لمجرد أن صرحت في 2007 عن مقتل «بن لادن» في جبال تورا بورا بأفغانستان بعد ضربات سبتمبر بشهور قليلة.. وأن هذا الذي يُدلي بخطابات في الإعلام بعد 2001 هو «بن لادن» مزيف، والآن يجب الكشف عن الحقيقة المرة، حقيقة أن كهنة أمريكا (الرأسماليين الكبار)إذاً هم الإرهابيون الحقيقيون ولا أحد غيرهم، هم من أبادوا الهنود الحمر، وقتلوا اليابانيين بقنابلهم النووية في هيروشيما ونكازاكي، ويتابع:

– الأمريكان أيضا هم الذين قتلوا مليونين من قرويي فيتنام الشمالية، وهم الذين حاولوا قتل الرئيس جاكسون لأنه فضح نظامهم البنكي المتحكم في كل مجريات أمور الاقتصاد والسياسة الأمريكية.. وهم الذين قتلوا كذلك رئيسهم كيندي لاعتراضه على سياساتهم الـ«.....» التي تعتمد على جني الأرباح من بيع الأسلحة للعصابات والأنظمة المستبدة بشعوبها.

يغمض ماهر عينيه للحظات بعد حالة الصداع التي أصابته من سرده تاريخ الأمريكان الأسود بحق الشعوب المقهورة وكل من يعترض إجرامهم، ثم يواصل كتابة مذكراته من داخل محبسه:

– لم يخرجني من هذا الجو المحزن سوى الهاتف الأرضي الموجود أمامي على المكتب، واللاب توب المجهز بالإنترنت، حينها تذكرت كلمات «جو» عندما أوصاني بضرورة التواصل مع جيراني وزملائي الدارسين، ثم أعطاني رقم هاتفه الجوال، وقال لي إنه يمكنني استخدام الهاتف الأرضي واللاب توب للاتصال بالأهل في مصر للاطمئنان عليهم، أو الاتصال به إذا احتجت منه أي شيء.

وحتى يكسر الحاجز النفسي لوحدته، خرج ماهر من مسكنه وطرق باب أحد الدارسين، فوجد أحمد بن جاسم، (ثلاثيني قطري الجنسية)، وهناء بن حلا،(ثلاثينية تونسية الجنسية)، وليلى بن شيبة (أربعينية مغربية الجنسية)، فرحبوا به جدًّا، وجلس معهم ما يقرب من ساعة زمن، فقال:

– كل منهم بدا سعيدًا جدًّا بدراسة الإعلام في جامعة كاليفورنيا، وبالطبع أنا سعيد مثلهم وأكثر، لكن ما لفت انتباهي حقًا وأثار حفيظتي، هو السر الخطير الذى اكتشفته من خلال أحاديثهم عندما أشادوا بدور قناة الجزيرة القطرية في إيقاظ وعى شعوبنا ضد حكامنا!!.. فمثلا تحدث أحمد القطري بصوت ممزوج بغطرسة المال:

– شوف يا أخ ماهر، ستظل قناة الجزيرة معلمًا إعلاميًا وعلامة فارقة في هذا المجال، تتفوق في تأثيرها على وسائل إعلام العالم العربي كله.

ويصف ماهر حديث الدارستين: هناء التونسية، وليلى المغربية:

– لم تختلفا كثيرًا في فكرهما عما طرحه زميلنا القطري.

يعود ماهر لمسكنه بعد أن شكر زملاءه على استقبالهم له رغم خلافه معهم في بعض الأمور، فيقول:

– التقطت سماعة الهاتف وأدرت الأرقام على هاتف أسرتي الأرضي أولًا، لأطمئن على والدى ووالدتي وشقيقتي، وحمدت وشكرت الله تعالى على أنهم بخير، يتبقى خطيبتي وحبيبتي ميار، أدرت قرص الهاتف الأرضي، وإذ بصوت ملاكي على الطرف الآخر، وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، سألتني:

– حبيبي، حمد الله على سلامة وصولك أمريكا، طمني عليك.

– الله يسلم عمرك يا عمرى، أنا بخير الحمد والشكر لله، طمنيني على والدتك ووالدك؟

– كلنا بألف خير حبيبي ، وخُد بالك من نفسك، وحاول تطمني عليك باستمرار.

في نهاية المكالمة، امتزج صوت ميار ببكاء خفيف، وهنا استحلفها ماهربالله ألا تفعل، فسمعت الكلام، وقبل أن ينهيا اتصالهما بـــ« لا إله إلا الله.. محمد رسول الله»، غنى ماهر لخطيبته أغنية سوزان عطية:

– تتائل بالمال يا حبيبي.. تتائل بالمال.. ولا غيرك ع البال يا حبيبي ولا غيرك ع البال.. أنا من غيرك إيه.. لو أنا مش وياك.. لو أنا مش وياااك.

ويواصل ماهر كتاباته وسط أفكار ومعلومات كثيرة، وخطيرة فينتقي منها ما يتفق مع ضميره وأمانة المهنة وحق الوطن والقارئ عليه، فيقول:

– مر الوقت دون أن أدرى، واقتربت الساعة من السادسة صباحًا، وقبل أن تغفل عيناي من الإرهاق، فتحت صفحتي بالفيس بوك من اللاب توب، وإذ برسالة على الماسنجر من دكتورة زوزو تحمل كل معاني الأصالة والوفاء للسؤال عني وعن أحوالي، فتواصلت معها على الخاص حوالي ساعة زمن نناقش فيها مجريات الأمور في المحروسة بشكل عام والجامعة بشكل خاص، فتنبأ كل منا بالأحداث التي وقعت فيما بعد 25 يناير 2011 وحتى كتابة تلك الكلمات، نتيجة الفساد والفوضى والخيانة والعمالة التي عمت ربوع مصر على يد فئة معروفة حينها للجميع.

غفلت عينا ماهر وهو جالس بجوار اللاب توب، ولم يستيقظ إلا على جرس الباب، ينهض من نومه ويتجه ناحية الباب ليجد أمامه الشاب العراقي الذى قابله ضمن طلبة الدكتوراه ليلة أمس، عدنان اليوسف (35عامًا طويل القامة، يشبه في أصالته الخيول العربية) مبعوث كلية الإعلام بجامعة بغداد للحصول على الدكتوراه في الصحافة من جامعة كاليفورنيا، فيقول:

– رحبت به وقضينا بعض الوقت في الحديث عن مؤامرة الأمريكان على العراق بحجة أن صدام حسين كان يمتلك سلاحًا نوويًا سيدمر به أمريكا وإسرائيل!!.. كما انجرف بنا النقاش إلى الحملة الإعلامية التي تبناها الإعلام الأمريكي لصالح رجاله الكبار، ومنهم الإمبراطور كيث روبرت مارودخ ضد العراق.

***

*** كيث روبرت ماردوخ.. ولد في ملبورن بأستراليا عام 1931، وفي عام 1953 تولى مهام إدارة شركة News Ltd بأستراليا، عام 1955 أسس شركة «نيوز كوربوريشن» وهى تعمل في ثمانية قطاعات منها: الأفلام الترفيهية والتليفزيون وبرامج شبكة الكابلات والبث المباشر من خلال الفضائيات والمجلات والجرائد ونشر الكتب وغيرها من الأنشطة، تمت مقارنته بوليام**

راندولف هيرست، الذى يُعد مؤسس الصحافة الشعبية التابلويد.

*** تورطت صحيفة «نيوز أوف ذا وورلد» الأسبوعية التابعة لشركة «نيوز كوربوريشن»، التي تنشر في المملكة المتحدة، في قضية تجسس على مكالمات هاتفية لسياسيين ومشاهير وأعضاء من الأسرة المالكة، في إبريل 2012، اعترف ماردوخ بالتستر على انتهاكات ارتُكبت بالصحيفة الأسبوعية، كما أعلن مُشرّعون بريطانيون أن ماردوخ يعتبر «شخصًا لا يصلح للإشراف على شركة دولية كبرى»، بالإضافة لمخالفات وجرائم أخرى من هذا النوع ألصقت به.**

***

يتابع ماهر حديثه مع الشاب العراقي:

– حينها كشف لى «عدنان» عن امتلاك ماروخ عددًا كبيرًا من الصحف مثل: نيويورك بوست، وصنداي تايمز، وديلى ميرور، وصنداي ميرور، وبوسطن هيرالد، وشيكاجو صن تايمز، وصحيفة الصن التي حولها إلى «تابلويد»، كما يمتلك عدة محطات تليفزيون أمريكية، وأسس قناة فوكس نيوز، وهو الناشر لصحيفة «وول ستريت جورنال» الأمريكية.

بعد ذلك يسأل «عدنان»:

– إذًا هؤلاء الـ «.....» مصممون على تدمير ما تبقى منا بأيدينا.

– نعم سيدى الكريم، الأمريكان يظنون أننا سنبيع أوطاننا وأمتنا مقابل ورقة من جامعة تقدمك على أنك بروفيسور.

– دعهم يظنون، المهم نحصل على درجة الدكتوراه، ثم نذهب إلى بلادنا لنصلحها لا نُخربها.

– عندك حق والله أخ ماهر، المشكلة أن العديد من زملاء المهنة لا يهمهم مصلحة أوطانهم، وأصبحوا أصدقاء للأنظمة في أمريكا وقطر وإيران وتركيا وحتى

إسرائيل- مثل هؤلاء يظنون أنهم وطنيون وأصحاب ضمير إنساني أكثر بكثير من غيرهم، أكثر حتى من أساتذتهم الذين علموهم، ولأن أصحاب القنوات تربطهم علاقة مصالح دائمًا مع الحكومات، لا يسمحون بأي كلمة تمسهم.

- فعلًا يا عدنان، فأي مذيع يخالف التعليمات في هذه الفترة كان يُنكل به ويستبعد من عمله فورًا، وقد رأينا ذلك أيام الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، وعلى سبيل المثال، مذيع الـ« CNN » المدعو « Peter Amett» .. وهو مذيع لا يقل في شهرته العالمية عن أوبرا وينفري، بمجرد أن عارض حرب أمريكا على العراق، تم استبعاده من عمله فورًا، ويضيف:

- وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل صنعوا من هذا المذيع الشهير أضحوكة لزملائه، حتى لا يتجرأ غيره على معارضة هذه الحرب، وذلك عندما نظموا حملة للسخرية منه بـ177 كاريكاتيرا مُهينا لشخصه.

يبكي الشاب العراقي على تدمير بلده وخيانة بعض إعلامييها لشعبهم:

- ده حتى أي صحفي أمريكي يا ماهر كان يكتب مقالًا مناصرا لبلدي ضد هذه الحرب الـــ «.....» علينا، كان مصيره الرفض الفوري، فقط كانوا يسمحون بالمقالات المؤيدة لتلك الحرب، وقد كشفوا أكثر من مرة عن أثرياء حاولوا شراء دقائق إعلانية على القنوات الكبيرة لرفض هذه الحرب، ولكن تم رفض عروضهم رفضًا باتًا، ويتابع:

- وهذا الوضع المؤسف يؤكد من يحكم العالم من وراء الستار. ابحث عن هذا النظام في أى دولة بالعالم، ستجده تقريبًا ذا الأبعاد الثلاثة المعروفة (نظام.. إعلاميون.. وبنكيون)، ويكون ترتيبهم: البنكيون لهم الأمر والنهي.. ثم النظام.. وبعدها يأتي دور الإعلاميين.

ماهر مشفقا على عدنان، ويحاول التخفيف عنه:

- دعنا منهم يا عدنان ومن خططهم ومن يسير في ركبهم، وإن غدًا لناظره

قريب.

بعد أن استأذن عدنان ليذهب إلى حيث أتى، يجلس ماهر بمفرده شارد البال نحو ساعتين يفكر في أمر إمبراطور الإعلام ماردوخ. يخرج من حالته هذه على جرس الباب.. ينهض مسرعًا ليفاجأ بزميلتيه: مهيرة (سودانية – ثلاثينية صاحبة جمال أخاذ) مبعوثة كلية الإعلام جامعة الخرطوم، وجميلة (ليبية – أربعينية تبدو بدوية من ملبسها المحافظ) مبعوثة كلية الإعلام بجامعة طرابلس، طالبتي الدكتوراه بجامعة كاليفورنيا، رحب بهما وشكرهما على دعمها لحديثه أمس عن الأمة العربية والإسلامية، تحدث معهما عن هموم الإعلام العربي وسبب اختراقه.

بدأ ماهر حديثه مع ضيفتيه بعد أن أجلسهما في صالة الاستقبال، وأعد لكل منهما فنجانا من النسكافيه، وأعد لنفسه شايا بالنعناع، فقال لهما:

– قبل أكثر من قرنين من الزمن قال الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون: «لو تُرك الأمر لى للاختيار ما بين حكومة بلا صحافة أو صحافة بلا حكومة لاخترت الثانية بلا تردد»، وعندما تعرض الرجل لهجوم عنيف في سنة حكمه السابعة شن هجومًا على الصحافة في عام 1807 إلا أنه ظل متمسكًا برأيه الأول، وزاد عليه أن الصحافة هي الشر الذى لا يمكن إصلاحه.

بوعى عربي وقومي، نظرت مهيرة إلى زميلها وزميلتها باهتمام بالغ وبدأت حديثها:

– وظيفة الصحافة عكس ما نراه اليوم تمامًا في الولايات المتحدة والعالم، خاصة في الدول السلطوية، فالسطحية تتفوق على العمق في التغطية، والترفيه يسبق الصحافة الجادة، والميول السياسية تشوه المهمة الأولى، وهى تقديم الخبر الذى هو ملك للقارئ والمشاهد بلا انحيازات.

وفي وصف الحالة الإعلامية التي خلفها حكم الجمهوريين في السنوات الثماني الماضية، أكملت:

– إن ما حدث في عهد جورج دبليو بوش هو حالة تضليل أدت إلى «جاهلية» لا تُناسب الدولة التي تقود العالم.. فليس بغريب ما حدث في غياب إعلام يُثقف لا يُضلل.

بغصّة في حلقها ومرارة في حديثها توضح جميلة:

– لقد أصبح هذا الإعلام أداة مساهمة في صنع السياسة الخارجية، يعود تأثيرها على كل من صناع القرار والرأي العام، حيث إن آراء المواطنين سواء أكانوا رسميين أو غير رسميين تتشكل نتيجة لملاحظة الأحداث وتفسيرها، والوسيلة الإعلامية هي الملاحظ الأول للأحداث الدولية، بل هي المصدر الأساسي لتفسيرها، وتواصل:

– وبالنسبة لصناع القرار، فتقوم الوسائل الإعلامية بدور بارز في توجيههم وإمدادهم بجزء مهم من المعلومات التي على أساسها يتخذون قراراتهم، وبالإضافة إلى كون الوسائل الإعلامية مصدرًا مهماً للمعلومات الداخلية والخارجية فإنه يمكن الاستفادة منها كمؤشر للرأي العام ودليل لمواقف المواطنين تجاه السياسة الخارجية للدولة.

كلام منطقي جدًّا، وكلام عقلاء بالفعل، هكذا علق ماهر على كلام جميلة، ثم زاد عليه:

– قد يكتب أحد المسئولين في الحكومة – أي حكومة – مقالًا صحفيًا باسم مستعار يدعو فيه لنهج جديد في السياسة الخارجية، والهدف من المقال في هذه الحالة هو معرفة ردود أفعال المواطنين تجاه هذه السياسة الجديدة قبل الأخذ بها، وردود أفعالهم وتعليقاتهم تتولى الصحافة تنظيمها إن لم يكن إعدادها. وبهذا يكون للصحافة دور في صنع القرار الخارجي وتحديد وجهته.

النقد وإبداء الرأي في إعلامنا أمر مهم جدًّا لكل من يعي ويفهم خطورة المرحلة الحالية، هكذا عبرت مهيرة بعد أن قاطعت ماهر، ثم أوضحت قائلة:

– إن مواقف الوسائل الإعلامية العربية من القضايا الدولية كثيرًا ما يتقبلها المواطن العادي، ويجعلها الأساس لتفسيره للأحداث الدولية، وهذا الدور تقوم به الوسائل الإعلامية في أغلب الدول النامية، وفي الدول ذات الإعلام الموجه حيث يكون دور الإعلام إيجاد دعم المواطنين لسياسة الحكومة الخارجية والعمل على رفع الروح المعنوية.

ينتهى النقاش الثلاثي عند هذا الحد، بتناولون وجبة «مسقعة» باللحم المفروم، كان ماهر قد أعدها قبل أن ينام حتى يأكل منها يومين أو ثلاثة، لكن كما يقول المثل«تبقى في بقك وتتقسم لغيرك»، ثم حبسوا بـــ «ثلاثة فناجين قهوة محوجة»، لتنصرف بعد ذلك الضيفتان إلى مقرهما، على وعد بأن تذهبا مع ماهر وبقية الدارسين لسماع محاضرتهم الأولى بمقر كلية الإعلام بجامعة كاليفورنيا لعدد من أساتذتهم بعنوان: «دور الإعلام الأمريكي في أحداث 11 سبتمبر».

بدأت البروفيسور سارة ليفنى المحاضرة بالقاعة المخصصة للدراسات العليا بالكلية (مكان أشبه بصالات دور العرض والمسارح الراقية)، فقالت:

– وقعت التغطيات الصحفية عقب أحداث 11 سبتمبر في فخ غياب القدرة على النفاذ إلى عمق ما حدث فوق الأرض الأمريكية، كما أن التغطية في شبكات الأخبار والمجلات الإخبارية تبدو كأنها تبنت هدف تحضيرنا للحرب، بدلًا من إثارة سؤال مثل: كيف وصلت الأمور لهذا الحد؟ ولمن ستكون تلك الحروب؟، وتكمل:

– لقد كنت محبطة بشدة من العدسات غير النقدية التي استخدمها الأمريكيون لمشاهدة الأمر، ووصفت أغلب التغطية الإعلامية في عالم ما بعد 11/ 9 بأنها كانت «دعاية صارخة».

***

*** بروفيسور سارة ليفني.. عميد كلية الإعلام بجامعة كاليفورنيا.. سيدة يهودية، في العقد الخامس من عمرها.. تتميز بسعة الصدر واتساع الأفق، تبدو لمن يراها أصغر من عمرها الحقيقي بـــ 25 عاما على الأقل.**

***

صمتت بروفيسور سارة فترة لتتفحص وجوه الدارسين، فشد انتباهها بشدة نظرات الطالب المصري ماهر إليها، وكادت تتوقف عن استكمال شرحها للمحاضرة لشيء ما يصرخ بداخلها ناحية هذا الشاب سليل الفراعنة بلونه وسحنته ودمه – هكذا حدثتها نفسها – لأسباب ستتضح لاحقا، لكنها تمالكت نفسها،وواصلت الشرح:

– لقد فعل الإعلام الأمريكي كل شيء إلا ما يستوجب عليه فعله، وهو مد المواطن الأمريكي بالسياق الذى يمكنه من فهم أسباب ما يحدث. لذا نصحت طلابي بالبحث عن مصادر أخرى للمعرفة والأخبار في العالم إلى جانب الإعلام الأمريكي الذى يعانى مضاعفات خطيرة تضر بمصداقيته، كالصحافة البريطانية والألمانية التي تعنى بالعمق والتحليل والتدقيق فيما تنشره مع عدم تجاهل انحياز هذا الاعلام لمن يمتلكه، وهذا ما جعلني آسفةعلى أن أمريكا لا تقدم النموذج الأمثل للعالم في مهنة البحث عن الحقيقة، وفي توقيت يحتاج العالم فيه إلى قيادة رشيدة.

ماهر مقاطعا حديث أستاذته برُقى بعد أن استأذنها في سؤالها عن أسباب فقدان الإعلام الأمريكي مصداقيته خلال تغطية حرب العراق.

بنظرة إعجاب وتقدير في ذات الوقت، سألت سارة نفسها إن كان ما شعرت به تجاه ماهر هو «الحب من أول نظرة»؟!، وسرعان ما سألته عن اسمه وجنسيته حتى تتأكد مما أحست به.

– اسمى ماهر يا بروفيسور، وأنا من مصر.

تبتسم سارة وتصمت فترة لتستحضر فيها أيام طفولتها التي عاشتها في الأقصر مع شقيقها ووالديها عالمي الآثار، ثم تخرج عن صمتها، وتواصل حديثها بعد أن تأذن لماهر بالجلوس، وتجيبه:

– إن إحدى العلامات المهمة في التعامل مع حرب العراق أيها الفرعوني الصغير – هكذا داعبت الأستاذة تلميذها – تكمُن في عدم قدرة الإعلام الأمريكي على توقع الحرب الأهلية أو الصدامات الطائفية في العراق، ولم يحدث نقاش حول الأمر إلا بعد أن نشر المحلل الاستراتيجي أنتوني كوردسمان بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن دراسة في عام 2003 توقعت حدوث صدامات طائفية تعصف باستقرار العراق، وتتابع:

– والمعروف أن الميديا الأمريكية المحافظة تتهم وسائل الإعلام الليبرالية مثل شبكة «MSNBC» بمعاداة السياسات المحافظة واللين في مواجهة الخطر الداهم للإرهاب العالمي، بينما يوجه الخبراء أصابع الاتهام إلى الإعلام المحافظ بتقديم معلومات مغلوطة وسلبية والتجريح في الخصوم السياسيين وتهديد الديمقراطية الأمريكية، فيما يتهم الخبراء الإعلام الليبرالي بالسطحية وإغفال الحقائق والاهتمام بالشق التجاري والإثارة على حساب العمق والتحليل، وقبل أن تختتم بروفيسور سارة كلمتها، تطلب من ماهر الحضور إلى مكتبها في الوقت المناسب له.

دكتور باراك هيل (سبعيني متهالك، خبير في الإعلام الدولي) حدد من جانبه في المحاضرة نفسها مجموعة من العوامل التي أسهمت في تراجع لعب وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى دور الرقيب على السلطة التنفيذية في فترتى حكم جورج دبليو بوش (2001– 2009)، فقال:

– كانت هناك حالة من الخداع غير المسبوقة بالميديا في صورة حلقات متصلة بنجاح حملة العلاقات العامة التي نفذتها مجموعة صغيرة في تسويق حرب العراق بشبكات التليفزيون الكبرى والصحف الأعلى توزيعًا، موضحًا أن هناك مستويين

لهذه الأخطاء:

- الأول: المسئولون الكبار الذى يختارون في الخفاء رجال الإعلام الذين يمكن عن طريقهم الترويج للسياسات، وهذا المستوى يضم شخصيات في وزن نائب الرئيس ديك تشيني وسكوت ليبي، وكارل روف، المستشار السياسي للبيت الأبيض سابقًا.

- والثاني: يضم شخصيات سياسية جاءت مع الإدارة مثل إليوت إبرامز، مسئول الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي، وبول وولفويتز، نائب وزير الدفاع السابق، ودوجلاس فيث، ووظيفتهم تمثلت في التحايل على الجهاز البيروقراطي من أجل صناعة وفبركة الأكاذيب.

ويكمل بروفيسور باراك شرحه لطلبة الدراسات العليا العرب:

- إن المسئولين في المستوى الثاني يقومون بخدمة أهداف المستوى الأعلى، كما أن مراكز الأبحاث خاصة أمريكان إنتربريز المرتبط مباشرة بنائب الرئيس الأمريكي السابق أسهمت في تخبط وتحوُّل دفة الحوارات في وسائل الإعلام، بينما تولت محطة فوكس نيوز المملوكة لملياردير الإعلام روبرت ماردوخ الهجوم على من يخالف الإدارة أو التوجهات اليمينية، ويختتم:

- لذا فإن خداع الصحافة الحرة أسوأ ما شهدته الولايات المتحدة منذ بدء الحرب على العراق، وهو ما جعل الكثيرين يبحثون عن الصحافة البديلة بعيدًا عن الميديا المسيطرة، خاصة شبكات الكابل التي لا تقدم أي معرفة حقيقية حول حرب تخوضها الولايات المتحدة منذ سنوات.

بعد يوم شاق ومرهق من المقابلات والنقاش مع طلبة الدكتوراه العرب، ومحاضرة مكثفة عن دور الإعلام الأمريكي في أحداث 11 سبتمبر، غاص ماهر في نوم عميق، ليستيقظ على جرس الباب، فيسأل من الطارق؟

- «جو» مندوب الجامعة يا مستر ماهر.

رحب ماهر بـ «جو» وأجلسه في صالة الاستقبال، فكتب:

– على الفور ارتديت ملابسي الشتوية نظرًا لبرودة الجو، ثم توجهت مع «جو» إلى الأسانسير، ومنه إلى سيارة الجامعة في موقف البرج، ثم اتجه بي إلى مقر عميد الكلية بالجامعة، البروفيسور سارة بناء على دعوتها لي في المحاضرة، استقبلتني بترحاب ومودة، أذكر أنها دخلت معي بعد ذلك في حوار هام جدًّا، ثم سألتني عن رأيي في المحاضرة التي ألقتها أمس؟

– محاضرة دسمة جدًّا والله يا بروفيسور، وجميع الطلبة استفادوا منها.

– أشكرك جدًّا يا ماهر، وعلى فكرة، اسم ماهر جميل جدًّا.

يحمر وجه ماهر من ثناء أستاذته عليه، ثم يشكرها على أسلوبها الراقي معه.

ابتسمت بروفيسور سارة وهي سعيدة جدًّا بحالة الحياء التي بدت على وجه ماهر، ثم قالت له:

– أريد أن أهديك شيئاً مني فلا تحرجني أرجوك، هذا الظرف لك، بداخله مبلغ من المال أنفق منه إلى أن تتحسن ظروفك.

تحمر وجنتا ماهر، وبدا أمام بروفيسور سارة كمن لدغه عقرب، فقال لها:

– سيدتي، لم آتِ إلى هنا لأتسول المال، سيدتي الكريمة، أنا طالب علم، ردي نقودك إلى حقيبتك حتى لا تقتليني بهذه الطريقة.

تُصعق سارة من رد ماهر، وإن كانت في قرارة نفسها توقعت شيئاً مثل هذا الفعل، ومع ذلك زاد إعجابها به وحبها له، فقالت:

– معذرة ماهر، أنا لم أقصد هذا الشعور الذي وصلك إطلاقا.

يقاطعها ماهر بحياء شديد وأدب أشد:

– حصل خير إن شاء الله تعالي، والآن كلي آذان مصغية لكل كلمة أو نصيحة من حضرتك لي.

– على أي حال شكرا لك، بداية أرى أن شهادة الدكتوراه يا ماهر يفترض ألا يسعى لها المرء إلا لغرضين أساسيين، الأول: العمل كأستاذ جامعي في مجالات التدريس والبحث وخدمة المجتمع، والثاني: العمل كباحث أو صحفي مهني يخدم مجتمعه من خلال القضايا الحقيقية التي يرى أحقية نشرها.

وينتقل ماهر للكتابة في مذكراته من داخل الحجز على لسان بروفيسور سارة:

– قد يخالفني البعض يا ماهر فيما أطرحه، ويرى أن من أغراض شهادة الدكتوراه المساعدة في الحصول على وظيفة مرموقة، ورأيي المتواضع أن بإمكان هذه الشهادة أن تفيد حقًا، ولكن بعد أن تمارس عملك في جامعة أو صحيفة ذات انتشار كبير لعدد من السنوات تبنى من خلالها علاقاتك ومهاراتك ومعلوماتك المتعلقة بسوق العمل، وتتابع سارة:

– إن شهادة الدكتوراه بذاتها لا توظفك في منصب إداري عالٍ يا ماهر، فليس من المتخيل أن يرجع المرء من الابتعاث ويتوظف في مثل هذا المنصب، إلا بعد أن يكون لديه خبرة وظيفية سابقة، أو علاقة بالجهة التي وظفته، لذلك فمن يرغب في استكمال دراسة الدكتوراه عليه أن يفكر أولًا بطبيعة عمله بعد حصوله على هذه الدرجة العلمية الراقية ورجوعه سالما إلى وطنه، وعليه أيضًا أن يطرح على نفسه السؤال التالي ويفكر بشكل جاد في الإجابة عنه:

– هل أنا أحب البيئة الجامعية؟

ثم تسدي الأستاذة نصيحة مخلصة لتلميذها:

– لذا، فنصيحتي لك يا ماهر ألا تصرف كل هذه السنوات من عمرك، إلا من أجل العمل في وظيفة ستحبها، فإذا كنت تحب العمل كأستاذ جامعي أو كباحث في مركز بحثي، فاطرح على نفسك السؤال التالي:

– هل لدىً الجلد والقدرة لدراسة الدكتوراه؟.. هل لدىَّ الاستعداد أن أسهر وأنام وأستيقظ وأنا أفكر في حل مسألة بحثية معينة سأشعر أحيانًا بأنها مسألة لن

تقدم ولن تؤخر في العالم شيئًا؟.. فإذا أجبت عن هذه الأسئلة بنعم، فهذا مؤشر قوى على أن دراسة الدكتوراه تصلح لك، ويبقى عندها أن تقارن خيار دراسة الدكتوراه بباقي خياراتك الوظيفية، وتستشير عددًا جيدًا من ذوى المعرفة، والخبرة، وتتوكل على الله.

بعد انتهاء ماهر من حديثه مع بروفيسور سارة، كتب:

- امتد حديثنا أربع ساعات متواصلة، بعد ذلك أصرت على استضافتي في منزلها الذى يبعد عن الجامعة مسافة نصف ساعة تقريبًا بسيارتها الحديثة، ماركة المرسيدس، فما كان منّى إلا أن وافقت لأسباب كثيرة، يعرفها ويعي معناها ومغزاها جيدًا طلاب الدراسات العليا الذين هاجروا لنيل درجتَي الماجستير والدكتوراه من أمريكا وأوروبا وروسيا و.....

ويسترسل ماهر في حديثه عن بروفيسور سارة:

- كانت البروفيسور تقود سيارتها في جو بارد جدًّا بشكل رائع، أمهر من سائق درجة أولى عندنا، كنت أنظر إليها بإعجاب شديد جدًّا، لم تكن كتلك النظرات التي يشتهى من خلالها الرجل امرأة، بل كانت نظرات تقدير واحترام، أظنها كانت هي الأخرى تبادلني ذات النظرات طوال حديثنا عن مصر وحضارتها، لأسباب تأكدت منها فيما بعد، وستتضح معالمها تباعًا.

ويكمل ماهر:

- فجأة وقف محرك السيارة، تخلصت البروفيسور من حزام الأمان الذى لازم كتفها طوال الرحلة، ثم رمقتني بنظرة حنونة مصحوبة وبصوت رقيق، نظرت إليها بمودة وتقدير، فوجدت ما هو مكشوف من صدرها حتى أعلى عنقها، فأغمضت عيني فورا، وبسرعة نظرت إلى أسفل قدمي سريعا حتى لا «.....» فما كان منها إلا أنها ابتسمت، وقالت:

- كما توقعتك يا ماهر، العادات والتقاليد جزء أساسي في تكوينك

السيكولوجي، عموما، حمد الله على السلامة، ها نحن قد وصلنا إلى مملكتي الخاصة، مملكة كليوباترا العظيمة، هههههه، هكذا كان يناديني والدي ووالدتي يا ماهر.

يبتسم ماهر، ينظر إلى أستاذته، يبهره جمالها الأخاذ، فيثني عليها:

- حضرتك أجمل 100 مرة من كليوباترا.

- هههههههه، كدهووووه يا ماهر؟؟.. مرة واحدة، حبيبي انت والله.

تحمر وجنتا ماهر، ويعاود النظر في الأرض حياء، ثم يقول:

- نظرت شمالًا ويمينا وأنا أغادر مقعدي من السيارة. وإذا بمنظر طبيعي خلاب، حديقة كبيرة يحيطها سور مزخرف بأشكال ورسومات فرعونية، تقترب مساحتها من الألفي متر مربع تقريبًا، بها من الأزهار وأشجار الفواكه ما تشتهيه النفس، ويردف:

- أما عن فيلتها فكانت أشبه بقصر ملكي من قصور فراعنة مصر القديمة، ذات التصميم والجو الروحاني و... كل شيء هنا فيه رائحة مصر العظيمة، مصر الفرعونية، يا إلهى، يا ترى من تكون هذه السيدة؟! أهي من جذور مصرية؟!.. لست أدرى، لماذا إذًا تهتم بتاريخنا وحضارتنا إلى هذه الدرجة حتى لو كانت قد عاشت طفولتها في مصر و...؟!، لا بد أن هناك سراً ما سأكتشفه إن شاء الله تعالى إن عاجلًا أو آجلًا إذا أعطاني الله طول العمر.

يُشعل ماهر سيجارة مارلبورو في هدوء تام داخل غرفة الحجز، ينظر يمينا ويسارا، فلا يجد أمامه سوى ضوء خافت وأصوات شخير لبعض زملاء الحبس النائمين، فيعود للكتابة في دفتره كي يقطع على نفسه الاستمرار في رؤية هذا المنظر غير المحبب لنفسه، فيكتب:

- في هذا الجو الرائع داخل فيلا سارة، وقعت عيني على خادمين إفريقيين

يشبهان البودي جاردات من حيث التكوين الجسدي والسيكولوجي، كانا يحملان سلاحيهما في الجانب الأيسر على غير عادة رجال الأمن الذين أراهم في أي مكان رسمي أذهب إليه!!.. وكانا ينسقان حديقة الفيلا باهتمام ملحوظ كما لو كانا مزارعين في الأساس وليس حارسي أمن!!. داخل الفيلا رأيت ما لم أكن أتوقعه، مجموعة رائعة من الآثار المصرية المنتمية لكل العصور (فرعوني، وإغريقي، وروماني وإسلامي)!!، ويُكمل:

– وقفت أنظر لهذه الكنوز دون أن أدرى وأفهم قيمتها، ومتى وكيف خرجت من مصر ووصلت إلى هنا؟!.. لاحظت بروفيسور سارة التغييرات التي ظهرت على وجهى، لم تنطق بكلمة واحدة، بل تركتني أستمتع بعظمة وحضارة أجدادي وهى سعيدة بتلك الحالة التي انتشلتني من حاضري لتسافر بي عبر الزمن في رحلة كونية لا مثيل لها، من ليالي ألف ليلة وليلة أتحسس فيها أبهة أجدادي وعظمة حضارتهم.

ويستمر ماهر في وصف جمال ما رآه، فيكتب:

– لفت انتباهي أيضاتمثال برونزي للبروفيسور سارة بنفس ملابس ومكياج كليوباترا!!.. وقبل أن أنطق بحرف واحد، ابتسمت البروفيسور وسألتني:

– ما رأيك في هذا التمثال؟

– قلت لحضرتك إن كليو باترا صفر على الشمال جنبك.

– هههههههههههههه، والله انت سُكر يا ماهر.

كلما تأمل ماهر طقس الفيلا، زاد إعجابه بأستاذته، فكتب:

– لم أدرِ بالوقت وأنا «مش هنا خاااالص»، مر نحو نصف ساعة تقريبًا، والغريب العجيب أن أستاذتي كانت سعيدة وهى تنظر إلىَّ وأنا في هذه الحالة، لم أفق مما أنا فيه سوى على صوتها الحنون عندما طلبت من خادمتيها الفلبينيتين أن تُجهّزا سفرة الطعام التي طلبتها منهما لضيفها المُهم «العبد لله». وخلال بضع

دقائق كانت ترابيزة السفرة مملوءة على آخرها بما لذ وطاب، أصرت بروفيسور سارة على أن أجلس بجوارها ففعلت.

بعد أن جلس ماهر بجوار سارة، شكرها على كرم الضيافة، وأطلق عليها لقب « سيدة القصر»، فكانت سعيدة جدًّا بهذا اللقب، وفي المقابل تضحك هي معه وتصفه بـ «البكاااااش»، فيبادلها لحظات السعادة، ويقترح عليها أن تناديه أحمس الأول، مقارنة باسم كليوباترا التي أطلقته على نفسها.

لم تتمالك سارة نفسها من الانفعال عندما ذكر ماهر اسم أحمس، ولم يكن يدري مدي الثأر القديم بين هذا الملك العظيم والهكسوس، هذا على اعتبار أن اليهود – بحسب ادعائهم – أحفاد الهكسوس الذين قضي عليهم أحمس الأول عن بكرة أبيهم.

شعر ماهر بالتغيير المفاجئ على وجه سارة، سألها عما إذا كان قد بدر منه شيء؟!

بذكائها الحاد، وتكوينها العقائدي، اصطنعت سارة سببا مخالفا لما أصابها، ثم قالت لماهر:

– تعرف حبيبي، ملامحك تشبه توت عنخ آمون أقرب، كما أن هذا الملك الشاب له شهرة عالمية، وأنا أفضل أناديك بعض الوقت بـ«توت» بدلا من «.....».

هنا فطن ماهر لمغزى غضب أستاذته من أحمس الأول، ولشيء ما في نفسه، ولحسابات لم يفصح عنها في مذكراته، أصر على أن تناديه سارة باسمه ماهر أو «أحمس الأول» إن رغبت.

يقول ماهر إن سارة قبلت على مضض ما طرحه عليها، ويردف:

– على سفرة الطعام وجدت أوانٍ فضية بنقش يدوى من خان الخليلي، بداخلها: مسقعة باللحم المفروم، ملوخية بالأرانب، محشى كرنب وكوسة،

بصارة وأم على وأرز باللبن!!، فقال:

– يا الله، ثم نظرت لـــلملكة كليوباترا وأنا في غاية السعادة!!.. كما كانت هـي الأخـرى سـعيدة جـدًّا وهـى تتـابع بعينيهـا الخضـراوين ، اندهاشـي وإعجـابي بالسفرة، حينها قالت لي:

– لقد أتيت لك بمصر هنا يا ماهر، ثم سألتني:

– هل أعجبك طعامنا؟ وهل تعتبرنا الآن كرماء مثل المصريين وهل ..... ؟

– قاطعت حديث سارة عدة مرات حتى أشكرها عـلى كـل وأي شـيء، لكنهـا دائمًا كانت ترفع عنى أي حرج من هذا النوع، وتحاول جاهـدة منحـى قـدرًا مـن الثقة بالنفس والتعود على كرمها وكأنه واجب عليها غير قابل للثناء، فكانت تقـول لي:

– نحن أيضًا نحب ضيوفنا، ونكرمهم مثل المصريين تمامًا.

ويصف ماهر هذا المشهد، فيقول:

– تناولت طعامي مع كليوباترا على مدار ساعة تقريبًا حتى شبعت، وحمدت الله تعالى على نعمته وتسخيره هذه السيدة للوقوف بجواري، ومسـاعدتي بأفضـل ممـا كنت أحلم.

– بعد ذلك اصطحبتني إلى مكتبها داخل الفيلا، وهو عبارة عن غرفـة تشـبه إلى حد بعيد صومعة الرهبان في طقسها وروحانيتها وإضاءتها، ثم أطلعتنـي عـلى أكثـر من 200 كتاب عن الحضارة المصرية بكل لغات العالم، وطوال 3 ساعات تقريبًـا كنت أنصت فيها جيدًا لكل كلمة وكل حرف كانت تنطق بـه عـن علاقتهـا بمصـر وتاريخها وحضارتها والثروات المخبئة في باطن أرضها من ذهب ومعادن وآثار.

ومن باب الاستعجال والفضول سأل ماهر أستاذته عن سـبب عشـقها لوطنـه وآثاره وتاريخه.

نظرت سارة إلىّ ماهر، ثم رسمت على وجهها ابتسامة صافية، تبتعها لحظة صمت عميقة، وكانت المفاجأة!!

بروفيسور سارة تتحدث اللغة العربية الفصحى والعامية المصرية بطلاقة !!

ماهر منتشيا ويضحك بشكل هستيري، ثم يداعب سارة بسؤال غبي إلى حد ما بحسب وصفه:

- أكيد حضرتك من سكان السيدة أو الحسين أو بولاق الدكرور؟!

تبتسم سارة فترة طويلة، وتقول:

- درست اللغة العربية هنا بأمريكا ومعها التاريخ المصري القديم والحديث بجوار دراستي للإعلام، لأنني أعشق مصر يا ماهر، صحراءها مع عمرانها وزراعتها، حتى قراها وكفورها ونجوعها بجوار مدنها، وكذلك خيالها وواقعها، ثم حلمها ويقظتها، كل شيء فيها حبيبي له سحر ومذاق خاص، فهل بعد ذلك تنكر على مثلي أن أكون غصنا في شجرة أجدادي؟!

- أجدادك؟!.. ماذا تقصدين؟!

- لا عليك، دع هذا الأمر جانبا في الوقت الحالي، وسوف نتبادل فيه النقاش فيما بعد، ولتحدثني الآن عن انطباعك عني.

ماهر يوافق مبدئيا على نصيحة أستاذته، لكن شيئا ما يصرخ بداخله، ثم يثني عليها مجددا:

- بصراحة شديدة أعترف بأن حضرتك تتمتعين بثقافة عربية حديثة وقديمة أفضل مرات ومرات من بعض متخصصينا في التاريخ والآثار.. وحتى في الأدب، ففي حديثك فن وحرفة الأدباء وخيال الشعراء!!، ويكمل:

- عندما نظرت إليّ بروفيسور سارة وهي منتشية من مديحي في شخصها، لحظتها انتابني شعور بالخوف والرهبة ، ودارت برأسي أسئلة كثيرة عن مصيري

ومستقبلي العلمي معها، حاولت أن أستأذنها لأذهب إلى محل إقامتي، لكنها قالت لي:

– الوقت متأخر، ومن الأفضل أن ترتاح ليلتك في غرفة نوم أعددتها لك مسبقًا، على أن تصطحبني في صباح اليوم التالي إلى الجامعة، لتبدأ دراستك على يد أساتذتك الإعلاميين.

يوضح ماهر تفاصيل هذا الموقف:

– امتثلت للأمر، وبت ليلتي في هم وكرب وحزن لا أعرف لها سببًا، سوى المفاجآت التي صادفتها مع بروفيسور سارة، وانهالت على رأسي دفعة واحدة، فكانت نفسى تحدثني عن سر الطعام المصري الذى قدمته لي والآثار المصرية الموجودة بفيلاتها، وتمكنها من التحدث بالعربية بطلاقة والعامية المصرية أفضل منّى.

في تمام الثامنة صباحًا انتبه ماهر على صوت الخادمة الفلبينية تدق باب غرفته، وتناديه بهدوء لتخبره بأن بروفيسور سارة تنتظره في الصالون.

ارتدي ماهر ملابسه، وخرج من غرفته، ليجد سارة في أبهى صورها، أناقة ورشاقة وجمال، وفوق كل ذلك ابتسامة رقيقة وجهتها نحوه كالسهام التي تصيب القلوب العطشى للحب العذري، ثم داعبته:

– جاهز يا طالب العلم يا كسول؟

ماهر يصف هذا المشهد بدقة:

– بادلتها الابتسامة، ألقيت عليها السلام، ثم أخبرتها بأنني جاهز للرحيل، خرجنا بسرعة البرق لنستقل سيارتها. داخل السيارة أخرجت سارة من حقيبتها كوبين من الشاي بالحليب وبعض ساندويتشات الفول والطعمية، وقالت:

تناول فطورك بالهنا والشفا، لأنني سبقتك منذ ساعتين تقريبًا، وتركتك ترتاح

بعض الوقت، لأنى لاحظت عليك الإرهاق أمس.

احتسى ماهر الشاي بالحليب، وأكل الساندويتشات، وشكر سارة على صنيعها معه، وبأدب وحياء طرح عليها السؤال التالي:

– هل حضرتك تستقبلين كل أو بعض طلاب الجامعة الوافدين بهذه الحفاوة؟؟

– هههههههههه، شوف يا ماهر، إجابتي عن سؤالك ستعرفها في الوقت المناسب.

يصف ماهر هذه اللحظة الحرجة، فيقول:

– احمر وجهى وتلعثمت كلماتي، كمن غرق في شبر مية – كما نقول في مثل هذه المواقف – وأنا أعتذر لها مرة تلو الأخرى، ثم أكرر اعتذاري وأسفي الشديد على ما بدر منّى و...

كررت سارة ابتسامتها إشفاقا على ماهر، وبرقة عالية جدًّا وضعت شريط كاسيت في السيارة للفنان الرائع عادل مأمون، يغنى:

«وإن بعتني أنا برضه شاريك.. يا اللي ما لكش في قلبي شريك.. قول يا نور عيني.. قول يا نور عيني».

سألته سارة:

– رأيك إيه في كلمات الأغنية وعظمة مطربها؟

– فناننا الكبير عادل مأمون لم ينل حظه من الشهرة لأسباب.....

بابتسامة كلها دلال وحب ترد سارة:

– طيب وإيه رأيك في مقطع «وان بعتني أنا برضه شاريك.....»؟

– لحظتها ذهبت في دنيا غير الدنيا، وفقدت القدرة على أي رد، مكتفيا بنصف

نظرة ناحية سارة بها من الإجابة ما تتمناه وأكثر.

ضحكت سارة بصوت عالٍ، ثم قالت:

– أهو خجلك ده يا ماهر له ثمن كبير عندي، وأنا مُقدرة ظروف غربتك ونشأتك في أرض ريفية طيبة أعشقها كما أعشق عملي واسمى وديانتي.

– عملك، ماشي، أما اسمك وديانتك؟!. هكذا خرجت منّى تلك الكلمات دون أن أدرى كقذيفة من مدفع آر بي جيه.

سارة تتقرب في حديثها مع ابن العم – هكذا كانت تقول لماهر بعض الوقتَ.

– نعم اسمى على اسم جدتكم يا عرب، السيدة سارة المصرية، زوجة أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم، أما ديانتي فأنا سيدة يهودية متدينة، ولدت في أمريكا، لكنى نشأت في مصر لأبوين يهوديين أمريكيين، حيث إن الوالد عالم آثار مصرية، وكان رئيسًا لبعثة آثار أمريكية في منطقة الأقصر (وادى الملوك)، وكانت والدتي عالمة آثار مصرية أيضًا، وتعمل تحت رئاسته بالبعثة نفسها، وتواصل:

– وبعد أن أنهيا عملهما بنجاح على مدار 10 أعوام، عادا مرة أخرى إلى أمريكا ومعهما بعض القطع الأثرية التي بهرتك في فيلتي، لأن قانون الآثار المصري في ذلك الوقت كان يسمح بقسمة الآثار المكتشفة، وقد أوصيا عائلتيهما قبل موتهما بأن يدفنا بمقابر اليهود بمصر، وكان لهما ما أرادا، وقد حضرت أنا مراسم دفنة الوالدة بجوار عدد كبير من جاليتنا في القاهرة منذ 20 عامًا، وبعدها بعامين رحل الوالد، ودفن أيضا بجوارها في المقابر ذاتها و....

صوت صراخ شديد على جانب الطريق يقطع على سارة وماهر حديثهما في السيارة، تتوقف سارة وتنزل مع ماهر لتري ماذا يحدث.

مشهد مثير للغاية، رجل من جذور إفريقية ستيني ثمل يضرب فتاة بيضاء – اتضح أنها صديقته – ضربا مبرحا بجوار محطة باص لرفضها منحه المزيد من المال كي يشترى به ما يلزمه من خمور.

ينجح ماهر وسارة في تهدئة الرجل وتخليص الفتاة من بين يديه، تستنجد الفتاة بسارة وتطلب منها إبلاغ البوليس بالواقعة، يتراجع الرجل عن إهانة صديقته ويعتذر لسارة وماهر بعد أن سمع كلمة بوليس، ويذهب إلى حال سبيله.

سارة تطلب الشرطة لإنقاذ الفتاة واتخاذ الإجراءات اللازمة في مثل هذه الحالات، تحضر سيارة الشرطة وبها سيدة ورجل في العقد الرابع من عمرهما في خلال 10 دقائق، تستقل الفتاة معهما سيارة الشرطة بعد أن تشكر سارة وماهر على صنيعهما.

قبل أن يستقل ماهر السيارة، يسأل سارة عن سبب مقنع يجعل فتاة جميلة كتلك، تصادق رجلا أسود في عمر والدها.

– لا تتعجب يا ماهر، هذا هو المجتمع الأمريكي بكل تناقضاته، أمور غريبة – عجيبة ستقابلها وتحاول تفسيرها، لكن دون جدوي، المهم دعنا نستقل سيارتنا ونمضي إلى غايتنا. ونُكمل حديثنا عن رحيل الوالد والوالدة.

داخل السيارةيعتذر ماهر لسارة على طرحه بعض الأسئلة غير المناسبة في الوقت غير المناسب:

– آسف إني قلبت المواجع على حضرتك.

سارة ترفع الحرج عن ماهر بعد أن «شبكت» أصابع يدها بأصابع يده، ثم قبلته بحرارة العاشقة للمرة الأولى، وقالت له:

– لا لا مافيش حاجة، خير إن شاء الله تعالي ثم لماذا تغير لون وجهك بعد قبلتي ؟!.. هل....

– لا لا، بالعكس ما تكمليش، من فضلك أوقفي السيارة لحظة.

سارة توقف محرك السيارة، ينزل ماهر منها، ويتجه ناحية باب سارة ليفتحه، ثم يأخذ بيدها حتى تنزل من عربتها كملكة حقيقية، ويحني لها رأسه قليلا، لحظة

وقوفها بجواره، وعلى الفور يحتضنها ويقبلها بنهم.

تسعد سارة جدًّا بهذه اللحظة التي أكدت لها صحة اختيارها، والإصرار على تنفيذ خطتها في الزواج منه؛ يستقل العاشقان السيارة، ويكملان حديثهما عن قانون قسمة الآثار في مصر.

سارة:

– ماهر حبيبي، لماذا انزعجت من موضوع قسمة الآثار، وكأنني قلت شيئًا غريبًا؟!

ماهر ينظر إلى أستاذته وعشيقته ولم يعد يدري بماذا وعن ماذا سيجيب، فقد شعر أن الدنيا «اتلتلت» فوق رأس «اللي خلفوه» – هكذا نطقها ماهر – ثم يستجمع بقاياه ويخاطب سارة:

– أولًا رحم الله والديك، وكل أمواتنا جميعًا، ثانيًا، حضرتك تقصدي أن كل البعثات الأثرية اللي اشتغلت في مصر حصل أعضاءها أيضا على قطع أثرية مما اكتشفوه؟!

سارة تقاطع ماهر في هدوء تام:

– اللهم آمين حبيبي، نعم، ودى أمور عادية جدًّا، ومن المفروض ألا تزعجك على الإطلاق، وأكبر دليل على ذلك، رأس نفرتيتي الذي حصلت عليه ألمانيا، وهو الآن داخل متحف برلين، وحجر رشيد الذى استولت عليه بريطانيا بعد أن عثر عليه جندي في الحملة الفرنسية وهو الآن موجود بمتحف لندن.

– كيف لا تُزعجني بروفيسور سارة، وأنا أرى تاريخ بلدي ضاع منه نصفه على الأقل؟!

– هههههه، نصفه يا ماهر؟!.. يا حبيبي، إن ما تم اكتشافه من آثاركم حتى الآن يا دوب 1٪ من إجمالي الكنوز المدفونة بباطن أرضكم، وليس 10٪ كما يزعم

بعض مسئولي الآثار عندكم، وهذه المعلومة ليست من عنديات، بل هي منسوبة لعالمة آثار أمريكية تدعى بروفيسور سارة باركوك، ولديها معلومات كافية عن كنوزكم المدفونة بباطن الأرض، نظرًا لصلتها القوية بوكالة ناسا الأمريكية.

- حتى ولو بروفيسور سارة، لكن.....

- ما لكنش ولا حاجة حبيب قلبي أنا، دعك من هذه الأمور حاليا وخلينيَّ أكمل لك ما كنا نتحدث فيه، المهم أنا كنت أرغب في دراسة الآثار والتاريخ المصري القديم لأسباب كثيرة جدًّا، ستعرفها في الوقت المناسب، مثل والديّ، ولكن شاءت الأقدار أن أدرس الإعلام بجامعة كاليفورنيا العريقة، ثم تسلمت عملي بها كمعيدة فيما بعد، ثم أصبحت مدرسًا لمادة الصحافة وأستاذًا مساعدًا وأستاذًا، وتتابع:

- وأخيرًا تم اختياري لمنصب عميد كلية الإعلام، ومن حسن حظك يا ماهر أن جامعتنا عقدت اتفاقية توأمة مع جامعة القاهرة مؤخرًا، ومن ثمار هذه الاتفاقية وجودك هنا الآن. وهذه هي مراحل حياتي كلها باختصار شديد جدًّا وغير مخل، وهذا أيضًا هو السبب الحقيقي لعشقي لمصر وأهلها الطيبين، خصوصًا مواطني الأقصر الذين أكرموني ووالديّ وكل أعضاء البعثة، وعاملونا كمصريين لا ضيوف بأفضل مما يتعاملون مع بعضهم.

■ الفصل السادس
الحُب الأفلاطوني

ماهر يلتزم الصمت بعد أن سمع تلك الكلمات من عميدة الكلية التي سيدرس بها، ويكتب:

– حينها بدأت في ابتلاع ريقي وتمزيق خيوط الخوف والقلق التي انتابتني خلال زيارتي لمنزل سارة، وكرمها الزائد معي و....، وهذا ما شجعني لفتح صدري لها والحديث معها في أخص شئون حياتي العلمية والخاصة على السواء، ويردف الفرعون الصغير:

– باختصار شديد جدًّا، أصبحت بروفيسور سارة بعد أن تبادلنا القُبل في سيارتها و...، هي مصدر الأمن والأمان لي في أمريكا منذ بدأت مشواري العلمي والمهني في غربتي.

بانتهاء هذا الحديث بين ماهر وأستاذته، كانا قد وصلا إلى مقر الجامعة، من داخل مكتب بروفيسور سارة، يقول ماهر:

– اجتمع خمسة من أساتذة الإعلام الأمريكان لمقابلتي والتعرف علىّ قبل أن أختار وأبدأ الدراسة. أتذكر لحظتها أن بروفيسور سارة قالت:

– عزيزي ماهر، أنت لم تحدد أي تخصص دقيق في الإعلام تريد أن تدرس، فالإعلام له مسارات عدة، منها صحافة وتليفزيون وعلاقات عامة و... ونحن هنا

في جامعة جنوب كاليفورنيا نعتبر الأفضل على مستوى كل الجامعات في تخصص الإعلام، ونقدم ماستر ودكتوراه في الصحافة الورقية والإلكترونية تحديدًا، حيث إن التخصص الأخير جديد من نوعه ومطلوب في منطقتكم العربية.

وبين شد وجذب مع أساتذته قال ماهر:

– حينها استقر رأيي على دراسة الصحافة الإلكترونية مع الورقية حسب رغبة أساتذتي بجامعة القاهرة، على أن «الإلكترونية» لها مستقبل كبير، وبالفعل بدأت دراستي العليا بهمّة ونشاط، في الوقت الذى تنبأت لي فيه بروفيسور سارة بمستقبل واعد بعد أن أحصل على درجتي الماجستير والدكتوراه، ويُكمل:

– لذا يبقى أمامي بعد كل ذلك مشكلة واحدة فقط، وهى غلاء المعيشة في ولاية كاليفورنيا، الأمر الذى قد يسبب لي بعض المتاعب، خاصة أنني وعدت خطيبتي «ميار» بزيارتي في أمريكا لإتمام عملية الزواج بعد أن أستقر في دراستي، وأجد عملًا إضافيًّا يساعدني على تلبية أبسط متطلبات حياة عروسين في ظروفنا، ويواصل ماهر:

– اجتهدت في دراستي ولفتُّ انتباه أساتذتي بالجامعة، خاصة بروفيسور سارة التي كانت تستضيفني في فيلتها من وقت لآخر، ثقة منها في علمي وأمانتي وخلقي من ناحية، ومن الناحية الأخرى لتمنحني بعض المراجع العلمية التي كنت أحتاجها في دراستي وتحتاج لمبالغ مالية لم تتوافر معي.

ولأنه وجد في أستاذته البديل المؤقت عن الصديق والأهل لأسباب يسرها له الله تعالى، هكذا اعتقد ماهر، فكتب عن ذلك يقول:

– ربما أراد الله لي التعرف على سارة بسبب دعوة والديَّ لي ورضاهما عنى، لذا طلبت من معلمتي مساعدتي في عمل بجوار دراستي، وكعادة الأمريكان، والتكوين النفسي والاقتصادي لهم، فقد استثمرت حاجتي للعمل بشكل يفوق المتوقع، حيث عرضت عليَّ أن أكون شريكًا لها في معرض للعملات القديمة

والمستنسخات الأثرية والأنتيكات بولاية كاليفورنيا، على مقربة من الجامعة، حتى لا يسرقني العمل من الدراسة، هي بأموالها وخبرتها، وأنا بمجهودي وإشرافي.

يصف ماهر هذه اللحظة في مذكراته داخل محبسه بالجيزة، فيقول:

– من شدة الفرحة التي انتابتني بسبب هذا العرض، سحبت يد أستاذتي وقبلتها أكثر من مرة، على الرغم من أنها كانت ترفض ذلك بشدة. في دوامة الفرحة التي غمرتني من أسفل قدمي وحتى رأسي، صمتُّ قليلًا وقلت لأستاذتي: لكنى لا أفهم في العملات القديمة والمستنسخات الأثرية والأنتيكات و....فابتسمت، ثم أهدتني قبلة أفضل من سابقتها الأولي وقالت:

– شوف يا ماهر يا حبيبي، سأقص عليك بعض المعلومات عن سر هذه التجارة التي تستهين بها.

– اتفضلي، على الرحب والسعة، كلى آذان مصغية.

– تعلم أن أغنى أغنياء العالم كان ماجيراشيل روتشيلد، عام 1821م تاجر هذا الرجل في العملات القديمة، وقام بتنظيم وتوزيع أولاده الخمسة في خمس دول أوروبية: إنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، والنمسا، كما أنشأ مؤسسة مالية لكل منهم في تلك الدول مع تأمين ترابط وثيق بينها، حيث وضع قواعد تسمح بتبادل المعلومات ونقل الخبرات بسرعة عالية بين هذه الفروع، مما يحقق أقصى درجات الفائدة والربح.

– نعم، قرأت بعض المعلومات البسيطة عن هذه العائلة وسيطرتها على اقتصاد العالم، بل وتحكمها حتى في سياسات الدول الكبرى، ومنها أمريكا على سبيل المثال، ويُكمل:

– وفي مصر سمعنا عن عائلات أخرى أظنها يهودية أيضا في أواخر عهد الخديوِي إسماعيل منهم التجار ورجال بنوك، حيث امتلكوا مشروعات خاصة،

ووضعوا أيديهم على جزء كبير من ثروة البلاد، كعائلة سوارس الإيطالية التي امتدت أذرعها برا وبحرا، كما اشترك سوارس هذا مع مواطنه كاسل وعائلة قطاوي في شراء 300 ألف فدان من أجود أراضينا برخص التراب عن طريق عملائهم في أماكن حساسة بالدولة كاستثمار، ثم أعادوا بيعها إلى كبار الملاك والشركات العقارية، وربحوا فيها ملايين الجنيهات في هذا الوقت الذي يساوي فيه الجنيه المصري خمسة جنيهات بريطانية على الأقل!!

كلام ماهر ذكر سارة بالنشاط الاقتصادي لعائلات يهودية بمصر في تلك الفترة، فقالت:

- بالمناسبة حبيبي، لأي عائلة في مصر تنتمي؟

علامات الارتباك تعلو وجه ماهر، ولا يريد أن يرد بإجابة غير التي تريدها سارة.

هنا ابتسمت سارة وأرادت أن تلقن «ابن العم» درسا لن ينساه طوال حياته، فقالت لماهر:

- ما أعظم أجدادنا.. وما أروع صفاتهم وتحديهم للزمن.. وما أرقى حضارتهم التي علمت الدنيا كلها أبجديات العلم، كم أنا فخورة الآن بوجودك معي يا ماهر، كحفيد لهؤلاء الفراعنة العظام، الآن اشعر بصرخة داخلية تريد أن تخرج لتعلم العالم أجمع أنني من نسل هؤلاء الفراعنة ، وبجواري الآن حفيد لهم مثلك، وتردف:

- آاااه.. ثم آاااااه، ثم آاااااه، ما علينا حبيبي، دعني الآن أتذكر ما قرأته عن شراكة مستر سوارس مع رأس المال الفرنسي في تأسيس شركة أسموها «عموم مصانع السكر والتكرير المصرية»، على ما أظن عام 1897.. وقد ضمتها عام 1905 بعد ذلك «شركة وادى كوم أمبو المساهمة».. وكانت من أكبر المشروعات المشتركة بين شركات «قطاوي وسوارس ورولو ومنَسَّى»، وهي واحدة من أكبر

الشركات الزراعية في مصر.. كما أذكر أيضا شراكة سوارس فى تأسيس «شركة مياه طنطا».. وفى مجال النقل البرى أسس سوارس«شركة سوارس لعربات نقل الركاب».

وتضيف سارة معلومات جديدة عن نشاط اليهود بمصر في تلك الفترة، فتقول:

– سوارس وقطاوي أسسا فيما بعد شركة للسكك الحديدية، كما امتلكت عائلاتهما مساحات واسعة من الأراضي الزراعية وأراضي البناء في وسط القاهرة حيث سُمِّى أحد الميادين باسم (ميدان سوارس) نسبة إلى فليكس سوارس، ثم تغير بعد ذلك إلى (ميدان مصطفى كامل) عام 1939، كما امتلكت عائلة سوارس حصصاً وأسهماً في العديد من الشركات، واحتل كثيرٌ من أفرادها مواقع رئاسية وإدارية فى كثير منها، كإدارة شركة أراضي الشيخ فضل وإدارة شركة وادى كوم أمبو، وإدارة البنكين: الأهلي والعقاري المصري.

تعود سارة لابتسامتها بدهاء اليهود ولسان حالها يقول لماهر «هؤلاء هم اليهود وشجرة عائلاتهم وعقلياتهم يا عزيزي بعد أن عجزت أنت عن معرفة جذور العائلة التي تنتمي إليها».. ثم تزيد من دهائها بدلال المتمكن والممسك بزمام الأمور، فتقول:

– وفق المعلومات المتوفرة لديَّ يا ماهر، فقد ساهم كل من: سوارس ورولو وقطاوي فى إنشاء البنك العقاري المصري عام 1880، وكان رأسماله عند تأسيسه 40 مليون فرنك فرنسي، وصل إلى 8 ملايين جنيه عام 1942، كما لعب هذا البنك دوراً مؤثراً فى الاقتصاد الزراعي المصري.

ماهر ساخرا من لهجة سارة ودهائها، وفي تحدّ واضح وصريح:

– كلام حضرتك عن أجدادك الفراعنة وابن العم سيكون محل نقاش فيما بعد. أما عن شجرة العائلة فقد تفككت معظم أسرنا وعائلاتنا بفعل فاعل، وغالبا الفاعل هنا هم اليهود ولا أحد غيرهم، فعلا إنهم اليهود أينما حلوا في مكان

خربووووه، إذ إنه نتيجة القروض التي منحوها لأهالينا الفلاحين، أصبحوا يتحكمون فى أكثر من مليون فدان من أجود أراضينا، إضافة إلى الثلاثة آلاف فدان السابقة، وهو ذات السيناريو الـ «.....» الذي جري على أرض الواقع اليوم تحت رعاية نظام «مبارك» وكأن هذه الأرض ليس لها أصحاب، المهم لم يكتف اليهود بذلك، بل أسسوا المزيد من البنوك مثل: (البنك الأهلي المصري عام 1898) برأسمال 3 ملايين جنيه إسترليني، و(البنك التجاري المصري) عام 1905 باسم (بنك التسليف الفرنسي)، ثم تحول إلى «شركة مساهمة مصرية» باسم (البنك التجاري المصري) عام 1920 برأسمال مليون و200 ألف جنيه إسترليني.

سارة تعالج الموقف وتعتذر لماهر عن الخوض في أمور كهذه وتحاول تغيير مجرى الحوار بحنكة وخبث هذه المرة ، فتقول:

– دعنا الآن نعود مرة أخرى في حديثنا عن عائلة روتشيلد لصالح شراكتنا، ومع مرور الوقت سأشرح لك المزيد من المعلومات عن القواعد الصارمة التي وضعها مؤسس هذه العائلة لضمان ترابط واستمرار أفرادها، فكان رجالهم لا يتزوجون إلا من عائلات يهودية ثرية جدًّا، ذات مكانة اجتماعية عالمية، بينما تسمح قواعد تلك العائلة بزواج بناتهم من غير اليهود، وذلك على أساس أن معظم الثروة تنتقل إلى رجالهم، وبالتالي تظل الثروة بمجملها في أيديهم، ومن المصادفات الغريبة أنني كنت زوجة لأحد فقراء هذه العائلة، وأخبرني بمعلومات كثيرة ومهمة جدًّا عنهم.

– وأين زوج حضرتك؟

– توفي في حادث طائرة خاصة بصحراء إفريقيا.

– وماذا كان يفعل في إفريقيا؟

– كانت لديه مشاريعه الخاصة في التنقيب عن الذهب داخل المناجم الإفريقية، وعلى فكرة كان دائمًا يحدثني عن الثروات المعدنية غير العادية في

سيناء، وخاصة منطقة سانت كاترين، كبقعة وحيدة تجلى فيها الله عز وجل على أحد جبالها وكلم سيدنا موسى، حيث تتمتع هذه المدينة بجاذبية روحية لدى أصحاب الديانات السماوية الثلاث كما تعلم: الإسلامية، والمسيحية، واليهودية، وفيها أيضًا بقايا شجرة العليقة المقدسة التي ناجى عندها نبى الله موسى ربه سبحانه وتعالى، وتتابع:

- كما أن زوجي الراحل يا ماهر لفت انتباهي إلى جبال الفيروز، وهى ثروة طبيعية يقدر قيمتها ويفهمها أبعادها جيدًا علماء الجيولوجيا، إضافة إلى الجبال متعددة الألوان، والتي يُصنع منها أجود أنواع الرخام، خاصة أنه عندما احتلت إسرائيل سيناء كانت تصدر هذه القطع الجبلية إلى إيطاليا لصناعة الرخام.

- ياااااه بروفيسور سارة، يعنى المرحوم كان عينه على مصر برضه؟.. آاااااه يا أولا الـــ «.....».

سارة تبتسم من فطنة وذكاء ماهر وتُعجب به أكثر:

- مش كده بالضبط ماهر حبيبي، بس هو كمستثمر، ويهودي، وينتمى لعائلة روتشيلد، فدائمًا لديه المعلومة الكافية بثروات العالم الثالث تحديدًا، فمثلًا كان مهمومًا بشكل كبير جدًّا بمناجم الذهب المصرية، وكان كثير الحديث معي عنها، بل وكان يؤكد لى أن لديه خريطة بأسمائها، والتي تصل إلى أكثر من 270 منجمًا بمناطق مختلفة كالصحراء الشرقية وجنوب سيناء وأسوان.

- لحظة، هو حضرتك متأكدة من الرقم ده؟

سارة بنوع من التحدي:

- متأكدة طبعًا، كل علماء الجيولوجيا الأمريكان والمصريين يعرفون هذه المعلومة، كما أن تلك المناجم هي الأكبر حجمًا وإنتاجًا في منطقة الشرق الأوسط، والتي ستضع مصر على الخريطة العالمية للتعدين في حالة استغلالها بالشكل الأمثل، بل وستكون هي قاطرة التنمية الاقتصادية المصرية، من خلال

جذب الاستثمارات والشركات الأجنبية، وتوضح:

– كل ذلك وغيره يُعظم من القيمة المضافة وزيادة احتياطي الذهب بالبنك المركزي المصري، لأن الاحتياطيات الخاصة بهذه المناجم يمكن العمل بها وطرحها للشركات العالمية بقيمة لا تقل عن 16.4 مليون طن ذهب خام في عدد نحو 9 مناجم فقط من إجمالي 270 منجمًا.

ماهر متعجبا، وبداخله صرخات تريد أن تخرج ليسمعها العالم أجمع:

– يا نهار أسود، ده غير منجم السكرى اللي «دوشونا» بيه؟!

سارة بكل ثقة:

– بالطبع، فهناك مناجم أخرى كـ: السد وفاطيري ووادي كريم وأم عليجة وأم الروس والبرامية ودنجاش وسموت وأبو مروات وحوتيت وروميت وكروبباى وأم جريات وجيمور وأم الطيور وسيجة وشاشوبة ومنجم حمامة ومنجم أم سمرة ومنجم العرضية ومنجم سمنة و... كما أن المؤشرات الجيولوجية تؤكد أن مصر لم يخرج منها سوى 5٪ فقط يا ماهر من حجم الثروات الطبيعية التي تمتلكها في جوف الأرض والتي حباها الله بها.

– الله أكبر، علشان كده بروفيسور سارة، العالم كله طمعان فينا، عاوزين يحتلوا مصر من تاني علشان ينهبوا خيرنا وثرواتنا أولاد الـ «.....».

سارة تكرر ابتسامتها من طيبة ماهر:

– أولاد إيه يا ماهر... !.. هههههه، عندك حق، لكن حبيبي خليني أفهمك حاجة مهمة، مصر فيها عدد لا بأس به من المنتفعين غير الوطنيين الذين استغلوا الثغرات الموجودة في قوانينكم وأهدروا من خلالها جزءًا من هذه الثروة، وإن لم تتصدَّ لهم القيادة السياسية، فلن يتوقفوا عن نهب ما تبقى من ثرواتكم، بما فيها سرقة وتهريب الآثار.

– صدقت والله بروفيسور سارة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، عاوز أقول لحضرتك إني قرأت كثيرًا عن اللوبي الصهيوني (وده طبعًا لا يمت لليهود بصلة) داخل الجيش الأمريكي، وعلمت أنه يتحكم في اختيار الرؤساء الأمريكان وتسيير أمور أمريكا سياسيًّا واقتصاديًّا مع بقية دول العالم، وإذا غضبوا على رئيس يغتالونه على الفور مثلما فعلوا بجون كيندي.

– وإيه علاقة الكلام ده بحوارنا الآن يا ماهر؟

– ازاي بقى يا بروفيسور؟ العلاقة متشابكة، وكل شيء بيوصل على بعضه زي ما بنقول عندنا في البلد، يعنى صنعوا أحداث 11 سبتمبر لغزو العراق والاستيلاء على بتروله وحضارته، وغزو أفغانستان للسيطرة على تجارة الأفيون في العالم والتي يصل حجمها إلى 500 بليون دولار في العام الواحد، ثم دبروا المكائد بعد ذلك للسودان ففصلوه عن بعضه، ثم تنمروا للعراق وسوريا وليبيا واليمن، والجرائم نفسها فعلوها من قبل عندما ألقوا اللوم على كوبا في نورثوود، وعلى الشيوعية في جلاديو و.....

سارة تتأمل تعبيرات وجه ماهر، وتتعجب:

– ده أنت مذاكر كويس أهووه يا ماهر، طيب اللوبي الصهيوني في الجيش الأمريكي كما تقول: عمل بقى إيه معاك ده كمان؟!

– مش هيقدر يعمل حاجة بإذن الله، طالما وقف الشعب الأصيل في ظهر جيشه، لكن يكفي أن أكشف لك الحقيقة المرة والجريمة الكبرى التي ارتكبها هؤلاء الصهاينة بحق الطائرة المصرية التي كانت تقل مجموعة كبيرة من خيرة رجالاتنا.

– هي تحقيقات البلدين (مصر وأمريكا) مش أكدت أن الطيار انتحر يا ماهر؟

ماهر مبديا اعتراضه دون إسراف:

– لا الطيار «البطوطي» كان طيارًا حربيًّا قبل أن يلتحق بمؤسسة مصر للطيران، يعنى من خيرة رجالات وأبطال مصر العظام المؤمنين، ولا يمكن بأي حال أن يقدم على الانتحار، وما قيل وأشيع عن انتحاره، هو محض افتراء من الآلة الصهيونية الإعلامية العالمية، ويواصل:

– والحقيقة المرة في هذه القضية أن طائرتنا تم اختطافها بواسطة ريموت كنترول أرضى أمريكي، وبعد إقلاعها بنصف ساعة سقطت في مياه المحيط لعدم قدرة «البطوطي» ومساعده على السيطرة عليها، لأنه بالفعل كان اللوبي الصهيوني قد اتخذ قراره بارتكاب جريمته بواسطة تقنية «HOM RUN»، التي طورها البنتاجون لحماية الطائرات المختطفة في الجو بالريموت كنترول بحسب ما كتبه الخبراء والمحللون.

– يااااااااااه يا ماهر، شايل كل ده في قلبك؟

– دي بلدي بروفيسور سارة، أقصد يا ملكة كليوباترا، وما ليش غيرها.

– فعلًا، فعلًا، لكن عاوزة أقول لك على نصيحة لم ولن تسمعها من غيرى هنا، ألا وهى عدم الحديث هنا إطلاقا عن الصهاينة.

عمل ماهر بنصيحة بروفيسور سارة والتزم الصمت، ويُكمل:

– خلال تلك الفترة كنت دائم التواصل مع خطيبتي بمصر، وأبشرها بفرج الله القريب، فكانت ميار تشد من أزرى وتدفعني للنجاح والتفوق، وفي الوقت ذاته تحذرني من «بنات أمريكا».

هنا يشعر ماهر بزهو وسعادة لاستشعاره بحب ميار له وغيرتها عليه، فيقول:

– من فرط حبى لميار كدت أفاتحها بعلاقتي المتميزة بتلك السيدة الحنون بروفيسور سارة التي تقف بجواري وتساعدني، لكن شيئًا ما منعني من ذلك تفاديًا لإيقاظ مشاعر الغيرة في قلبها، فكنت أبتسم وأقول لها:

– بنات إيه بس يـا عمـرى؟.. هـو فيـه في الـدنيا زي دكتـورة ميار؟!..فتبتسـم الخطيبة والحبيبة وتطمئن على مستقبلها مع حلم عمرها.

وكالعادة قبل أن يُغلق ماهر الخط، كتب يقول:

– كانت ميار دائما تسمعني صـوتها العـذب الـذى يقتـرب مـن صـوت أحمـد «عدوية» هههههه، وتغنى:

– تتائل بالمال يا حبيبي... فأرد أنا عليها بـــ :

– ده مافيش غيرك ع البال يا حبيبي، ثم يُغلق كلانا سماعة الهاتف بـــ « أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله».

ويكمل ماهر مذكراته وكأنه يعكف على كتابة عمل درامي سيظهر قريبا للنور:

– داخل محل إقـامتي، بجـوار جامعـة كاليفورنيـا، جلسـت مسـتمتعًا بوقـت راحتي القصير أرتشـف فيـه قهـوتي المفضـلة كالعـادة لتمـدني بـبعض السـعرات الحرارية في هذا الجو البارد، ثم أنظر إلى بحيرة المياه المملوءة بالبط، وأتذكر أنني كتبت حينها بعض كلمات الشعر لـميار عبارة عن نثر مبعثر، لكنه خارج من قلبـي أقول فيه:

– من عينيك أستشف الحب.. من نظرة حار فيها العقل وخفـق معـه القلـب.. من نظرة حلمت.. وكأنى فوق بسـاط الهـوى نمـت و..... وخـلال اسـتغراقي في راحتي، أزعجني جرس الهاتف الأرضي، التقطت السماعة بسرعة، وقلت:

– ألو مين؟؟

– هلا ماهر، سارة معاك حبيبي، انت فين؟

– سارة ؟!.. سارة مين ؟!!

وفي جزء من الثانية يعتذر ماهر عن تجاهله غير المتعمد لصوت سارة، يخـبط

رأسه بيده اليمني، ويقول:

– أخخخخ... آسف والله يا بروفيسور جدًّاااا.. هلا وهلا وغلا يا ميت مرحبًا بروفيسور سارة خير سيدة القصر؟

– هههههه.. كدهووو يابكاااش، طيب البس واجهز علشان سائق الجامعة هيفوت عليك نتفرج على محل رائع للإيجار ينفع معرض أنتيكات كويس أوى.

ماهر في حالة «لخبطة» من الفرحة لم يصدق نفسه، ويسأل سارة:

– حضرتك بتتكلمي جد يا بروفيسور؟ أقصد يا ملكة كليوباترا، هههههه، يعنى مش بتهزري، والله كلامك حقيقي، أنا مش مصدق نفسى!!

– باقول لك البس بسرعة يلا، السواق «جو» هيرن الجرس عليك حالًا.

ماهر يشرح تلك اللحظة:

– أغلقت الهاتف، وكأنني في حلم جميل لا أريد أن أستيقظ منه، وبسرعة البرق ارتديت ملابسي في التوقيت ذاته الذى وصل فيه السائق، ركبت معه سيارة الكلية، وذهبنا إلى عنوان المعرض، حيث كانت تنتظرني بروفيسور سارة، شاهدت المكان، واقتنع كل منا به، ثم اتفقنا مع الشركة المالكة على إيجاره 10 سنوات، تُجدد حسب رغبة الطرفين، وكتبنا العقد بناء على ذلك، ويتابع:

– وبهذه المناسبة صممت بروفيسور سارة على استضافة تلميذها وشريكها داخل فيلتها، احتفالًا بهذه الخطوة الرائعة من ناحية، ومن الناحية الأخرى حتى نتناقش ونوقع تفاصيل عقد الشراكة، وكل ما يلزم المعرض الذى أطلقنا عليه اسم «ماس»، وهما الحرفان الأولان من اسمى واسمها، اتفقنا مبدئيًّا على عرض كل ما هو مصري قديم كالمستنسخات والعملات والحلى والملابس الفرعونية ولوحات ورق البردى المرسوم عليها أشهر ملوك وملكات الفراعنة، ثم بعض الكماليات المشابهة لكل ذلك من: الهند والصين وبعض الدول العربية ذات الحضارة العريقة، مثل: العراق واليمن وسوريا.

بعد وضع اللمسات الأخيرة لكل شيء يخص المعرض، أحضرت سارة تورتة كبيرة كانت قد أوصت عليها من أشهر حلواني في كاليفورنيا احتفالًا بهذا الاتفاق، إضافة الى مشروبها الخاص من النبيذ، كما أحضرت لماهر مشروب البرتقال، احترامًا له وديانته، واستمتع كلاهما بوقت جميل حتى الصباح، فيصف ماهر هذه الليلة:

– أسمعتني سارة فيها أغانٍ مصرية قديمة لموسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب، وكوكب الشرق السيدة أم كلثوم ونجاة الصغيرة ووردة وسعاد محمد، ومن جانبي ألقيت عليها بعض النكات المصرية، وخاصة الكوميدية منها، ويواصل:

– خاصمنا النوم في هذه الليلة، ومع اقتراب الصباح، أصرت بروفيسور سارة على أن توصلني بسيارتها إلى مقر إقامتي، ثم تذهب هي بعد ذلك إلى مقر عملها بالجامعة، جلست يومين متواصلين تغمرني سعادة مفرطة من شدة فرحتي بما حدث، وكيف لي ألا أسعد بعد أن وهبني الله عملًا جميلًا، سيحقق لي حلم عمرى باستحضار ميار إلى أمريكا لإتمام إجراءات ومراسم الزواج.

وينتقل ماهر في الكتابة لمحور آخر من بداية الحياة العملية التي جمعته بأستاذته وشريكته، فيقول:

– على مدار شهر كامل، تفرغت فيه بروفيسور سارة لمرافقتي في وقت فراغي من دراستي لزيارة صالات المزادات والمتاحف في أنحاء الولايات الأمريكية حتى تصقل موهبتي في هذا المجال، ولأطلع على أحدث الأسعار للقطع الأثرية في هذه الأماكن، وهذا الأمر كنت أرفضه تمامًا، لأن اتفاقي معها كان لبيع الأنتيكات والمستنسخات فقط، ولكن بعد استشارة أحمد بك (ضابط المخابرات المصري) خضعت لرغباتها مرغمًا.

– من ضمن ما لفت انتباه بروفيسور سارة في هذه الجولات، العدد الرهيب من

القطع الأثرية المصرية النادرة (فرعونية ويونانية ورومانية وإسلامية وقبطية) التي تُباع هنا وهناك دون خجل أو حياء.

حينها قالت سارة لماهر:

– ليت الأمر قد وقف عند تهريب آثاركم وعرضها هنا بمليارات الدولارات يا ماهر، بل تعداه بمراحل، عندما رأيت بأم عيني الانتهاكات التي تتعرض لها آثاركم هنا، فهناك مدن سياحية قائمة على مستنسخات آثاركم، وهذا الأمر يسمى في عرف الدول التي تحترم تراثها بـ«الابتذال الفني» الذى يهدد حضارة وتاريخ الأمم.

نظر ماهر إلى سارة، وعلامات الاستفهام والتعجب ترتسم على وجهه، فسألته إن كان يريد رؤية ما أشارت هي إليه من انتهاكات لحضارته على الطبيعة؟!

وعلى الفور، وافق ماهر، وقال لسارة:

– بالطبع، وما هي إلا سويعات قليلة، حتى وجدت نفسى في مدينة «لاس فيجاس»، لم أصدق نفسى وأنا أرى بها مستنسخات الأهرامات وأبو الهول والمسلات المصرية، بل إن مدينة الأقصر بأكملها، بالإضافة إلى آثار الكرنك ومقبرة توت عنخ آمون وجدتها في تلك الأماكن!!

وعندما شاهدت سارة علامات الذهول على وجه ماهر قالت له:

– حبيبي ماهر، دعني أزيدك من الشعر بيتًا كما تقولون أنتم يا مصريون، لقد كشف باحث أمريكي في عام 2010 أن أرباح مدينة لاس فيجاس سنويًّا وصلت إلى 81 مليار يورو كعائد لمستنسخات آثاركم، ولم تحصلوا منها أنتم على أي شيء، بل وتنتظرون المعونة الأمريكية الملعونة سنويًّا!!، وتتابع سارة:

– ومن المفارقات الغريبة حقًّا يا ماهر أن مدينة الأقصر المصرية في أوج ازدحامها بالسائحين لا تتعدى 5 ملايين ونصف المليون سائح سنويًا، في حين يزور الأقصر الأمريكية المقلدة سنويا 35 مليونًا!!، وبناء عليه، قامت إحدى

شركات ولاية لاس فيجاس بتقليد أقصركم ونسخ معابدها الأثرية الفرعونية، كما شرعت الشركة نفسها بتسجيل اسم المدينة كحق فكرى لها، وعليه احتكرت اسم أقصركم، ولا يجوز لغيرها استخدامه إلا بعد تصريح رسمي منها وفق الاتفاقية الدولية لحقوق الملكية الفكرية.

ماهر يضرب كفا بكف بعد أن تسيل دموع عينيه، وبصوت حزين يقول:

- دي مصيبة سودا، هو إيه اللي بيجري ده؟!

ابتسمت بروفيسور سارة بعد أن رمقت ماهر بنظرة إشفاق:

- ما زاد الطين بلة حقيقة يا ماهر هو اتفاقية مدينة «دبى لاند» مع متحف اللوفر، التي تؤجر الإمارات بمقتضاها 300 قطعة من آثاركم التي أخذتها فرنسا وقت الاحتلال الفرنسي والإنجليزي لمصر عن طريق من ائتمنتموهم على كنوزكم الأثرية مثل: بلزوني (الإيطالي) وماسبيرو وميريت (الفرنسيين)و... بمقابل مادى يصل إلى مليار ونصف المليار يورو لمدة 30 سنة دون أن تحصل مصر أيضا على أي شيء!!

ماهر معلنا عن استنكاره لما تتعرض له حضارة بلده:

- تقصدي حضرتك آثارنا التي سرقتها فرنسا عن طريق اللصوص: بلزوني وميريت وماسبيرو و....

- هههههه يا سيدى مش هتفرق، مع العلم أنه لا يجوز لأى شخص أو جهة استنساخ آثاركم دون إذنكم ، وهذا الأمر يُعد تجنيًا على معطياتكم الحضارية، لذا لا بد أن تطالبوا بسرعة بوجود قانون يحمى ملكيتكم الفكرية، لأن الإبداع هو ملكية فكرية وتراثية ثقافية للإنسان المبدع لهذا العمل، وتردف:

- وما فعلته الشركات الأمريكية من استنساخ آثاركم، تكرر بواسطة شركات أخرى لصالح بلدانها ومنها على سبيل المثال: الصين التي جنت مليارات

الدولارات من استنساخ أبو الهول، والشيء نفسه في ألمانيا وإنجلترا و...

بعد هذه الرحلة المؤلمة، عاد ماهر مع سارة إلى كاليفورنيا، فكتب في مذكراته يقول:

– كنت وسارة بعد انتهاء كل منا من عمله داخل الجامعة، نذهب معًا لمتابعة ديكور معرضنا، حتى تسلمناه على أكمل وجه ممكن، بعد ذلك نظمت هي حملة إعلانية رائعة للمعرض بعد أن ملأته بكل أنواع العملات والمستنسخات والأنتيكات القديمة بواسطة أحد التجار الكبار، علمت فيما بعد أنه أحد المنتمين لعائلة روتشيلد وقريب زوجها الراحل، ويسترسل:

– في الحقيقة، ذاع صيت المعرض، بسبب سمعة أستاذتي الراقية واتساع علاقتها بالشخصيات العريقة داخل الولاية، وكذلك حسن استقبالي عملاءه، الأمر الذى أسهم بشكل كبير في زيادة رصيد بروفيسور سارة في البنوك، وملء جيوبي أنا أيضا بما تمنيته من المال الذى كنت أحتاجه وحرمت منه لسنوات طويلة، وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالسعادة الغامرة على وجه بروفيسور سارة، ليس لشيء، سوى لإحساسها بسعادتي ونجاحي في تسويق بضاعة المعرض من ناحية، وتفوقي في دراستي من الناحية الأخرى.

أخيرًا، آن لماهر أن يخلد للنوم، بعد أن انتهي من كتابة هذا الفصل المرهق، هكذا تحدث مع نفسه في الليلة الثانية من حبسه، على أمل أن يرتاح قليلا قبل أن يبزغ ضوء النهار، ويقابل محاميه.

■ الفصل السابع

دليل براءة

أثناء نوم ماهر العميق، جاءه والداه وشقيقته في المنام ليسألوه عن حاله ويطمئنوا على أحواله، رد عليهم بصوت عالٍ جدًّا وكأنه يتحدث معهم وجهًا لوجه:

– أنا بخير، اطمئنوا، ما تقلقوش نفسكم عليَّ، كلها كام يوم وأزوركم في البلد.

ينهض «أنتيكا» من نومه متجها ناحية الصوت، وإذ به صوت ماهر يتحدث مع نفسه وهو نائم.

يعتذر «أنتيكا» لزملاء الحبس بسبب صوت ماهر المزعج بعد أن يوقظه من النوم ليطمئن عليه.

ينظر ماهر لزملاء الحبس أيضا، ويلتمس منهم العذر على ما بدر منه خارج إرادته، ثم ينفرد بـ «أنتيكا»:

– أبويا وأمي وأختي، زاروني في المنام علشان يطمنوا عليَّ، لكنى لاحظت معاناة والدى من شيء ما يبدو على وجهه، وكأن نوبة الكبد عادت إليه مجددًا، أنا خايف عليه جدًّا يا «أنتيكا».

يصمت ماهر لحظة يلتقط خلالها هاتفه المحمول من مكان سرى بسرير نومه ليتصل همسًا بمحاميه مدحت، ويطلب منه السفر إلى البلد للاطمئنان على والده

والذهاب معه إلى أستاذ الكبد الذى يتابع معه بمركز الكبد بالمنصورة.

«أنتيكا» يكرر سؤاله بعد أن سمع المكالمة:

– خير اللهم اجعله خيرًا. وإن شاء الله كل الخير، وربنا يطمئنا علي الوالد، إن شاء الله تعالى يا دكتور.

حدث ذلك بتاريخ 23مارس 2012، في تمام الساعة 10 صباحًا، الساعة 12 زاره محاميه برفقة شقيقته وزوجها، ودكتورة زوزو، وبعد أن رحب بزائريه سألهم أولًا عن صحة والده.

طمأنته شقيقته وزوجها ومحاميه.

يحمد ماهر ربه ويشكره على نعمته، ثم سأل محاميه إن كانت لديه أى معلومة جديدة عن قضيته؟

يبتسم مدحت أثناء إجابته عن سؤال موكله:

– فيه حاجات حلوة كتير جدًّا يا صديقي مش حاجة واحدة، هناك جريدتان أجنبيتان ومثلهما مصريتان وبعض الجرائد العربية كتبت معلومات مهمة لصالحك، كما كتب بعض الكتاب والصحفيين «إياهم» ضدك.

ماهر بنبرة حزن ومرارة وألم يعتصر قلبه:

– كالعادة يا مدحت، خليهم يكتبوا، بكرة يعرفوا إني كنت ومازلت أدفع ثمنا باهظا في الدفاع عن تاريخ بلدي، وقتها فقط سيتأكدون أني بريء.

دكتورة زوزو بصوتها الجهوري وكبريائها وتفاؤلها الدائم وإقبالها على الحياة:

– كل ما أحتاجه منك الآن هو أن ترتاح وتريح بالك، وتتأكد من براءتك، فقد جمعت أدلة عظيمة عن يوم 28 يناير 2011، عبارة عن شهادة عدد ممن شاهدوك معي من زملائي الأطباء الذين كانوا يساعدوننا في تضميد جراح مصابي الثورة، بالإضافة إلى حصولي على صور وفيديوهات مهمة في عدد من هواتف شخصيات

وطنية محترمة تثبت جميعها براءتك، بل وتكشف في الوقت ذاته عددًا من لصوص المتحف.

ماهر ينظر إلى زوزو بكل تقدير واحترام:

- أولاً البقاء والدوام لله في وفاة المغفور لها السيدة الوالدة، رحمها الله، وأسكنها فسيح جناته.

- ثانياً أدعو الله أن يكون زوجك الفاضل وابنك الغالي «على» بألف خير، ثالثا والله مش عارف أقول لك إيه على تعبك معايا، ومقالاتك المؤيدة لموقفي دكتورة زوزو و.....

- زوجي وابني بخير يا ماهر، ويرسلان لك سلامهما، وما قمت به تجاهك ما هو إلا واجبي نحو أخ وصديق وزميل وصحفي ورجل وطني محترم، في زمن .....

- يا ترى أخبار الإخوان إيه؟.. حاسس إنهم خطفوا البلد يا دكتورة.

زوزو تخشى على مصر، وتسخر من مجريات الأمور وما يدور على أرض الواقع وخلف الكواليس:

- تخيل يا ماهر، أن سفيرة أمريكا بالقاهرة كشفت عن نواياها وحقدها الدفين تجاه مصر منذ أيام لجريدة مصرية يومية خاصة، وقالت إن الإخوان سيرشحون رئيسا من بينهم، مدعية أن حكمهم سيكون ديمقراطيا.. وأن مصر ستتحول مع هؤلاء الإرهابيين إلى دولة كبرى اقتصاديًا خلال 20 عاماً.. ولم تكتفِ هذه «الحيزبونة» بذلك، بل كشفت اللثام أيضا عن استمرار مقابلتها للخونة 7 مرات تقريبا، وأنها تثق في إيمانهم بالسلام مع إسرائيل!!.. كما أوضحت هذه الحرباء أن مراكز الأبحاث الأمريكية بدأت العمل بعد أحداث 11 سبتمبر لتوطيد العلاقة بين الأمريكان والتيار المتأسلم بعد وصول قياداته للحكم في المنطقة، فوز حركة حماس بالانتخابات فى غزة كان نموذجا، وهذا يتفق تماما مع ما صرحت به هذه

السفيرة، عندما قالت:

– يجب أن نكون على صلة بالقوى الإسلامية (تقصد القوى الإرهابية) نظرا لأنها لاعب رئيسي على الساحة السياسية، وهو أمر لم يكن محل شك بالنسبة إلينا رغم تشكك البعض في مدى تأثيرهم. ولكن سياستنا أبسط من ذلك، فنحن نساند وجود انتخابات حرة بين القوى السياسية ونعمل مع من يفوز.

وواصلت زوزو حديثها عما تشعر به من خطر داهم في تحركات السفيرة الأمريكية مع عملائها من المصريين وغيرهم:

– لقد اعترفت هذه الشيطانية أيضا بتمويل أمريكا لمنظمات مجتمع مدني عاملة فى مصر لتدريب شعبنا على المشاركة والعملية السياسية، كما قالت أيضا وبالحرف الواحد:

– سنساند العملية الانتخابية الديمقراطية، وسنمول بسخاء منظمات مدنية تساند لجنة الانتخابات الرئاسية، ولدينا برامج تعاون أخرى مع منظمات غير حكومية لتشجيع المشاركة السياسية، وسنتعاون مع البرلمان المقبل في مجالات متعددة مثل تعزيز استخدام التكنولوجيا وصياغة القوانين.

رائد الشرطة محمود يقطع الحديث على ماهر وزوزو برقي، ويقول لهما:

– دعونا من الحديث عن أمريكا والإخوان حاليا، وخلونا نشكر دكتورة زوزو على مقالاتها وموقفها المُشرف من إنسان مظلوم في وقت غابت فيه قيمنا وإحساسنا بقيمة حضارتنا، ويكمل:

– شوف يا دكتور ماهر، منشور اليوم في الجرائد خبر مهم جدًّا مضمونه كالآتي: أعلن مسئول الآثار أمس تمكن وزارة الداخلية ومباحث الآثار من استعادة 10 قطع أثرية فريدة للملك توت عنخ آمون ، من إجمالي 29 قطعة كان قد تمت سرقتها من المتحف المصري في ميدان التحرير خلال أحداث ثورة يناير 2011، ويتابع:

– عن نفسى سألت زملائي في مباحث الآثار وأكدوا لي صحة الخبر، وأبدوا استعدادهم أن يمدوني بأي معلومات تفيدنا في قضيتنا، كمان مسئول الآثار الأول قال بالنص: ليلة 28 يناير اقتحمت مجموعة من اللصوص والبلطجية متحف التحرير، حيث تمت سرقة 54 قطعة أثرية، تمكنت شرطة السياحة من استرجاع 23 منها عبر عمليات مكثفة، ويُكمل:

– بينما بقيت 31 قطعة تم إبلاغ الإنتربول بها لمنع التعامل معها.. مش كده وبس يا جماعة، ده كمان شرطة السياحة والآثار تمكنت من استرداد 10 قطع، فضلاً عن قطعة تم استردادها من بلجيكا، وتتبقى 10 قطع أخرى، إضافة إلى استعادة 3 قطع مسروقة من ألمانيا، و8 قطع من الولايات المتحدة يوم السبت المقبل.

***

*** الملك توت عنخ آمون.. أحد فراعنة الأسرة المصرية الثامنة عشرة في تاريخ مصر القديم، وكان فرعون مصر من 1325 وحتى 1334 ق.م، زوجته تدعى عنخ إسن آمون، ينتمى للأسرة الأقوى في تاريخ مصر، هناك من أشاع أن أصله آسيوي وليس مصريًّا، مستندين في ذلك إلى النتائج غير المنصفة التي توصل إليها الفريق الطبي الأجنبي الذى أجرى عدة تحاليل على موميائه بواسطة الـ«D.N.A» بتسهيلات من قيادات أثرية مصرية معروفة. كما أنه الملك الوحيد الذى عثر على مقبرته كاملة لم يمسها اللصوص، ومع ذلك تمت سرقة نحو ألف قطعة منها من أصل 6 آلاف قطعة كانت بمقبرته في الدير البحري بواسطة هيوارد كارتر (المكتشف) وكارنرفون الممول.**

***

نعود مرة أخرى لحديث رائد الشرطة، فيواصل:

– أما مساعد وزير الداخلية لشئون السياحة والآثار فقال إن هناك محاولات

تبذلها شرطة الآثار والسياحة من 3 أشهر للوصول للقطع المسروقة من المتحف،وقد تم ضبط المتهمين بكمين بمنطقة النزهة بالقطع الـ10 التي تمت سرقتها يوم 28 يناير 2011، ويُردف ضابط الشرطة:

– وفي الخبر أيضا أن عناصر الإخوان سرقوا ودمروا آثار ملوى، وتم ضبط 95٪ من القطع التي سُرقت من هذا المتحف بما فيها ابنة إخناتون، كما كشف عن أن من بين القطع الـ10 المستردة، تمثالًا لتوت عنخ آمون مصنوعاً من الخشب ومغطى برقائق من الذهب والبرونز وكان واقفًا على قاعدة مستطيلة .

علامات السعادة تعلو وجه المتهم بعد سماعه هذه الأخبار من محاميه وشقيقته ودكتورة زوزو وصهره ويسألهم:

– عظيم كل هذه الأخبار، طيب وبعدين، هنعمل إيه بعد كده؟

بحس قانوني راقٍ تقول مُني لشقيقها:

– اصبر شوية يا اخويا حبيبي، كل شيء راح يتظبط، المهم، شوية صبر وإن شاء الله كل الخير، والآن خد الكيس ده مِنى أنا وماما ودكتورة ميار، فيه كل الأكل اللي أنت بتحبه.

لحظة صمت تسود الزيارة، يقطع مدحت محيط هذا الصمت ويطلب من ماهر أرقام هواتف بعض مصادره الأثريين في متحف التحرير لعل وعسى يخرج منهم بأي شيء مفيد، فيلبي ماهر طلبه.

وقبل أن تنتهى الزيارة الثالثة، يستأذن ماهر صهره الضابط ليسأله – في أذنه – عن أخبار حمل زوجته؟

يبتسم الضابط محمود، ويُطمئن ماهر بعد أن يحمد الله ويشكر فضله على نعمته، ثم يهمس في أذن زوجته ويطلب منها أن تبشر شقيقها أيضا بحملها في الشهر الثالث، فتفعل مُنى، وتغمر الفرحة قلب ماهر، ومحاميه معًا.

يستأذن ماهر الزائرين في الانصراف على أمل تكرار اللقاء في الزيارة التي تليها، ويعود إلى محبسه برفقة أمين الشرطة الموكل بحراسته، فيستقبله «أنتيكا» كعادته بالنكات والقفشات حتى يخفف عنه مأساته.

في لحظة ما، غفلت فيها عينا «أنتيكا» واستسلم للنوم ظهر يوم حار إلى حد ما، وبسرعة البرق انتهز المجرم «بِشلة» هذه الفرضة وانهال بالضرب المبرح على ماهر، فتسبب بكسر بسيط في ذراعه اليسرى، وقبل حضور حرس القسم لمعرفة ما يحدث، كان «أنتيكا» قد أعطى «بِشلة» طريحة ضرب لم، ولن يحلم بها يومًا، كما تعاطف أكثر المحتجزين مع ماهر، ونال منهم «بِشلة» أضعاف ما ناله من «أنتيكا».

يدخل أمين الشرطة النوباتجي إلى غرفة الحجز، وينقل كل ما دار فيها من أحداث لمأمور القسم مدعومًا بشريط مسجل بواسطة الكاميرا الموجودة بالغرفة.

يستدعى المأمور «بِشلة»ويأمر بحبسه انفراديًّا بعد أن نال عقابه المتعارف عليه في هذه الحالة من مخبري القسم، ثم يُصدر أمرًّا بنقل ماهر إلى المستشفى على الفور، على أن يرافقه «أنتيكا» وحرس خاص من القسم.

داخل المستشفى، زار ماهر كل من: زوجته وطفليه ووالديه وشقيقته وزوجها ومحاميه مدحت ودكتورة زوزو، فيجلس الجميع بجواره لمدة ساعتين على الأقل، وبشكل يومي على مدار خمسة أيام، هي فترة علاجه مما أصابه على يد «بِشلة» بتحريض من شخصيات أثرية وتجار آثار ورجلي أمن، وهذا ما اعترف به «بِشلة» في محضر التحقيق لمأمور السجن، فكانت تلك الواقعة دليلًا جديدًا وقويًّا للتركيز على الجناة ومتابعتهم من الأجهزة المعنية بشكل حثيث، كما سيتضح ذلك تباعا بعد المعلومات المدونة بمحضر الواقعة، والذي حصل محامي المتهم على صورة منه.

في اليوم الخامس من الزيارة، تحدثت دكتورة زوزو مع ماهر كثيرا عن مستغلي الثورة وأعدائها، وأكدت له أنها تشتم رائحة مؤامرة أمريكية – غربية بأيادٍ إخوانية

ضد مصر وتابعت:

– كما أن المحاولات الأمريكية للسيطرة على الدول والتدخل في شئونها لم تبدأ خلال القرن العشرين كما ظن البعض، وإنما هي سياسة ثابتة يجري تطبيقها على مراحل منذ 300 سنة، وهذا ما كشفه تقرير صحيفة «ذا تليجراف» البريطانية يوم 28 يناير 2011، وأكد التقرير أن التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى، والتحريض على القلاقل في تلك المجتمعات، وتغيير الأنظمة، وتأييد الانقلابات العسكرية، والحكام الديكتاتوريين، واغتيال زعماء، وإثارة حروب أهلية، هي نماذج لحلقات متصلة في سلسلة ممارسات السياسة الخارجية الأمريكية.

ماهر يوافق زوزو الرأي:

– عندك كل الحق دكتور زوزو، لقد دمروا العراق تماما ضمن خطة «قذرة» عام 2010، وقد سبق ذلك تحضيرات منذ عام 2008، وهذا ما تؤكده ثماني برقيات أرسلتها سفيرة أمريكا في القاهرة إلى وزارة خارجيتها بواشنطن، وتشير إحداها صراحة إلى اتفاق ناشط في 6 إبريل مع نشطاء دول أخرى على المساعدة بتنظيم مظاهرات لتأييد التغيير في مصر، وذلك من خلال وجوده في قمة الحركات الشبابية التي عقدت في نيويورك عام 2008، ويُكمل:

– لقد جاء في إحدى هذه البرقيات أن ناشط حركة 6 إبريل هذا، والذي حذفت السفيرة اسمه، أعرب عن ارتياحه لانعقاد مؤتمر ائتلاف قمة الحركات الشبابية من «3–5» ديسمبر 2010 بنيويورك، وأوضح أنه تمكن من الالتقاء مع نشطاء من دول أخرى، وشرح لهم أهداف حركته للتغيير في مصر. وأبلغ أن النشطاء الآخرين (من دول أخرى) في هذا الاجتماع عرضوا تنظيم مظاهرات عامة في بلادهم، تأييدا للتغيير الديمقراطي في مصر»!!

زوزو قبل أن تستأذن ماهر في الانصراف مع بقية الزائرين:

– لا تنسَ يا ماهر أيضا تلك الدورة التدريبية الأخرى التي نظمتها وزارة

الدفاع الأمريكية (البنتاجون) لاستخدام التكنولوجيا الحديثة في إحداث التغيير السلمي، وقد شارك فيها أعضاء من تنظيم الإخوان المسلمين، يخفون حقيقة هويتهم الإخوانية، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الشباب، منهم أعضاء في حركة 6 إبريل و.....

ماهر يزيد على طرح زوزو ، فيقول:

– لذا أدارت الحكومة الأمريكية حوارات مع الإخوان منذ تسعينيات القرن العشرين، مما أدى إلى غضب الرئيس السابق حسني مبارك، عندما علم بهذه الاتصالات، ففي كتاب «الجهاد وانتشار الإسلام المتشدد» يقول مؤلفه جيلز كيبل الخبير الفرنسي في شئون الإسلام:

– «إن مبارك استشاط غضبا عندما اكتشف هذه الاتصالات مع الإخوان، وإنه عبر عن غضبه في حوار أجرته معه الصحفية الأمريكية ماري آن ويفر، بقوله إن «حكومتكم تجري اتصالات مع هؤلاء الإرهابيين من جماعة الإخوان، وإن هذه الاتصالات كانت تدور بصورة سرية وبدون علمنا»!!

زوزو توافق ماهر الرأي مدللة على ذلك:

– كلامك صحيح، بدليل خطاب أوباما في جامعة القاهرة عام 2009 حينما أشار إلى أن أمريكا تحترم حق أصحاب الأصوات السلمية في الاستماع إليهم حتى لو كانت مختلفة معهم، كما أوضح الصحفي الأمريكي ديفيد إجناتيوس في صحيفة «واشنطن بوست» أن عبارات أوباما لم تكن عشوائية أو وليدة موقف أو لحظة، وإنما تمت صياغتها تحديدا للإشارة إلى الإخوان. وكان الرئيس الأمريكي قد طلب من «مبارك» دعوة أعضاء من الإخوان لحضور خطابه، في تصرف غير مسبوق.

إلى هنا انتهى كلام زوزو، وذهبت إلى بيتها ليستقبلها زوجها وابنها بكل أنواع المودة، فتبادر هي بتحضير السفرة ، وأثناء تناولهم الطعام فتحت حوارا جادا مع

زوجها تكشف له فيه عن مشكلة ماهر، وعن المأساة التي يمر بها الشعب، وخشيتها على مصر من المؤامرات التي احيكت لها بليل أسود بقيادة سفيرة أمريكا بالقاهرة، وكان باديا على الزوج تعاطفه مع ماهر، وحزنه الشديد على ما تمر به مصر ، فقال لزوجته:

– لا تقلقي على بلد حارسها رب العالمين، وأوصى عليها سيد الخلق أجمعين، كما أنني أثق جدًّا في قوة وقدرة قواتنا المسلحة على ردع العدو الخارجي والداخلي في الوقت المناسب.

– ونعم بالله ، عندك ألف حق وحق حبيبي.

أما مدحت فوصل هو الآخر إلى منزله، وفي رأسه ألف سؤال وسؤال تبحث جميعها عن إجابات محددة، بخصوص هذه الواقعة، وتعقيبًا على ما نشره الإعلام عن عودة عدد كبير من القطع الأثرية المتهم بتهريبها موكله إلى الخارج، وبدأ ينظر إلى برواز على مكتبه فيه صورته مع ماهر وهما طفلان في المرحلة الابتدائية، ليستحضر بعض المحطات التي جمعتهما، على أمل أن تلفت انتباهه هذه الصورة وتلك الذكريات إلى شيء ما لم ينتبه إليه.

فيما عاد ماهر و«أنتيكا» إلى محبسهما بعد خمسة أيام جلساها في المستشفى، رحب بهما كل من كان في القسم من ضباط وأمناء ومجندين ومحتجزين.

داخل غرفة الحبس تظهر علامات السعادة والفرح على وجه ماهر، بعدما اعترف «بِشلة» على من حرّضه، وكالعادة أخرج المتهم الأكل الذى أرسلته له زوجته ووالدته وشقيقته في المستشفى، ووزعه على المحتجزين.

حان وقت الموت الأصغر، وراح الكل داخل غرفة الحبس في نوم عميق، إلا ماهر بعدما ملأ الأمل قلبه وفكره في إظهار الحقائق للرأي العام أولًا، ولأجهزة الدولة ثانيًا.

يُخرج ماهر دفتره وقلمه استعدادًا للكتابة بعد أن أضاء شمعته، فكتب:

- بعد جهد متواصل على مدار عامين كاملين، حصلت على درجة الماجستير في الصحافة الإلكترونية بامتياز مع مرتبة الشرف، وفي الوقت ذاته، توسعت مع سارة في تجارة المعرض، لدرجة أننا نظمنا عدة سفريات لزيارة ومشاهدة متاحف بعض الدول الأوروبية المملوءة بآثار العالم، فكانت رحلتنا الأولى إلى أثينا، ويكمل:

- أقمنا في بلد الإغريق بأفخم وأعرق فنادقها، واستمررنا فيها نحو عشرة أيام نتنقل بين مدنها الأثرية، ونستمع من مرشديها كيف صنع أجدادهم هذه الحضارة العظيمة، وذلك من خلال ما شاهدناه داخل متحف الآثار الوطني بأثينا، والذى تأسس عام 1829، حيث يضم بعضًا من أهم القطع الأثرية المتنوعة لمواقع أثرية من مختلف أنحاء اليونان، من عصور ما قبل التاريخ إلى أواخر العصر القديم.

يتوقف ماهر 10 دقائق عن الكتابة ليجهز لنفسه فنجان القهوة المحوج ليرتشفه مع سيجارة، ثم يواصل:

- في الوقت ذاته كان يصاحبنا أحد أساتذة الحضارة المصرية القديمة، مستر باسيلي (55 عامًا، قبرصي الجنسية ومحاضر بارع في جامعات اليونان).. وما عرفته منه أنا وسارة عن حضارتنا العظيمة التي صنعت أعظم الحضارات في العالم القديم، قد فاق كل التوقعات، وكلما سمعنا من مستر باسيلي عن تقدم حضارتنا القديمة على غيرها، كانت سارة تقول لي:

- تمنيت أن أزور دولة اليونان منذ زمن لأسباب عديدة.. أهمها قراءتي عن فلاسفتها وعلمائها الأفذاذ مثل أفلاطون وأرسطو وسقراط وفيثاغورث، الذين تعلموا على يد أجدادنا الهكسوس.

ماهر يُجن جنونه:

- حضرتك مُصممة ومقتنعة أن الحضارة المصرية كانت على يد الرعاع

الهكسوس المحتلين؟!.. يا افندم الهكسوس قوم رُحل من البدو الآسيويين، دخلوا مصر من سيناء في غفلة من الزمن، في فترة ضعف نهاية حكم الأسرة الرابعة عشرة، وتم القضاء عليهم نهائيا بقيادة الملك أحمس الأول أحد رموز الأسرة الثامنة عشر، أعظم الأسرات الفرعونية التي أعادت أمجاد حضارة الأسرة الخامسة التي شيدت الأهرامات، وهذا الفارق التاريخي يؤكد كذب وأقاويل الصهاينة عن مشاركتهم في صنع حضارتنا!!

سارة بثقة وتنمر وايمان عميق بما تقول:

– نعم الفراعنة الهكسوس هم أجدادنا، وغير صحيح أنهم بدو آسيويون، ثم ما سبب تعجبك واستنكارك لذلك يا ماهر؟!.. ده تاريخ يا حبيبي.

ماهر يبتلع ريقه محاولاً احتواء الموقف إلى حين، فيقول:

– لكن بروفيسور سارة، أو يا ملكة كليوباترا، هههههه، ما تقولينه غير صحيح على الإطلاق، لأنه حتى فلاسفة الإغريق تعلموا في أول وأشهر جامعتين علميتين عرفتهما البشرية بمصر، وهما مدينتا «أون» و«منف»، وكلتاهما تأسستا على يد القدماء المصريين، ولا علاقة للهكسوس سواءً أكانوا أجدادك أو لا بهذا الأمر.

***

*** «أون».. مدينة الشمس بالمصرية القديمة أو بالإغريقية هليوبوليس كما سماها اليونانيون، وتقع في ضاحية مصر الجديدة بشمال شرق القاهرة حيث تقف مسلة من الجرانيت الأحمر خلف المنازل ، وهى المَعلم الوحيد الظاهر من مدينة عمرها سبعة آلاف سنة، كما أنها كانت مركزًا لعبادة الشمس، وهى مدفونة تحت ضاحية عين شمس ومنطقة المطرية القريبة منها، ففي غرب عين شمس تقع معابد مدينة «أون»، حيث يجرى التنقيب في هذه المنطقة التي تبلغ مساحتها 26800 متر مربع، وتضم آثار معابد ومكتبات للفلسفة وعلوم الفلك والرياضيات.**

*** أما «منف» أو «منفر» أو «ممفيس».. فهي مدينة مصرية قديمة ضمن مواقع**

التراث العالمي، أسسها عام 3200 قبل الميلاد الملك «نارمر» وكانت عاصمة لمصر في عصر الدولة القديمة «الأسرات 3- 6» وكانت فيها عبادة الإله «بتاح»، ومكانها الحالي مدينة البدرشين محافظة الجيزة على بعد 19 كم جنوب القاهرة، قرية «ميت رهينة»، وكانت معروفة باسم «الجدَّار الأبيض» حتى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد إلى أن أطلق عليها المصريون اسم «منفر» وهو الاسم الذى حرفه الإغريق فصار «ممفيس» ثم أطلق العرب عليها منف.

***

هنا تأكدت سارة من وطنية وعراقة وأصالة ماهر حتى لو لم يكن على دراية كافية بعلم أجدَّاده، فأرادت ألا توسع الفجوة معه، فقالت:

- ماهر حبيبي، إحنا جايين هنا نستمتع بوقتنا مش جايين نختلف، فالماضي مثل البستان، كل فترة فيه لها جمالها ورونقها، حلوها ومرها، لذلك فأنا دائما سعيدة بالتعايش مع الماضي، والماضي مجرد حجر يبوح لنا ويكشف أسرار وعلم العظماء الفراعنة، سواءً أكانوا من الهكسوس أو المصريين القدماء، فجميعهم فراعنة في نهاية الأمر.

- أوك بروفيسور سارة معذرة.

في هذا التوقيت يستأذن ماهر من سارة ليذهب إلى أقرب صيدلية لشراء أدوية مسكنة لألم الصداع الذى يعانى منه من وقت لآخر بسبب المجهود المضني الذي يبذله في الدراسة وفي المعرض.

في أحد شوارع أثينا الجانبية، كانت بداية معرفته بالشاب المصري الذى لم يتجاوز عمره 35 عامًا، أحمد بك ضابط أحد الأجهزة السيادية المصرية.

أحمد بك بصوت ودود ولهجة ريفية وخطى بطيئة يستوقف ماهر:

- رايح فين أستاذ ماهر؟

ماهر يرمق أحمد بك بنظرات استغراب وإنكار:

- أستاذ ماهر؟!.. حضرتك تعرفني منين؟

أحمد بك مبتسما بعد أن يضع يده اليمنى بود على كتف ماهر:

- ومين ما يعرفش أولاد بلده المخلصين أمثال طالب الماجستير والدكتوراه ماهر؟.. على أي حال، بلاش تستغرب وتتسمر في مكانك كده يا ابن الرجل الصالح الحاج أحمد عبد الرحمن، وابن قرية «.....» من فضلك، وخلينا نتمشى شوية، لأني محتاج أتكلم معاك 10 دقائق فقط في أقرب مقهى من هنا.

ماهر ينظر لأحمد بك نظرات حيرة وريبة تشمل كل أساليب الـ«.....»، ويقول له:

- حتى لو كنت تعرفني وتعرف بعض التفاصيل عن أسرتي، فأنا ما أعرفش حضرتك، ولا أعرف حضرتك عاوز منّى إيه بالضبط؟

- يا سيدى ما تستعجلش على رزقك، بس نقعد شوية مع بعض وهتعرف عنّى كل حاجة.

- الأمر لله وحده، ماشي يا .....

- أحمد. اسمى أحمد يا أستاذ ماهر، ومصري زيك، ومش كده وبس، لأ، ده أنا كمان من قرية بالمنصورة تبعد عن قريتك 7 كيلو، هههههه.

- يا نهار أسود!.. كمان؟!

جلس ماهر وأحمد بك على أقرب مقهى في قلب أثينا، عرّفه أحمد بنفسه بأنه ضابط بجهاز سيادي مصري، فاطمأن ماهر بعض الشيء بعد أن رأى الكارنيه وتحقيق الشخصية وبسبور السفر لأحمد بك، فسأله:

- وعاوز منّى إيه يا أحمد بك؟

- في الحقيقة، أنا مش عاوز منك حاجة، مصر هي اللي عاوزة منك يا ماهر.

أقصد يا كتور ماهر.

- مصر عاوزة منى أنا؟!، خير يا افندم، تؤمرني.

- إن شاء الله كل الخير، اطمئن، حبيت بس أعرفك بنفسي وأقول لك إحنا جنبك من أول يوم دخلت فيه فيلا السيدة أو الدكتورة سارة، أستاذتك ومُشرفتك على رسالتي: الماجستير والدكتوراه.

- يعنى انتوا بتراقبوني بقى يا افندم؟

- لا أبدًا، مش كده بالضبط، لكن زي ما قلت لك، مصر ليها حق عليك، وكمان إحنا بنحميك من أي خطر ممكن تتعرض له، سواء هنا في أثينا أو في جامعتك بأمريكا بعدما أصبحت هدف لبعض الصهاينة.

- هدف للصهاينة، يا ساتر يا رب!!

- يا أخي قلت لك اطمئن، إحنا جنبك، وأنا عن نفسى هتواصل معاك من وقت للتاني، والآن أستأذنك، وإن شاء الله نتقابل في أقرب فرصة.

- أيوه بس أنا ما أخدتش رقم تليفونك ولا....

- مش ضروري أنا هعرف أوصل لك فين ما تكون، اطمئن، وأستأذنك الآن.

ماهر مازال تحت سيطرة المفاجأة غير المتوقعة:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!!.. ثم يتحدث مع نفسه مرة همسا، وأخرى بصوت خافت كالمجانين:

- غريبة الحكاية دي.. لا أدرى لماذا انتابني قلق شديد بعد هذه المقابلة، المهم أنني عدت إلى البروفيسور سارة، وكان القلق ظاهرًا على وجهى، حتى إنها حاولت أن تعرف منى أي تفسير لتغير ملامح وجهى، لكنني رفضت وبشدة.

داخل الفندق تعرف ماهر على أحد الرهبان اليونانيين الذي أهداه بعض الكتب

عن التراث العالمي، وأوصاه وسارة بقراءتها، وقبل أن ينصرف الراهب، سألهما إن كانا يحتاجان إلى أي شيء؟، فشكراه جدًّا وبدءا القراءة في هذه الكتب ومنها: «قصة الحضارة».. وهو كتاب موسوعي تاريخي من تأليف الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي ويل ديورانت، وزوجته أريل ديورانت، يقول ماهر:

– بصراحة استهوتني جدًّا أنا وسارة عظمة حضارة القدماء المصريين في هذا المؤلف، فنهلنا منها قدر المستطاع، وعندما رآنا الراهب بعد ثلاثة أيام في بهو الفندق، سألنا إذا كنا استفدنا من هداياه، فشكرناه جدًّا عليها، فأوصانا بالتركيز في كتاب «قصة الحضارة».

ويواصل ماهر كتابة مذكراته من محبسه:

– لقد كانت حكمة المصريين القدماء – بحسب قصة الحضارة – مضرب المثل عند اليونانيين الذين تأكدوا أنهم أطفال بالقياس إلى أجدادنا القدماء،«تعاليم بتاح حوتب»،عام 2800 ق.م.. نموذجا، أى ما قبل كنفوشيوس وسقراط وبوذا بألفي وثلاثمائة عام.. وكان «بتاح حوتب» هذا حاكمًا على «منف» وكبير وزراء الملك في أيام الأسرة الخامسة.. فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتابًا يحتوى على الحكمة الخالدة.. ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب أجدادهم.

ويسرد ماهر بعض كلمات الحكيم «بتاح» فيقول:

– أي مولاي الأمير، إن الحياة تقترب من آخرها، ولقد حل بي الضعف وعُدت إلى مرحلة الطفولة الثانية، والمُسن يلاقى البؤس في كل يوم من أيامه، فعيناه صغيرتان، وأذناه لا تستمعان، ونشاطه يقل، وقلبه لا يعرف الراحة.. فمُر خادمك إذاَ أن يخلع سلطاني الواسع على ولدى.. واسمح لي أن أحدثه بألفاظ الذين يستمعون إلى رجال الأيام الغابرة، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة في يوم من الأيام.. أتوسل إليك أن تسمح بأن يفعل ولدي هذا.

بينما كتب الحكيم «إيبوور» غاضبًا على ما تفشى في بلاده آنذاك:

– ما في البلاد من خلل واضطراب وعنف وقحط وانحلال يكتنف أخريات أيام الدولة القديمة.

ثم يتحدث عن المتشككين الذين يقربون القرابين إذا عرفوا مكان الإله. ويعلق «إيبوور» على ازدياد حوادث الانتحار مثلما ذكر شوبنهور من بعده، فيقول:

– ألا ليت الناس يقضى عليهم حتى لا يكون في الأرض حمل ولا ولادة، ألا ليت الأرض ينقطع منها الضجيج ويبطل منها النزاع.

ويضيف ماهر:

واضح من هذه الأقوال أن «إيبوور» وصل إلى مرحلة متقدمة من الشيخوخة وقد سئم الحياة، وهو يحلم في آخر أيامه بفرعون فيلسوف ينقذ شعبه من الفوضى والظلم ليبَرَّد لهيب الظلم الاجتماعي.

ويتذكر ماهر ما كتبه علماء التاريخ والآثار الأجانب المحايدون عن هيرودوت (المؤرخ اليوناني والملقب بـ «أبو التاريخ») عندما قالوا:

– وقت أن زار هيرودت مصر في القرن الخامس ق.م.. أكد تأثر حضارة بلاده بحضارة المصريين في أكثر من مجال، وأضافوا على لسان هيروديت:

– لقد جاءتْ أسماء الآلهة كلها تقريبًا من مصر إلى بلادنا.. فـ « أبو للو اليوناني» هو نفسه « حورس المصري »و« ديمتر اليونانية » هي نفسها « إيزيس المصرية ».. كما أشاد بدور مصر في الملاحة البحرية.. وشق قناة تربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر.. مستندا في ذلك إلى الرسم الذى شاهده على الجداريات لمنظر الأسطول المصري في رحلته إلى بلاد (بنط).. الصومال حاليا.. وأوضح أبو التاريخ:

– إنّ «الملك أحمس الثاني – آخر ملوك الفراعنة العظام قبل الغزو الفارسي اللعين للمحروسة – أول من سن قانونا سنويا للكشف عن مصدر دخل المواطن

العادي وحكام الأقاليم والوزراء على السواء (من أين لك هذا في العصر الحديث)..بالإضافة إلى قانون الضرائب الذي نقله المشرع ورجل القانون اليوناني «سولون أو صولون» عام 560 ق.م.. إلى أثينا.

وتابع ماهر:

كما أن «هيرودت» أكد ان بلاده نقلت عن مصر عادة «احترام وإجلال صغار السن لكبارهم».. كما نقلت عنها أيضا علوم الطب المصري وتخصصاته المختلفة.

بناء على ما سبق، يشير ماهر إلى حقيقة هامة وهي:

– اتفاق «هيرودت» تماما مع ما كتبه مواطنه استرابون (مؤرخ وجغرافي وفيلسوف يوناني).. عندما أكد أن «علوم الطب كانت سرًّا من أسرار الكهنة المصريين»، وأنّ «اليونانيين عندما طلبوا شيئـًا من أسرار المصريين في معارف الطب ظلوا يلزمون أبواب الكهان المصريين ثلاثة عشر عامًا حتى نالوا مطلبهم».

في زحمة أفكاره والأحداث التي مر بها ماهر، توقف دقائق عن الكتابة، ليتذكر ما أوضحته سارة نقلا عن كاتب أمريكي مشهور، حيث قالت:

– في كتابه «التراث المسروق.. الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة» أبدى الكاتب الأمريكي المخضرم جورج جي إم. جيمس اعتراضه على مصطلح الفلسفة اليونانية أو الإغريقية.. مؤكدا أنها تسمية خاطئة.. وأن من يُعرفون بأنهم فلاسفة اليونان لم يكونوا أصحاب هذه الفلسفة.. وإنما أصحابها هم الكهنة المصريون وشُراح النصوص المقدسة والرموز السرية للكتابة والتعليم.. كما أن المصريين القدماء استحدثوا مذهبا دينيا شديد التعقيد أسموه بـ «نظام الأسرار».. وهو أول مذهب عن الخلاص بهدف السمو على سجن الجسد، وان هذا النظام ظل سريا وشفاهيا يحظر تدوينه لنحو خمسة آلاف عام حتى سُمح للإغريق بالتعلم مباشرة من الكهنة المصريين، ويكمل ماهر نقلاً عن سارة عن لسان «جيمس»:

– والفلسفة المصرية غير المكتوبة التي تُرجمت الى اليونانية القديمة،كانت وحدها فقط التي وجدت المصير البائس لتراث سرقه الإغريق، وأن التضليل في حركة الترويج للفلسفة اليونانية يبدو سافرا وفاضحا الى أقصى مدى.. وذلك عند الإشارة عمدا الى أن نظرية المربع القائم على وتر المثلث قائم الزاوية هي نظرية فيثاغورث.. وهو زعم أخفى الحقيقة قرونا عن أعين العالم، أن المصريين هم الذين علموا فيثاغورث واليونانيين الرياضيات التي عرفوها بعد أن أُتيحت لهم فرصة التعلم من الثقافة المصرية.

ماهر يستحضر ما سمعه وشاهده عن نفس الكاتب، فيوضح:

– أظن أن ما كشف عنه «جيمس» يفضح «أسطورة كبرى ومؤامرة حكمت التاريخ واستبدت بفكر الإنسانية حتى أصبحت جزءا من سياسة عالمية امتدت قرونا».. لأن مثل هذه الأساطير لبست ثوب الحقائق.. وأصبحت مرجعا يُستشهد به ويكتسب قدسية أكاديمية.. وخاصة أن «جميع الغزاة» ناصبوا الثقافة المصرية «العداء القاتل».. ولم ينتموا إلى مصر تاريخا أو مجتمعا.. ولهذا تعمدوا تجفيف منابع الثقافة المصرية المادية والروحية بتدميرها أو نهبها حتى لو تخفوا وراء أقنعة أيديولوجية باسم الحضارة أو « إبلاغ رسالة».

ويتابع ماهر الكتابة متذكرا كيف كانت سارة تنظر إليه بتنمر خلال تلك المناقشة، فينقل مادار بينهما قائلاً:

– اللافت للنظر مليكتي الجميلة كليوباترا، أن «جيمس» أعرب عن سعادته لأنه استطاع أن يلفت «أنظار العالم» إلى هذه القضية التي يأمل أن تساعد كل من لهم أصول إفريقية في التحرر من «عبودية عقدة النقص» وأن يشعروا بالحرية ويتمتعوا بكل الحقوق والامتيازات الإنسانية.

لم يكتفِ ماهر بتذكير سارة بتلك الحقائق، بل فتح لها صفحات من كتاب « فجر الضمير»، وبدأ يقرأ لها نقلا عن مؤلفه:

– إن ضمير الإنسانية بدأ في التشكل من مصر قبل أي بلد في العالم، وإن المصري القديم شعر لأول مرة بنداء الضمير.. ومن ثم استيقظ معه الضمير الإنساني بمصر وترعرع.. وفي مصر تكونت الأخلاق النفسية.. وطوال مليون سنة طور الإنسان سلاحه فبدأ.. بـ «البلطة» وانتهى بالقنابل الذرية.. فالإنسان إذًا من مليون سنة استطاع تحطيم رأس أخيه الإنسان بهذه «البلطة».. أما الآن فإن بمقدوره إبادة ملايين البشر بقنبلة واحدة وفى ثوانٍ معدودات.. وما فعلته أمريكا في «نجازاكي وهيروشيما» باليابان ليس عنا ببعيد، ويواصل ماهر:

– لذا نصح المؤلف العالم أجمع بالعودة إلى ما قبل 5000 سنة لتعلم الأخلاق ورقيها على يد ما تركه أجدادنا القدماء أبناء نهر النيل.. وهذا ما جعل شاعرنا الكبير أحمد شوقي يخاطب النيل بتلك الكلمات:

– «أصل الحضارة في صعيدك راسخ.. ونباتها حسن عليك مخلق.. ولدت فكنت المهد.. ثم ترعرعت فأظلها منك الحفىّ المشفق»، لذا يجب علينا التذكر دائما وأبدا بأننا ننتمى إلى أمة عظيمة تستحق منا أن نعمل على إعادة مجدها.

و يسرد ماهر لسارة مناشدة مؤلف «فجر الضمير»لضمير المصريين ليوقظهم، فيقول:

– إن قدماء المصريين في عصر ما قبل التاريخ أقاموا مجتمعهم، بجانب القيم والأخلاق والضمير.. على الاستقرار الذاتي وتلبية كافة احتياجاتهم الغذائية من: نبات الأرض والحيوان بعد أن استطاعوا تأنيسه.. وهذا هو الثابت تاريخيا وأثريا منذ عصر مينا (موحد الشمال والجنوب) كما نجح قدماء المصريين نجاحا باهرا في تأسيس حكومة مركزية قوية.. وكان نهر النيل بفيضانه وانحساره ودوران ريه.. من أهم الركائز الأساسية لهذه الدولة المركزية، ويواصل:

– إذاً مصر أصل حضارة العالم ومهدها الأول.. ومن يعتقد أن أجدادنا القدماء اهتدوا إلى أن حضارتهم بدون قيم.. فاعتقاده أجوف ولا قيمة له.. فكم من حضارات انهارت.. بل وأصبحت نسيًا منسيًّا.. لذا حرص المصري القديم على

وضع مجموعة من القيم والمبادئ التي تحكم إطار حياته.

– فكان أهم ما في وصية الأب للابن قبل وفاته هو الجانب الأخلاقي.. حيث نجد الكثير من الحكماء والكهنة والحكام القدماء يوصون أبناءهم بالعدل والتقوى.. كما كانوا يحرصون على توضيح خلود تلك القيم في عالم الموت.. لذا نحتوا على جدران مقابرهم رمز إلهة العدل «ماعت»، ليتذكروا أن عملهم باقٍ معهم في عالم الخلود.

ويوثق مؤلف «فجر الضمير» بعض أخلاقيات قدماء المصريين في عدة جمل على لسان حكمائهم، فيكتب:

– كانوا يعترفون بفضل الرجل الذي يتخذ العدالة نبراسا له.. وأن فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الظالم.. وأن العدالة خالدة الذكرى تنزل مع من يقيمها إلى القبر، ويذكر اسم صاحبها على مر السنين بسبب عدله.. وأن فضيلة الرجل تكون على أثره.. أما الرجل سيئ الذكر فيُنسى.. وأن العدالة ستعود إلى مكانها والظلم ينفى من الأرض.

يعود ماهر مرة أخرى ليتذكر حديثا طويلا دار بينه وبين السيدة المصرية منى محمد التي جلست بجواره خلال رحلته إلى أمريكا، عندما وجهت إليه عدة أسئلة مهمة منها:

– ما الذي حدث ويحدث لنا ؟!.. لماذا اختلَّ ضميرُنا وضعُفَتْ قوّتُنا وصرنا عبيداً لشهواتِنا؟.. ولِمَ أصبحنا نَرَى الباطلَ حقًّا.. والشرَّ خيرا لا يردعُنا عنه رادعٌ ولا يحجزُنا عن ارتكابه حاجزٌ؟.. ثم كيف تبدل حالنا من: المصري الذي تمسك بالأخلاق وصنع الضمير الإنساني منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد وعلم الدنيا كلها أبجديات الأخلاق الكريمة.. إلى المصري الذي أساء لنفسه قبل أن يُسيء لوطنه.

– المصري الذي تآمر مع العدو ضد وطنه.. المصري الذي باع ضميره بحفنة دولارات أمريكية.. وريالات قطرية.. وشلنات إسرائيلية.. وليرات تركية..

وتمانات (ريالات) إيرانية.. المصري الذي تاجر في أعضاء مرضاه.. المصري الذي تآمر على حضارته وباعها بليل أسود للعدو.. المصري الذي أشعل الحرائق في ممتلكات وطنه باسم الدين، والدين منه ومن أمثاله بريء.. المصري الذي قتل جنود جيشه وشرطته.. المصري الذي فجر وقتل المصلين في مساجدهم وكنائسهم.. المصري الذي كبل نفسه بكل أنواع وأشكال القضايا والمشاكل، فتحولت حياته إلى جحيم لا يُطاق.. المصري الذي سرق قوت أخيه واستعلى عليه وظلمه وحقره وسفهه و....؟!

ويوضح ماهر بمرارة:

– تلك الأسئلة التي طرحتها عليّ السيدة مُنى، لم أستطع الرد عليها حينها، لكن مع الوقت تأكدت أنها أسئلة بحاجة إلى « كنسلتو » من علماء النفس والاجتماع لتشريح سلوك ونفسية بعضنا أو أكثرنا للوقوف على أسباب هذا التغير ومحاولة علاجه قدر الإمكان منذ مرحلة الطفولة المبكرة.. على أن يكون علاجا نفسيا ودينيا وثقافيا ودستوريا وقانونيا واجتماعيا، ويختتم ماهر:

– نحن فعلا بحاجة إلى علاج يُحيي ضمائرنا الإيمانية بالله وكتبه وأنبيائه ورسله واليوم الآخر خيره وشره.. علاج يجعلنا نفضل غيرنا على أنفسنا في المواقف التي تستدعي ذلك بالمال والنفس.. علاج يجعل الانسان منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه.. بل ويعطي لأخيه من ذات يده وجهده ووقته ما يبذله لأهله.. علاج يرتقي بنا إلى مرحلة الجود بالشيء ونحن في أحوج ما نكون إليه محبة وتقربا لله وفي الله.. كل ذلك دون قانون يلزمنا.. أو حكومة تطالبنا به.. أو أجهزة تراقبنا.. أو عقوبة تتسلط علينا.. وإنما نفعله بدافع الضمير والأخلاق وحب عمل الخير والتطوع بالبر ابتغاء مرضاة الخالق عز وجل، كما كان يفعل أجدادنا قدماء المصريين.

■ الفصل الثامن

ليلة العمر

ويُكمل ماهر الكتابة في دفتره من داخل الحجز عن ملخص النقاش المثمر الذي دار بينه وبين سارة أثناء إقامتهما في أثينا:

- للحق أقول بأنني قضيت مع سارة أجمل أيام حياتي في هذه الدولة الجميلة، وخلال هذه الفترة، كانت أستاذتي دائمة التواصل مع عملاء وتجار أنتيكات وعملات وآثار، لتشتري منهم ما يحلو لها ويناسب زبائن معرضنا، وبالطبع كانت دائما وأبدًا تشاركني الرأي في نوعية البضاعة وثمنها قبل أن توافق على الشراء لاعتبارات كثيرة منها: خبرتي التي اكتسبتها منها، ومن خلال عملي مع عملاء المعرض.

ويكشف ماهر عن سر لم يكن يريد تدوينه في مذكراته:

- بصراحة، لقد حدث بيني وبين سارة في أول يوم وصلنا فيه إلى اليونان، داخل الفندق الذي أقمنا فيه، وبذات الغرفة، ما يتم بين الأزواج، ولأنني أخشى الله وأتقيه في كل شيء، فقد ذهبت معها في اليوم التالي مباشرة وتزوجنا بأحد مساجد أثينا، وبنفس المراسم التي أمرنا بها ديننا الإسلامي الحنيف بالنسبة لأهل الكتاب، ثم توجنا الزواج بورق موثق من السفارتين: المصرية والأمريكية بأثينا. وكنا سعداء جدًّا بهذه الخطوة.

أثناء جلوس ماهر مع زوجته سارة في بهو الفندق الذى يقيمان فيه،إذ بأحمد بك يجلس على مقربة منهما، وبإشارات متفق عليها بينهما، فهم ماهر أن أحمد بك يريد التحدث معه، فاستأذن زوجته لدقائق معدودة ذهب فيها لدورة المياه.

داخل دورة المياه، قال أحمد بك لماهر:

– ألف مبروك يا عريس، زواج ميمون، وإن شاء الله تعالى تكون سارة زوجة صالحة ومناسبة لك.

– زوجة، ومناسبة، وصالحة؟!، هو حضرتك لحقت تعرف دي كمان يا افندم؟!

– هههههه، أكيد يا أستاذ ماهر، ده شغلي، وإحنا هنا علشانك، بس انت مش واخد بالك، فأنا كنت في مسجد أثينا وقت زواجكما، كما ذهبت للسفارة المصرية أيضا وقت توثيقك لورق الزواج.

ماهر يغضب و..... :

– يا الله، أرجوك يا افندم، حرام عليك، قول لي إنت عاوز منّى إيه بالضبط وخلصني بقى، لأنى أكره هذا الأسلوب، هذه حياتي الخاصة ولا أسمح لأى من كان أن يمسها.

– مفيش بينا زعل ولا أسرار يا ماهر، ما أنا سبق وقلت لك، مصر اللي عاوزة منك مش أنا، ومع ذلك ما تستعجلش، قلت لك اطمئن، وكل شيء بأوانه، المهم الآن تعرف كل صغيرة وكبيرة عن تجار الآثار اللي بتقابلهم زوجتك، وكل قطعة آثار مصرية تشتريها منهم، وكام سعرها، وهل خرجت من مصر بطرق شرعية أم لا، وتاريخ خروجها، ومن اشترك في خروجها من المصريين والأجانب على السواء، وهل هي قطع مسجلة أم نتيجة عمليات حفر عشوائي، والمنطقة المستخرجة منها، ولو عرفت تصور القطع دي وتجار الآثار و... يكون عملا عظيمًا جدًّا سيكتب باسمك في ملف خاص بجهاز سيادي.

- آاااااه، أشتغل مخبر يعنى، وعلى مين، زوجتي؟!

أحمد بك بلهجة شديدة تحمل معنى الترغيب والترهيب في آن واحد:

- مخبر لبلدك يا ماهر، فوووووق، سارة بتحبك صحيح، واتجوزتك عن قناعة لأنها في النهاية امرأة ولها احتياجاتها الأنثوية ونظرتها للمستقبل، وإحنا لنا دور كبير معاك، لكن رغم كل ده، لم توافق على الزواج منك إلا بعد موافقة مافيا آثار عالمية لأسباب ستعرفها فيما بعد.

- يا خبر أسود، يعنى إيه يا افندم أسيبها وأرجع بلدي، وبلاش ماجستير ولا دكتوراه، و....؟

- لأ طبعًا، بالعكس، هي بتحبك جدًّا زي ما قلت لك، وعمرها ما هتضرك طول ما أنت بتسمع كلامها وتنفذ اللي أصدقائها وأقاربها عاوزينه منك، بالإضافة- طبعا لواجباتك الزوجية هههههه.

- بلاش «تريقه» يا افندم من فضلك.

- والله يا ماهر يا حبيبي، أنا مش بتريق خالص، بس هي دي الحقيقة، وعلى العموم، احذر يبان عليك أي تغيير ناحية سارة بعد كلامي معاك لأنها أذكى بكتير مما تتصور، والآن أسيبك، وإن شاء الله تعالى أشوفك في كاليفورنيا، سلام يا ماهر وخلى بالك من نفسك حبيبي.

انتهى كلام أحمد بك مع ماهر، ثم غادر الزوجان أثينا بعد رحلة عمل ناجحة بكل المقاييس، بعد ذلك يكتب:

- بمجرد وصولنا إلى مطار كاليفورنيا، حاولت الذهاب إلى محل إقامتي، لكن زوجتي سارة أصرت على أن أقيم معها في فيلتها، وكانت فرحتها بي كزوج لا تعادلها فرحة، وبكل أمانة لم أرَ منها غير كل الخير، باستثناء انتمائها العقائدي غير المبرر، ووجدت فيها الزوجة والأخت والأم وكل شيء يجعلني أحبها بصدق.

يتوقف ماهر عن الكتابة قليلا ليدخن سيجارة، ويرتشف قليلا من الشاي داخل فنجانه الخاص المرسوم عليه طفلاه، ثم يستكمل:

– كانت سارة تحرص على إتمام زواجي من خطيبتي ميار، وهذه لفتة وبادرة طيبة وغير عادية منها مقارنة بغيرها من الزوجات، فاتفقت معها على أن أتزوج ميار بمصر في أقرب وقت ممكن، لأجلس معها شهرًا كاملًا في بداية الزواج، وأسافر لها 15 يوما بشكل دوري كل ثلاثة أشهر، حتى انتهائي من رسالة الدكتوراه، وبعد ذلك أعيد تنظيم حياتي مع سارة حسب المستجدَّات التي ستطرأ على حياتي مع ميار مثل وجود أطفال منها أو ما شابه، أما عن سارة، فكانت لا ترغب في الإنجاب كما أكدت لي، ربما لتقدمها في العمر، لكن دائما وأبدا إرادة الله تسبق كل شيء، وهذا ما سيتضح لاحقا.. ويتابع:

– عقب هذا الاتفاق وعودتنا من أثينا إلى كاليفورنيا، سافرت إلى القاهرة، واتفقت مع ميار وأهلها على كل صغيرة وكبيرة بخصوص الفرح، وبفضل الله تعالى ومساعدة سارة لي، استطعت شراء فيلا تمليك في أرقى مكان بمدينة 6 أكتوبر، وحددنا موعد كتب الكتاب والفرح خلال أسبوع من وصولي، وكانت حفلة الزفاف في أفخم فنادق القاهرة، عزمنا فيها كل معارفنا وأحبابنا، فكانت بحق، ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة.

بعد أن قضى ماهر شهر العسل مع زوجته ميار، سافر إلى زوجته الثانية بأمريكا، وهنا يقول:

– للحق كنت أظن أن الغيرة ستنال من سارة مبلغا بعد قضائي شهر عسل مع ضرتها بمفهومنا المصري، لكن وجدت نفسي أمام زوجة مثقفة وراقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقضيت معها يوما جميلا، وفي اليوم الثاني باشرت عملي في المعرض، وفي طريق عودتي لفيلا سارة، فوجئت بأحمد بك أمامي يسألني سؤالا متصنعا بروح مرحة عن قطعة أثرية من مستنسخات الملك توت عنخ آمون.

– عندئذٍ بادلت تصنعه بابتسامة صافية، ثم سلمته كل ما استطعت تجميعه من

معلومات وصور عن صفقة شراء آثار أثينا وأسماء التجار الأجانب و...، وبعد يومين بالتمام والكمال، تقابلنا مرة ثانية داخل مقهي قريب من المعرض، ومن هنا بدأت أفهم طبيعة تجار الآثار ذوي الصلة بزوجتي سارة، ثم بجريدتي فيما بعد، وذلك من خلال التسجيلات التي أطلعني عليها أحمد بك بالصوت والصورة.

وقبل أن يطرح ماهر بعض الأسئلة التي عصرت فكره عن المستجدَّات التي طرأت عليه، عاجله أحمد بك بالنصيحة، كمن قرأ فكره:

– استمر في حياتك يا ماهر بشكل طبيعي جدًّا، لصالحك وصالح مصر، وكأن شيئا لم يكن، وأحذرك مرة أخرى من أي تصرف يجعل سارة تشك ولو 1٪ بأي تغيير من ناحيتك تجاهها.

ونظرا لإقبال العملاء على المعرض، اقترحت سارة على ماهر القيام برحلة ثانية إلى ألمانيا نظرًا لوجود صديقة عمرها هناك، وتدعى ليليان، وهنا يقول ماهر:

– قبل الولوج في تفاصيل هذه الرحلة، دار حوار بيني وبين سارة بعد وصولنا إلى ألمانيا بساعات، داخل منزل ليليان بمدينة ميونخ، عن ثراء متحف برلين بالآثار المصرية المُهربة على يد مافيا الآثار العالمية بتسهيلات من بعض أبناء جلدتنا للأسف الشديد، حينها جُن جنوني وصممت على زيارة هذا المتحف بتشجيع من ليليان، وبالفعل سافرنا من مدينة ميونخ إلى مدينة برلين عبر القطار، ووقفنا أمام مبنى المتحف نتأمله قبل أن ندخله.

– داخل المتحف، بدأت ليليان تشرح لنا تاريخ ونوعية وأصل كل القطع الأثرية الموجودة أمامنا.

وهنا يصف ماهر حيوية وذكاء ليليان:

– كانت هذه السيدة تستعين بمعلومات أرشيفية عن كل شيء له علاقة بالمتحف إذا تعثرت ذاكرتها في شرح شيء تجهله، ففي عام 1828 تم إنشاء صالة خاصة بالآثار المصرية بهذا المتحف، وفي عام 1842 انطلقت بعثة ألمانية إلى

مصر لمدة 4 سنوات، ثم عادت البعثة التي يرأسها لص الآثار كارل ريتشارد ليبسوس بعدد كبير من الآثار إلى ألمانيا، وبالمناسبة قام واليّ مصر آنذاك محمد على بإهداء تلك البعثة حوالى 1500 قطعة أثرية مهمة، ويواصل ماهر:

– للحق، كنت دائما أسأل نفسي بعد كل ما سمعته من ليليان وما قرأته عن آثارنا المنهوبة:

– أين نحن من المطالبة بكنوزنا التي خرجت من أرضنا بليل أسود؟!.. ولأنني لم أتوصل لإجابة شافية عن سؤالي، آثرت أن أترك للأجيال التي ستأتي بعدنا الإجابة عن هذا السؤال، وأنا متأكد أنه سيكون بينهم من سيغار على حضارتنا، ويبدأ في المطالبة بكل قطعة سرقت منها وهربت للخارج، بكل السبل المتاحة وغير المتاحة، ويردف:

– المهم أن هذا المتحف يحوي ثلاثة طوابق، أحدها يضم معروضات من مصر القديمة، ومن أشهرها التمثال النصفي للملكة الفرعونية نفرتيتي، والذي يبلغ عمره 3500 سنة، بالإضافة إلى تحف من بلاد ما بين النهرين واليونان بينها تحف فنية تعود إلى مدينة طروادة وآثار من برلين.

انتهت زيارة ماهر وسارة لمتحف برلين، فبدأ في كتابة مرحلة جديدة من مذكراته:

– بعد مرور بضعة ساعات من وصولنا إلى منزل ليليان، دق جرس الباب، وإذ بأربعة تجار آثار ذوي ملامح إيطالية، تتراوح أعمارهم بين الخمسين والستين عاما، يبدو عليهم أثر النعمة بشكل غير عادي، لديهم عدد لا بأس به من القطع الأثرية المصرية والعراقية والسورية واليمنية والفلسطينية النادرة داخل أربع حقائب جلد من الحجم الكبير، عرفت من خلال حوار سارة وليليان معهم أنهم يتبعون تجار آثار أمريكان وعلى علاقة وطيدة بعائلة روتشيلد، وما هي إلا دقائق معدودة حتى اشترت سارة بضاعتهم بالكامل مقابل شيك بمبلغ كبير جدًّا.

هنا بادرت سارة بسؤال ماهر إذا كانت البضاعة قد أعجبته أم لا، فيجيب ماهر:

- أعجبتني وبس حبيبتي، دي تجنن، مش ممكن يكون فيه شيء أروع من كده!!

- طيب حبيبي الحمد لله، المهم تكون فاهم القيمة التاريخية لهذه الآثار، لأن هذه المعلومات مهمة جدًّا، وستحتاجها في وقت ما سأخبرك به في حينه.

- على الرحب والسعة حبيبة عمري.

تتدخل ليليان في الحديث بين الحبيبين من باب الدعابة، وخلق جو من المرح، فتقول:

- عيني يا عيني، خلوا شوية لبكرة.

تبتسم سارة بدلال كمن تتعمد القيام بدور ليدي ديانا مع عشيقها دودي الفايد حتى تكيد صديقتها:

- بلاش حسد حبيبتي، أنا بدون زوج بقالي 25 سنة، وما صدقت لقيت حبيب عمرى ماهر الجميل.

تضحك ليليان بعد أن ترمق سارة بنظرات «المتصابيات فوق الخمسين» وترميها ببعض المصطلحات الأنثوية إياها، ثم تحول نظرها إلى ماهر:

- والله وعرفت تنقي يا عريس، مال وجمال ومركز اجتماعي، يعني أنت ضمنت رسالة الدكتوراه كمان، داعية لك يا سيدي هههههه.

بعد أن قضى ماهر وقتا جميلا مع سارة وليليان قال:

- انتهت زيارتنا لألمانيا التي امتدت خمسة أيام رائعة، عدنا بعدها ببضاعتنا بعد أن حصلنا على خطاب من الجهات الألمانية المعنية بسفر هذه الكنوز معنا. في بيتنا

بكاليفورنيا نظرت إلى الكنوز، وتأكدت أنها لا تقدر بثمن، عندئذٍ قمت بتصويرها كاملة، وكتابة بعض المعلومات عنها وعن تجار الآثار الألمان، وسلمت كل ذلك لأحمد بك، ويواصل:

– ولأنني كنت مبهورًا بأوروبا وحضارتها وتقدمها و.... فقد سعيت مع سارة لرحلة أخرى إلى فرنسا، عندئذٍ ابتسمت سارة وهي تلتقط هاتفها المحمول لتتحدث مع أحد الأشخاص في باريس، وتطلب منه تنظيف فيلتها خلال أسبوع. بعد انتهاء المكالمة زادت ابتسامتها، نظرت إليَّ وأقبلت ناحيتي تحتضنني بشوق ما بعده شوق، وبدأت تقبلني، وتقول:

– جهز نفسك حبيبي، هنقضي أسبوع عسل جديد في باريس خلال يومين من الآن.

– شكرت سارة جدًّا على كل وأي شيء تقوم به ويكون فيه سعادة لي ولها، في مطار باريس استقبلنا شخص غريب الأطوار، اتضح فيما بعد أنه خال سارة، كانت تناديه بـ« الخال كوهين»، قدمتني سارة لخالها، بشكل راقٍ جدًّا كزوج وصديق وشريك عمل، رحب بي الرجل بكلمات راقية جدًّا، لكن تقاسيم وجهه ونظرته لي كان بها غير ذلك تماما، استقللنا سيارته، وما هي إلا ساعة زمن حتى وصلنا إلى فيلا في ريف باريس تعود ملكيتها إلى والدة سارة. بعد استراحتنا يومًا كاملاً قضيناه (حب في حب).. سألت سارة إن كان بالإمكان زيارة المسلة المصرية بميدان الكونكورد ومتحف اللوفر.

– بكل تأكيد حبيبي، غدا إن شاء الله تعالَى من الصباح المبكر.

– في الموعد المتفق عليه زرنا أولاً الميدان لنشاهد مسلة رمسيس الثاني شامخة كشموخ وعظمة حضارتنا وتاريخنا العظيم منذ ما يقرب من الـ 180 عامًا، مكتوباً عليها «رمسيس قاهر كل الشعوب الأجنبية، المحارب العظيم الذى هزم الملايين من الخصوم والأعداء والذى خضع العالم كله لسلطانه ذو القوة التي لا تُقهر».

حينها قال ماهر لسارة:

– تخيلي حبيبتي أن هذه المسلة خرجت من مصر «الأقصر» دون وجه حق – سرقة يعني – إلى باريس بعد رحلة شاقة استغرقت ما يقرب من السبع سنوات ليتم زرعها في الميدان الأفخم والأهم في العاصمة الفرنسية!!

– آاااااه.. ما شاء الله عليك يا ماهر، ده أنت على كده بقيت خبير آثار، والله حبيبي أنا بقيت خايفة عليك ومنك بعد خبرتك الكبيرة دي في الآثار ومعرفتك بتجارها وأسرارها.

– ليه بتقولي الكلام ده يا عمرى؟ أنا تلميذك وجوزك.

– كل ده كويس، بس أنا برضه خايفة تتغير لما تاخد الدكتوراه بعد عامين على الأكثر وتسافر لمصر جنب ميار وتحلالك الدنيا في جامعة القاهرة وتنسى سارة اللي.....

– بلاش الكلام ده يا عمري، بلاش تقولي كده، هي في مكان وأنت في مكان، وأنا أهووووه، معاك على طول، وميار يادوب باسافر لها 15 يوم بس كل 3 شهور، وبالمناسبة نسيت أفرحك بخبر حلو.

– خير يا قلبي، قول بسرعة.

– ميار خلفت لنا طفلًا جميلًا.

– والله العظيم؟!، يا ألف مبروووووووك حبيبي لوووووووووووولي، طيب بعد ما نخلص رحلتنا، لا بد تسافر لها، ومن الآن لازم أشترى لـ«ضرتي» حبيبتي (هههههههه) شوية هدايا حلوين، أما ابني حبيبي، ابن ماهر جوزي، هديته هتكون مفاجأة.

– الله يكرمك يا أغلى من عمري، أنا مش مصدق نفسي والله، انت اللي بتقولي كده يا سارة؟!

– إخص عليك حبيبي، إنت جوزي، وابنك يبقي ابني، وزوجتك تبقي أختي، يا ماهر يا حبيبي، بلاش تخلي الديانة والجنسية حائل بينا، كلنا ولاد حوا وآدم، هكذا علمني والدايَّ، وهكذا ورثت عنهما الكثير من صفاتهما الحسنة وعشقهما لمصر وأهلها. وقبل وبعد كل ده، فأنا وزوجي حبيبي واحد، فهمت؟!

ماهر ينظر لسارة وفي رأسه ألف سؤال وسؤال عن التناقض الرهيب بين انتمائها المتعصب لعقيدتها وبني جنسها وكلامها عنهم، وبين ما تتحدث به في تلك اللحظة عن إيمانها بعدم الفوارق بين الأديان والأجناس و.... بعد لحظات من التفكير يرد:

– يا الله عليك سارة، إيه الكرم ده كله؟؟!!... يا ربي!!!

– يا ماهر يا عمرى، إن شاء الله، بس يكبر ابنك شوية، و«نجيبه» يدرس هنا في أمريكا.

بعد هذا الحوار بين سارة وماهر، استكملا قصة الفرعون سيد البنائين رمسيس الثاني (1224 وحتى 1290ق.م).. رغم بغض سارة الشديد لهذا الملك العظيم، وكأنه يتعمد مضايقتها، ولسان حاله يؤكد تفاخره بحضارة أجداده، مثلما تتفاخر هي بأجدادها، فقال ماهر:

– تعرفي حبيبة قلبي، لم يكن يدور في خلد هذا الإمبراطور المصري وهو يُعطى تعليماته لكبير مهندسي الإمبراطورية المصرية العظمى بتشييد إبرتين عظيمتين (مسلتين) لوضعهما في مدخل معبد الأقصر عام 1280ق.م، أن ينتهي المطاف بإحداهما في فرنسا عام ١٨٣٦، وهذه المسلة كما تشاهدين من الجرانيت الوردي ويبلغ ارتفاعها 22.55 متر، ووزنها حوالى 227 طنًّا، حيث إن بداية هذه اللصوصية كانت مع غزو الأوروبيين لمصر بعد حملة نابليون بونابرت عام ١٧٨٩ علينا، ووصول المستكشفين والباحثين الغربيين ولصوص الآثار إلى بلادنا، ويكمل:

– وبذلك أصبحت مصر وآثارها حديث علية القوم والصالونات الباريسية، كما تزامن ذلك مع ظهور اللص شامبليون (صاحب التمثال الحقير الذى يضع قدمه على رأس سيده رمسيس الثاني)، وادعائه الكاذب بأنه هو من فك رموز اللغة الهيروغليفية القديمة، في حين يؤكد أساتذة المخطوطات في مكتبة الإسكندرية أن عالمنا الفذ ابن وحشي النبطي هو صاحب هذا الاكتشاف وليس شامبليون، كما حاول محمد على بعد توليه الحكم أن يبنى مصر الحديثة باستعانته بالأوروبيين، وخاصة الفرنسيين منهم.

– وذلك من خلال رشوتهم لمآرب شخصية تُؤمن له حكمه بالهدايا الدبلوماسية التي بدت أسطورية وغريبة في حينها، فمرة يهديهم زرافة، وأخرى يهديهم مسلاتنا، ويشهد التاريخ على إهداء هذا الوالىّ كلاً من: فرنسا وإنجلترا الدولتين الأقويين في ذلك الوقت (إبرتين) مسلتين فرعونيتين عظيمتين، مع عدم إنكارنا لدوره العظيم في جوانب أخرى لرفع شأن مصر.

سارة تبدو متوترة وعصبية بعض الشيء، لكنها استطاعت أن تسيطر على نفسها:

– لحظة حبيبي ماهر، عندي كام ملاحظة على خلطك للأمور، أولا: رمسيس الثاني هو من أخرجنا من مصر بعد أن أهاننا وشتتنا في أرض سيناء، أي أنه ليس عظيما كما قلت، ثانيًا: أنت بتقول إن شامبليون اللي فك رموز حجر رشيد لص و.....

ماهر متفاخرا بعد أن ثأر لنفسه وأجداده، فيقول:

– بعد أن كشفت لي سارة عن مكنون نفسها خلال حديثها عن رمسيس الثاني، تذكرت على الفور كلام أحمد بك وتحذيره لي من الانزلاق مع سارة في أي مهاترات تاريخية أو أثرية خشية عواقب الأمور، لحظتها التزمت الصمت المصطنع، واكتفيت بحديثي عن لصوصية شامبليون، وقلت لسارة:

- نعم شامبليون لص، ولص كبير.

تعود سارة لتكرار محاولة ترويض ماهر دون جدوي:

- حبيبي بلاش تخلي وطنيتك المفرطة وحبك لمصر سبب في خلط الأمور ببعضها.

هنا يعطي ماهر هدنة لنفسه لتجنب أي صراع مع زوجته خشية أمور كثيرة فيوضح:

- اضطريت هنا أن أنهي حديثي مع سارة بابتسامة مصطنعة، وصرخات داخلية كانت تزلزل كياني من كلامها عن رمسيس الثاني، ولكنني سأدون هنا في مذكراتي ما كان يجب عليَّ قوله لسارة، فما جريمة نقل مومياء أعظم ملوك الأرض قاطبة «رمسيس الثاني» من متحف التحرير إلى فرنسا، لإجراء تحاليل عليها والتأكد من أنها لفرعون الخروج أم لا- إلا خطوة خبيثة في سيناريو أكثر خبثًا من الجانب الصهيوني؛ لأسباب عديدة، ويكفي ما كشفه في تلك الواقعة الصهيوني موشيه ديان – وزير الدفاع الإسرائيلي – عندما أصر على أنْ يزور مومياء رمسيس الثاني في مستشفى باريس، حينها نقر على أصابع قدميه بعصا المارشالية، ويتابع:

- حينها قال «ديان» لملك مصر في باريس بكل حقد اليهود:

-«أخرجتنا من مصر أحياءً، وأخرجناك منها ميتًا».. ووصلتْ ذروة المأساة في التقرير المصوّر بالتليفزيون الفرنسي ومدته 20دقيقة، أن ظهرتْ تلك المومياء عارية تمامًا بعد أنْ نزعوا من عليها اللفائف الكتانية التي كانت تحميها، وكان المذيع الفرنسي شديد التعصب لخرافات بني إسرائيل حينما قال للمشاهدين: «إليكم فرعون مصر الشهير، إليكم ملك ملوك الفراعنة، إليكم الملك رمسيس الثاني، إليكم الفرعون الذي طارد اليهود قبل ثلاثة آلاف عام..... إلخ ».. ويكمل ماهر:

هذا التقرير المصوّر في تليفزيون فرنسا، هزّ ضمير الشعب الفرنسي

وخصوصا فئة المثقفين ، وذلك عندما توجه عدد كبير منهم إلى سفارتنا في باريس ليسجّلوا رفضهم واستنكارهم لهذا العمل المُشين الذي أساء إلى شخصية تاريخية عظيمة، يتقدمهم عالمة المصريات كريستين نوبلكور.

ويواصل الفرعون الصغير حديثه، فيؤكد:

– لقد أوضحت ذلك هذه العالمة في كتابها عن رمسيس الثاني الذى طُبع منه مليون نسخة بعد صدوره بأسابيع أنّ «التوراة ظلمتْ رمسيس الثاني وكل ما قالته عنه غير صحيح، ثم ظلمتْ مصر والمصريين.. وأنّ التوراة كتاب مليء بالقصص والحكايات التي جُمعتْ من هنا وهناك، وأنها لا يمكن أنْ تُعد وثيقة تاريخية، وبصفة خاصة بالنسبة لمصر»، وأضافتْ العالمة الفرنسية :«إنني أرفض الافتراء على التاريخ وعلى الملك رمسيس. وإنّ الادعاء اليهودي على الملك رمسيس الثاني محض افتراء وليس له أي أساس من الصحة».

ويدون ماهر كتابة مذكراته على لسان عالمة المصريات الفرنسية:

– كما أنّ سِفر الخروج يُشير إلى وقائع لا يوجد لها أي أثر في كل ما وجدناه من كتابات ونقوش مصرية، على الرغم من أنّ هذه الكتابات والنقوش كانت ترصد تفصيلات صغيرة جدًّا لا تُقارن بخروج مئات الآلاف من البلاد، فهناك في سجلات الحدود تسجيل لكل حركات المرور عبْر الحدود، حتى إنّ راعيًا ومعه 40رأس غنم يعبر الحدود كان عبوره يُرصد ويُسجّل. وإذا كنتُ في كتابي عن رمسيس الثاني قد تحدّثتُ عن خروج اليهود من مصر، فقد فعلتُ ذلك للأمانة العلمية. إنّ واجب عالِم المصريات أنْ يقول رأيه بأمانة، وكل ما تقوله التوراة بأنّ المصريين كانوا يُسخّرون اليهود لضرب الطوب، يجعل أي دارس لتاريخ مصر القديمة يبتسم. وأنا أرفض تمامًا الافتراء على التاريخ لإدانة فترة أو زمن بعينه.

يعود ماهر لاستكمال حواره مع سارة، فيقول لها:

– أيتها الملكة العظيمةكليوباترا رومانية الأصل ومصرية النشأة والهوى،

هههههه، لم يكن قدماء المصريين قساة، – بحسب عالمة الآثار الفرنسية كريستين نوبلكور – عندما قالت:

– إن الساميين الذين كانوا يفدون إلى مصر للعمل بها كانوا يعيشون حياة هانئة. هذه هي حقائق التاريخ الثابتة. إنّ الشعب المصري يتمتّع بحكمة هائلة لا أجدها في الشعوب الأخرى. كما يتمتّع بنظرة فلسفية للأمور. وعندما أرى أفلامًا مثل فيلم «الوصايا العشر» إخراج الأمريكي سيسل دي ميل، تُصوّر المصريين وهم يدوسون فوق رقاب العبيد الساميين، أشعر بالغضب. فهذا كذب وافتراء.

– مرة أخرى تفشل سارة في التصدي لانتقاد ماهر، فتركته يهزي بحسب ادعائها، فقال:

– سيدتي الكريمة وأستاذتي وزوجتي وحبيبة عمري، هذا هو رأي عالمة مصريات فرنسية عن أجدادنا. وقد ذكرتْ أيضًا أنه عند نقل تابوت الملك رمسيس الثاني إلى مركب بالنيل يتّجه به إلى القاهرة «وقف المصريون على الشاطئ عند الأقصر وكأنهم يُشاركون في جنازة عصرية، فالنساء يولولنَ من الحزن وينثرنَ الغبار على شعورهنَ. والرجال يُطلقون النار من البنادق»، ويردف:

– وعالمة الآثار الفرنسية راعت ضميرها المهني والإنساني حتى تكشف الحقيقة رغم ما تعرضت له بعد ذلك من مضايقات على أيدي أعداء التاريخ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد. بل تعداه بمراحل عندما ارتكب الفرنسيون جريمة لا يمكن أن يغفرها لهم التاريخ، وذلك بعد أن اكتشفت سفارتنا بباريس إعلانا إلكترونيا يعرض عينات من شعر مومياء الملك المصري العظيم رمسيس الثاني مع بقايا من المواد الراتنجية التي تعرضت للدراسة والتحليل المعملي في فرنسا على يد الجراح الصهيوني «بوكاي» عام 1977، حينها بذلت سفارتنا جهدًا عظيمًا في استرداد تلك العينات عن طريق الإجراءات الرسمية، وأعادتها إلى مصر، وهي الآن بجوار مومياء الملك في متحف التحرير.

ينتهي ماهر من تسجيل أخطر المعلومات عن رمسيس الثاني، مؤكدا أن

فرعون الخروج كان هكسوسيا بحسب القرآن الكريم وخبراء: التاريخ والآثار المصريين والأجانب.

بعد ذلك ينتقل ماهر للحديث عن زيارته إلى متحف اللوفر مع سارة التي ضاقت به ذرعا، فكتب يقول:

– بعد يوم واحد من هذه الزيارة، توجهت مع سارة إلى متحف اللوفر، حيث يحوى المتحف العديد من الآثار الشرق أوسطية، والتي قام الأوروبيون بسرقتها خلال حملاتهم الاستعمارية على مدار القرون الماضية، ومن خلال قراءتي بعض المعلومات عن قدرة الفرنسيين على سرقة كل هذه الكنوز من الدول التي احتلوها، علمت أنه في الفترة بين 1852–1868 وصل لهذا المتحف ما يقرب من 9000 قطعة من تماثيل ومنحوتات وأوعية ذهبية وقطع محنطة عديدة من مصر.

– وقد تمت سرقتها أثناء البعثات الأوروبية التي كانت مكلفة باكتشاف الآثار المصرية، ويتم عرضها آنذاك في المتحف، حيث يوجد به قسم الشرقيات ومصر القديمة والحضارتين اليونانية والرومانية، ويتابع:

– كما ينقسم القطاع الخاص بالآثار المصرية إلى 19 غرفة بمتحف اللوفر والذى تم تدشينه عام 1826، وهو فكرة شامبليون بعد أن عاد من مصر إلى فرنسا بسرقة مجموعة قيمة من آثارنا، ومن أبرز الآثار المصرية بمتحف اللوفر قناع نفرتيتى الذهبي، تمثال الكاتب الجالس، تمثال رمسيس الثاني، وتمثال لإخناتون، وتمثال لأمنحتب، ويردف أحمس الأول:

– طوال خمس ساعات ونصف الساعة، استمتعت فيها مع سارة بمشاهدة كل قطعة داخل متحف اللوفر، أثناء عودتنا للفيلا، اتصلت سارة بخالها كوهين فيكتور، لتسأله عن إعداد كل شيء يخص المناسبة السعيدة.

ماهر يسأل سارة:

- مناسبة إيه خير حبيبتي؟

- يووووه يا ماهر، مشكلتك حبيبي إنك بتنسى بسرعة، النهار ده إيه يا عمري؟!

يخبط ماهر بيده على جبهته:

- أخخخخخ، عيد ميلاد حبيبة قلبي وعمرى وروحي و.....

- هههههه، بكاااااااااش كبير، يا حفيد الفراعنة، فين هديتي بقى؟

- حالًا يا عمري، اسبقيني على الفيلا، ونزليني أول الشارع اللي جاي، وخلال ساعة بالكتير هكون عندك.

- أوك حبيبي، ما تتأخرش عليَّ، النهار ده سهر للصبح، اعمل حسابك.

- الله، الله، أحبك يا سارة.

- مش قلت لك بكاااش يا حبيبي، يلا انزل وما تتأخرش عليَّ.

داخل محل مجوهرات قريب من فيلا والدة سارة، اشترى ماهر لها عقدا من الألماس يليق بمستواها وكرمها الزائد معه، وأثناء خروجه من المحل، فوجئ بأحمد بك يقول له:

- حمد الله على السلامة يا ماهر.

- الله يسلم عمر معاليك يا افندم، هو حضرتك مقيم فين بالضبط؟ اليونان ولا ألمانيا ولا فرنسا و...؟

- هههههه، في كل دول يا سيدي، أعمل لك إيه بس؟ ما هو أنت وحبيبتك سارة، أقصد زوجتك مدوخيني وراكم، المهم عيد ميلاد سعيد لسارة.

- كمان عرفت يوم عيد ميلادها يا أحمد بك؟!

- أكيد يا ماهر، لازم نعرف كل صغيرة وكبيرة عنكم، ده شغلنا حبيبي، المهم

قدرت تحصل على أي معلومات عن آثارنا هنا، خاصة غير المسجل منها، وتجار الآثار الفرنسيين و....؟

- لا والله يا أحمد بك، مافيش حاجة ظهرت «أدامي» لسه.

- طيب حبيبي، اليوم احتمال كبير يزوركم في فيلا والدة سارة عدد من تجار الآثار بصحبة خالك، هههههه أقصد خال سارة كوهين فيكتور، ببضاعة مصرية نادرة، وخلى بالك من الراجل ده.

- فيه إيه أحمد بك؟ فهمني يا افندم من فضلك.

- بلاش تتكلم مع خال سارة في أي معلومة تخصك، ولو اضطريت، اكذب عليه، يلا أسيبك دلوقتي، في رعاية الله.

بعد هذه المقابلة ذهب ماهر للفيلا، واحتضن سارة الزوجة والحبيبة والشريكة بكل حب وشوق، وقال لها:

- غمضي عينك حبيبتي.

- حاضر يا قلبي، أهووووه، يا تري جبتلي إيه يا ماهر؟

في هذه اللحظة، يحتضن ماهر سارة من الخلف، ليعلق بيديه الحانيتين في رقبتها عقدا من الألماس، ويقول لها:

- اصبري على رزقك يا عمرى، هاتي ايدك عند رقبتك لتلمسي بيها الهدية.

سارة تفتح عينيها على هدية ثمينة من ماهر، تقول له:

- الله، رائع يا قلبي، بكام ده يا ماهر؟.. ده غالي جدًّا حبيبي.

- يا روحي، مافيش حاجة تغلى عليك يا عمر العمر.

- موووووه... موووووووه... مووووووووه، ميرسى حبيبي، يلا بقي نطفي الشمع، ونقطع التورتة. و.....

– و..... إيه حبيبتي؟

– هههههه..... كل حاجة، وحشتني أوي.

يصف ماهر هذه اللحظات، فيقول:

– بكل أمانة، قضينا يوما جميلا، لا يحسب من العمر كما يقولون غالبا عن الأوقات السعيدة. وفي العاشرة صباحا رن جرس الباب، دخل كوهين فيكتور بصحبة خمسة تجار آثار، ومعهم من كنوزنا ما لا يتصوره العقل، رحبت سارة بخالها وأصدقائه، وبدءوا في فحص وتسعير البضاعة، وما هي إلا ساعة بالضبط، حتى كتبت سارة لهم شيكا بمبلغ كبير جدًّا، وتركوا البضاعة وذهبوا إلى حيث أتوا دون كوهين الذي انفرد بابنة شقيقته لمدة 30 دقيقة تقريبا، يتحدث معها بصوت منخفض جدًّا، وعيناه مسلطتان عليَّ، وكأنني جاسوس عليه أو عدو له!!، ويردف:

– لم أرغب في خلق مشاكل معه، أو لفت انتباهه لأي شيء، وتصنعت اللامبالاة حتى «غاااار» في ستين «.....». بعد ذلك أمسكت سارة بيدي وهي فرحة من ثمار ليلة أمس، وما دار بيننا فيها من «.....» ثم أطلعتني على البضاعة الجديدة، وكعادتها سألتني عن رأيي فيها.

– جميلة جدًّا يا قلبي، ما اظنش فيه حاجة أجمل من كده.

■ الفصل التاسع
مهام استخباراتية

بعد خمسة أيام بالتمام والكمال عاد ماهر وسارة إلى أمريكا، وكالعادة وضع ماهر عددا من القطع التي اشترياها من باريس في معرضهما، والباقي احتفظا به كأمانة داخل بنك كبير مخصص لحفظ مثل هذه الكنوز، قريب جدًّا من المعرض.

ويتذكر ماهر شيئا مهما، فيقول:

– آاااه، نسيت أقول حاجة مهمة، سارة كانت تستعين بحرس خاص من إفريقيا أيضا لتأمين المعرض على مدار الساعة، بنفس مواصفات حارسي فيلتها، ولم تكن تفتحه في الأيام التي نسافر فيها هنا أو هناك، وخلال أسبوع من وصولنا أمريكا، زارني في المعرض أحمد بك، بحجة أنه زبون دائم، وكان بالفعل يشترى بعض الأنتيكات رخيصة الثمن، تفاديا لأي شبهة حول زياراته المتكررة لي، وعلى الفور سلمته كل المعلومات والصور الخاصة بصفقة آثار فرنسا، ويتابع:

– بعد ذلك بأيام قليلة فوجئت بسارة تعطيني تذكرة سفر إلى القاهرة، وشنطة كبيرة جدًّا، بداخلها هدايا من كل شكل ولون لأسرتينا أنا وميار، ثم مظروف به شيك بملغ 100 ألف دولار لمولودي الجديد!! وتطلب مني مرافقتها إلى مطار لوس أنجلوس. تأهبا لركوب الطائرة المتجهة إلى القاهرة، نظرت إليها واحتضنتها

لمدة تزيد على الربع ساعة تقريبا في مشهد غرامي يندر رؤيته في: هوليوود وبوليوود معا، ثم استجبت لها، وكانت ممنونة جدًّا لسعادتي، بل وتوصيني بزوجتي وأهلها وأهلي كل الخير.

يعتصر ماهر ذاكرته مجددا في الكتابة عن سفره إلى القاهرة، فيقول:

– داخل الطائرة المتجهة إلى القاهرة اتصلت بدكتورة زوزو لتنتظرني في المطار حتى أهديها وزوجها بعض الهدايا التي سبق وطلباها مني، وهي عبارة عن كتب لحضارتنا بعدد من لغات العالم، وبالفعل استقبلاني في مطار القاهرة وأهديتهما عددًا لابأس به من هذه المؤلفات، فشكراني وأصرا على مرافقتي بسيارتهما حتى باب فيلتي في مدينة 6 أكتوبر ثم ذهبا إلى عملهما.

يقف ماهر أمام باب فيلته ويطرق الباب، وإذا بكل أفراد أسرته وأسرة زوجته في انتظاره بناء على تليفون مسبق منه بموعد وصوله:

– بعد أن صافحتهم جميعا، وسلمتهم هداياهم، فرحوا بها جدًّا، وكانت هدايا ثمينة للغاية، عبارة عن «حلقان وأساور وخواتم من الذهب عيار 24»، إضافة لبعض الملابس الجميلة، أما شيك مولودي فسلمته لزوجتي ميار لتضعه في البنك باسمها لحين أن يحتاجه طفلنا، فكانت سعادة ميار لا توصف بهذا المبلغ، بعد أن تأكدت أنه مكافأة من سارة نظير عملي في المعرض.

طوال هذه الإجازة لم يترك ماهر ميار وطفلهما، منحهما كل حبه وعطفه عوضا عن فترة غيابه عنهما، ويوضح:

– من المفارقات الغريبة أن أحمد بك طلبني هاتفيا من أمريكا ليهنئني بسلامة الوصول ويوصيني بزوجتي ميار ومولودي، كما أوصاني أيضا بضرورة زيارتي لأساتذتي وزملائي بجامعة القاهرة، وقد كان، وانتهت الإجازة بسرعة جدًّا!!.

– وعدت إلى سارة وإلى دراستي وعملي بالمعرض، واستمررت على هذا الحال، متنقلا بين مصر وأمريكا حتى حصلت على درجة الدكتوراه بامتياز مع

مرتبة الشرف بفضل الله تعالي، ثم وقوف سارة بجواري وصبر ميار على غيابي عنها، وفي المقابل كان الله قد رزقني بمولودي الثاني، فأصبح عندنا نادر ونادية، وكانت هدية سارة لي بمناسبة حصولي على الدكتوراه عبارة عن رحلة 15 يوما إلى بريطانيا.

يسترسل ماهر في الكتابة عن هذه الرحلة، فيقول:

– سافرنا بالفعل إلى لندن، وكان في استقبالنا بالمطار شقيق سارة الأكبر، بنيامين (57 عاما، طويل القامة، نحيف لدرجة ملحوظة، وأنيق جدًّا، يشبه إلى حد بعيد في ملامحه شقيقته سارة، وفي دمه وروحه وجيناته سمات أجداده).. كالعادة قدمتني سارة إليه كزوج وشريك عمل أمين، رحب بي بنيامين بشدة، وطوال الطريق ظل يتذكر أيامه الجميلة التي قضاها مع والديه وشقيقته بين المصريين بالأقصر، ثم يوصيني خيرا بشقيقته، فما كان منى إلا أن أثنيت عليها وعليه كذلك، كما وعدته ببذل كل جهدي لإسعادها. بعد وصولنا شقة بنيامين استأذن شقيقته حتى تأخذ راحتها مع زوجها (هكذا سمعته يقول لها).. فكان ردها عليها بضحكة رزينة، ثم قالت له:

– إنت كده، طول عمرك يا بنيامين، ما بتتغيرش أبدا، شقي.

بعد أن قضي ماهر ليلة جميلة مع زوجته بشقة شقيقها قال:

– في تمام الثامنة صباحا، حضر بنيامين، وطلب اصطحابنا إلى نزهة لتناول الطعام في أشهر مطاعم لندن، ذهبنا معه، وقضينا وقتا جميلا، بعد ذلك اتجهنا لزيارة المتحف البريطاني، وهناك فوجئت بأحمد بك كزائر للمتحف، ابتسم لي من بعيد وأومأ برأسه، في إشارة منه إلى أنه هنا، رددت عليه بأفضل مما بادلني، ويواصل:

– ولأنني كنت متعطشا لمشاهدة ما حصل عليه الإنجليز من آثارنا منذ حكم محمد على وأولاده وأحفاده لمصر بواسطة بعض الأجانب العاملين في سفارات

بلادهم بمصر مثل: برناردينو دروفيتي قنصل نابليون في مصر، وكان له دخل كبير في أحداث سياسية أثرت في تشكيل تاريخ تلك الفترة.. وهنري سولت الدبلوماسي الإنجليزي، الشهير باهتمامه بجمع الآثار المصرية القديمة وبيعها لمختلف متاحف العالم أثناء فترة عمله في مصر كقنصل عام للمملكة المتحدة في الفترة ما بين 1815 و1827 وجوفاني باتيستا بلزوني الإيطالي الذي سرق رأس ميمون الصغير وباعه للإنجليز كما هرب مئات القطع الى العديد من الدول التي تدفع له أكثر.

ويتابع ماهر كتابة مذكراته بمرارة عن كنوزنا التي نهبت وهربت إلى بريطانيا:

- المهم أنني تجولت مع سارة وبنيامين في هذا المتحف، كونه الأكبر والأشهر في المملكة المتحدة، وأحد أهم المتاحف في تاريخ وثقافة البشر، حيث يعتبر أقدم المتاحف الذي تأسس عام 1753 اعتماداً على مجموعات العالم الفيزيائي السير هانز سلون وغيره من لصوص الآثار، افتتح في 15 يناير، 1759 في بلومزبري، في نفس مكان المتحف الحالي.

ويسترسل الفرعون الصغير في شرحه ووصفه للمتحف البريطاني:

- وضعت العديد من التحف أسفل المتحف بسبب ضيق المساحة، قرب نهاية القرن 19 نشط المتحف في نشر الكتالوجات العلمية وبالتحديد في عام 1888. ومع مرور الوقت تزايدت مجموعات المتحف البريطاني بشكل كبير وكان من اشهرها تلك المجموعة المصرية التي استولى عليها الإنجليز بعد انتصارهم في موقعة أبوقير البحرية على الفرنسيين وأهم ما فيها بالطبع حجر الرشيد، وتضم مكتبة المتحف العديد من الكتب القديمة والمخطوطات النادرة المطبوعة والخطية، فبعد انتصار الإنجليز على الفرنسيين بدأ الأسطول الإنجليزي يراقب الأسطول الفرنسي، ويردف:

- ومن ثم تم القضاء علي آمال فرنسا في تكوين إمبراطورية فرنسية، وكان من ضمن شروطها أن يسلم الفرنسيون كل القطع الأثرية المصرية للإنجليز ومن بينها

حجر رشيد، ويضم المتحف: القسم المصري والقسم الآشوري والقسم اليوناني الروماني والقسم البريطاني وغيرها من آثار العصور الوسطى وآثار أخرى من الشرق الأدنى، هذا بالإضافة إلى متعلقات علم السلالات البشرية وعلم الحيوان وعلم النبات وعلم الجيولوجيا وعلم المعادن.

بعد زيارة ماهر وسارة للمتحف البريطاني، كتب يقول:

– عندئذٍ نصحنا بنيامين بزيارة متحف شيفلد في أطراف بريطانيا لسبب لم أدركه إلا بعد أن رأيت ما رأيته!!، في الحقيقة ما شاهدته في هذا المكان، أشبه بالجريمة مكتملة الأركان، لا والله بل هي جريمة فعلًا ارتكبها رجال الآثار بحق كنوزنا الأثرية، وهو الأمر الذي اطلعت عليه بعد ذلك في تقرير منشور بجريدة مصرية يومية أرسلته لي «المصرية» التي قابلتها وأسرتها في أمريكا، السيدة مُنى محمد عبر الإيميل، تحت عنوان «هل تنازلت الآثار عن 1500 قطعة نادرة لمتحف شيفلد البريطاني»؟!، وفي مقدمة التقرير يقول مسئول أثري كبير :

– لو أعادت لنا المتاحف العالمية آثارنا التي في الخارج، فسيشكل هذا الأمر مأزقًا مربكًا لمصر، لأنه يوجد لدينا في الخارج آلاف القطع في المتاحف العالمية الكبرى، ويجب علينا أن نفتخر أن آثارنا موجودة ومعروضة بصورة لائقة ومشرفة في أكبر المتاحف العالمية، وهذه القطع الفنية لا يُقال عنها آثار بريطانية أو فرنسية أو ألمانية أو أمريكية، بل يقال عنها آثار مصرية!!.

ويتحسر ماهر لما أصاب مصر على يد أحد أو بعض مسئوليها، فيقول:

– بصراحة لم أجد كلمات مناسبة للرد على هذا العبث، الذي أدلى به مثل هذا المسئول لبلد عظيم مثل مصر الذي يُسرق وتُعرض آثاره في متاحف العالم دون أن يُحرك هذا الشخص أو غيره ساكنًا.

ويواصل ماهر كتابة مذكراته عن زيارته لمتحف شيفلد:

– على أي حال إن كان هذا المسئول يعلم فتلك مصيبة، وإن كان لا يعلم

فالمصيبة أعظم، والسؤال الذي يطرح نفسه:

– هل قرار هذا المسئول الأثري أو من يليه آنذاك بعدم عودة آثارنا من بريطانيا كان قرارًا شخصيًا، أم أن الأمر كان متفقًا عليه ، كسياسة عامة للنظام آنذاك؟!.. لذا فهناك من يعتقد أن هذا الفرض يتفق كثيرا مع إجابة الأثري المسئول بالأمر، والذي اعتبر أن الإبقاء على آثارنا بالخارج وعدم المطالبة بعودتها بمثابة دعاية لها!!

ومن نافلة القول في هذه القضية – هكذا يكشف ماهر:

– أن مندوبا من المجلس الأعلى للآثار قد أوفده المجلس لمناقشة هذا الملف مع المسئولين البريطانيين، فأكد وجود آلاف من القطع الأثرية المصرية المكدسة في مخزن بضاحية شيفلد، كما لفت إلى أن المسئولين عن هذا المخزن أصروا على أن يرى بنفسه كل هذه الآثار تطبيقًا لقانونهم الإنجليزي الذي ينص على معاقبة أي مواطن بريطاني يخفي أسرارًا عن أي جهة رسمية حتى ولو كانت غير بريطانية!!

وقبل الاسترسال في الموقف المخزي لمسئولينا الأثريين تجاه آثارنا، ذكر ماهر الموقف الإيجابي لبعض المخلصين لعودة هذه الكنوز إلى موطنها الأصلي (مصر) دون فائدة، فكتب:

– جدير بالذكر أن السيدة المصرية مُنى محمد كانت قد تقدمت ببلاغ عن بضع قطع أثرية معروضة في متحف شيفلد أثناء قيامها وزوجها بجولة سياحية إلى أوروبا، تشمل بريطانيا ومتاحفها الأثرية ومنها هذا المتحف، ولم تكن مُنى تعلم بوجود آلاف من القطع المصرية المهربة في مخزن بضاحية ذات المدينة!!.. وهذا ما شددت عليه أيضا مسئولة إنجليزية لمندوب الآثار المصري الموفد من رؤسائه للاطلاع على هذه الكارثة.

عندئذٍ قالت المسئولة البريطانية:

– إن «القانون البريطاني يسمح بعودة هذه الآثار إلى موطنها الأصلي حال طلبها من قبل الدولة المعنية التي خرجت منها ».

فيما أوضح ماهر:

– لهذا السبب أقامت مُنى بمساعدة كريمة ودعم مستمر من زوجها دعوى قضائية تتهم فيها المجلس بتبديد أكثر من 1500 قطعة أثرية ورفض استلامها، والتنازل عنها، وتضييع حق مصر في استعادتها.

وتروى مُنى تفاصيل هذه المأساة:

– في مدينة شيفلد البريطانية دخلت مع زوجي متحفًا للآثار ، وكانت الصدمة حينما شاهدنا العديد من القطع الأثرية المصرية معروضة في هذا المتحف غير القطع الموجودة في مخازنه، وهنا طلبت على الفور مقابلة مدير المتحف، وسألته عن تفاصيل دخول هذه الآثار إلى بريطانيا، ففوجئت به يؤكد أنها دخلت بلاده كـ«هدايا»!!، وتتابع:

– فما كان منى إلا أن أبلغت مدير المتحف البريطاني برغبتي في عودتها إلى وطني الأصلي مصر، فأعطاني الرجل أسماء وعناوين بعض الجهات التي يمكن الاتصال بها بهذا الخصوص، فقال لي:

– «لكي تبدئي بطلب الاسترداد لهذه الآثار، لا بد أولا من الحصول على موافقة الجهات المصرية باستردادها».. وبالفعل اتصلت أنا بالجهات المصرية المعنية بالأمر، والتي بدورها – بعد طول انتظار – أرسلت إليَّ مندوبًا عن المجلس الأعلى للآثار، حيث اطلعت معه ومع مسئول المتحف البريطاني على آثارنا الموجودة أيضًا في هذا المتحف، وتأكدنا جميعا من وجود حوالي 1500 قطعة أثرية مصرية بهذا المكان في حالة سيئة، وقبل أن نغادر أكد مندوبنا الموفد من« الآثار» أنها قطع مهمة جدًّا وسيرسل لمسئوليه توصية للمطالبة بها.

وتضيف مُنى:

– المصيبة السوداء في هذه الجريمة هي ما ذكرته مديرة إدارة التطوير الثقافي

ببلدية شيفلد، عندما قالت إن «مسئولا مصريا أثريا كبيرا طلب غلق ملف هذه القضية!!».. وليس هذا فحسب، بل أرسل خطابًا للمتحف البريطاني قال فيه:

– «نحن لا نسعى لاسترداد تلك الآثار، خاصة أنها غادرت مصر منذ فترة بعيدة جدًّا، كما أنه ليس لدينا أدنى شك في أننا سنكون سعداء إن بقيت تلك القطع الأثرية لديكم وتحت رعايتكم ومسئوليتكم»!!

وتصف مُنى خطاب المجلس الأعلى للآثار الموجه لمدير متحف شيفلد بأنه «كارثة» بكل ما تحمله الكلمة من مضمون.

وتتابع السيدة الوطنية على لسان مدير متحف شيفلد قوله:

– «إن المتحف البريطاني كان يقوم بالإجراءات حسب تعليمات حكومة بلاده، وهي: رد الآثار لبلادها الأصلية إن طالبت بها، ولكن قبل عودتها يجب التأكيد أن مصر لديها الرغبة في عملية الاسترداد، بل وتتوافر لديها القدرة على الرعاية الدائمة لتلك الآثار مع ضرورة تقديم ضمانات بذلك»، وهو ما ظهر جليًا في رد بلدية شيفيلد البريطانية كالتالي:

– «لا توجد لدى مصر نية في استرداد القطع الأثرية المملوكة لدى متحف شيفلد، وذلك بناء على رسالة مكتوبة وموقعة من المجلس الأعلى للآثار، يطلب فيها إغلاق ملف هذه القضية وعدم الحديث فيها مرة أخرى، وأن مصر سعيدة ببقاء هذه القطع الأثرية –النادرة لدى المتحف البريطاني، وأن المتحف يعتني بها بأساليب جيدة»!!!

– فجأة يرن موبايل ماهر من داخل غرفة الحبس أثناء استغراقه في توثيق أخطر المعلومات عن حضارتنا المنهوبة والمهربة إلي بريطانيا على لسان مُنى، ينظر في شاشة الهاتف مستغربا:

– تاني «بريفت نمبر»، ألو، مين؟

– أهلا دكتور ماهر، معاك (.....) المسئول الأول للجهاز السيادي الذي يعمل به أحمد بك.

ينهض ماهر من مكانه من وقع المفاجأة، وبصوت مرتجف:

– يا خبر يا افندم «.....» اللي بتكلمني شخصيا؟!

– نعم حبيبي، هو أنا.

– خير يا افندم، تؤمرني، على فكرة أنا متواصل مع أحمد بك (راجلكم) و....

– أحمد بك بيسلم عليك جدًا، وهو اللي أوصاني أكلمك علشان أطمنك، وإن شاء الله كلها أيام بسيطة وهتخرج من الحبس، فاطمئن.

– يا افندم أشكر معاليك جدًا، دي بلدي.

– إحنا كمان بنشكرك، خالص تقديري ومحبتي دكتور ماهر، سلام حبيبي، وعلى تواصل إن شاء الله تعالى.

نصف ساعة تقريبا، مرت على ماهر وهو يتحدث مع نفسه ويطمئنها طالما اتصل به هذا المسئول شخصيا.

مرة أخرى يعود ماهر لحالة السكون التي وضع نفسه فيها ليكمل كتابة مذكراته داخل الحبس على ضوء شمعته الجميلة (هكذا كان يُطلق عليها):

– طبعا عبث مسئولي الآثار بترك آثارنا في متحف شيفلد تهريج ما بعده تهريج، بل وكلام هؤلاء المسئولين عارٍ تمامًا من الصحة بشهادة مُنى وزوجها والمسئولين البريطانيين ومندوب الآثار، بعدما أكدوا أن المخزن كان مشيدًا في منطقة مترامية الأطراف تجتاحها السيول، بدليل أن كثيرًا من قطع الآثار بالمخزن كانت مبتلة، وكان هناك فريق ترميم إنجليزي يحاول معالجتها بسبب السيول التي أتلفت الكثير منها، خاصة أوراق ووثائق البردي القديمة بشهادة رئيس القسم

الثقافي والمشرف العام على متحف شيفلد الذي قال:

– إن «البلدية ملتزمة بالمرسوم الملكي البريطاني الـذي يقضـى بإعـادة الآثـار التي تطالب بها بلادها، لذا كنا ننوى بالفعل رد هذه القطع إلى مصـر، وقـد راسـلنا المجلس الأعلى للآثار للتأكد من أن تلك الآثار سـتعرض في المتـاحف المصـرية وستتم حمايتها، إلا أننا قررنا الاحتفاظ بها وإغـلاق ملـف هـذه القضـية بنـاء عـلى خطاب من المسئول الأعلى للآثار!!

وهنا يتساءل ماهر بمرارة وغصة تملآن حلقه:

– إذًا فهذه مهزلة بكل المقاييس، ولا بد من فتح ملف تلك القضية ومحاسـبة المسئولين عن هذا الملف، إذ كيف يُقدمون على هذا التصرف، وكـأن آثـار مصـر ملكهم؟!.

بعد ذلك يلقي ماهر الضوء على زيارته مـع سـارة لإنجلتـرا لكشـف الحقـائق الكارثية التي سبق وكشفتها المواطنة المصرية مُنى وزوجها، فيقول:

– كانت زيارة مرهقة إلى أقصى حد ممكن، وقبل عودتنـا بسـاعات، فوجئـت بشقيق سارة يحمل معه حقيبة كبيرة جدًّا، وبداخلها أكثر من 30 قطعـة آثـار تعـود جميعها للعصر الفرعوني، وسمعته يقول لسارة إنه دفع ثمنها بالكامل لتجار الآثـار، فما كان منها إلا أن سلمته شيكا بأزيد من المبلغ المطلوب، ومن الطبيعي أن أجمع تلك المعلومات وأصور هذه القطع تحسبا لمقابلة أحمد بك في أي وقت ببريطانيا، وقد كان، حيث وجدته يحتسي الشاي في مقهى كنت أجلس فيه مع سارة، لحظتها تصنعت الذهاب إلى الحمام، ويردف:

– وهناك سلمته كل ما لديَّ من معلومات، بعد ذلك بيومين سافرت إلى مصـر لزيارة أسرتي وزملائي وأساتذتي وطلابـي بالجامعـة، بالإضـافة إلى زيـارتي لإدارة جامعتي حتى أسلمهم شهادة الدكتوراه، بنـاء عـلى خطـاب وصـلني مـن مسـئولي

الجامعة شخصيا إثر حصولي على الشهادة مباشرة، أما سارة فاتجهت إلى أمريكا، لمتابعة عملها بالجامعة والمعرض لحين عودتي إليها بعد أن أتسلم عملي بجامعة القاهرة لفترة، وأحصل على إجازة لمدة عامين أو ثلاثة.

فجأة يتوقف ماهر عن الكتابة بعد سماعه صوت «أنتيكا» يستغيث به من ألم شديد في المعدة، يخرج ماهر من حقيبته الخاصة بعض الأقراص المهدئة ليعطيها له حتى يلوح فجر الصباح، فيتحدث مع مسئول السجن عن إمكانية زيارة صديقه لأقرب مستشفى، لكن بعد مرور 15 دقيقة بالضبط كان «أنتيكا» قد ارتاح وشفي تماما من الألم، ومن ثَم استطاع ماهر أن ينام بعض الوقت قبل الزيارة الرابعة لمحاميه.

■ الفصل العاشر
المتُهم.. أستاذاً

لثقة دكتور مدحت والمحامية مُنى ورائد الشرطة محمود ودكتورة زوزو في براءة ماهر بعد حصولهم على كل الأدلة التي تُثبت ذلك إضافة إلى اعتراف «بشْلة»، لم يمانعوا إطلاقا في تلبية دعوة بعض الفضائيات والحديث مع بعض الجرائد القومية والخاصة لكشف كواليس هذه القضية. وخلال 3 حلقات، ونحو 12 حوارا وعدد من التصريحات الصحفية والإذاعية لهم، استطاعوا كسب عطف العديد من المشاهدين والقراء والمستمعين الذين لم يعلموا عن قضية ماهر أي شيء بعد.

بتاريخ 29 مارس 2012 في تمام الساعة 12 ظهراً، زار المتهم كل من: دكتور مدحت ومُنى المحامية وزوجها ضابط الشرطة ودكتورة زوزو ، وكانت علامات الارتياح تجتاح وجوههم، وهم يقدمون له 3 سيديهات وعدداً من فيديوهات الهواتف النقالة بها معلومات مهمة لصالحه، وأخرى لخبراء آثار مشهود لهم بالكفاءة والوطنية، بالإضافة إلى حوارات وتصريحات صحفية يكشفون من خلالها أسرارا خطيرة عن ليلة اقتحام متحف التحرير على يد لصوص عُتاة.

يلتقط ماهر بعض هذه الوثائق من يد زائريه، ويستغرق ساعة كاملة في فحص وقراءة معظمها، ثم ينصت إليهم وهم يلخصون له كل ما لديهم، حينئذٍ قال:

– تمام يا جماعة، برافو عليكم والله، كده الحمد والشكر لله، كل شيء بقى تمام التمام، أما عن الاتهام بالتمويل الأجنبي لجريدتي، فستتولاه جهة سيادية لديها

المعلومة الكاملة بكل صغيرة وكبيرة عن الموضوع، ومن ثم نستطيع دحض كل الاتهامات التي وجهت إلى شخصي وإلى جريدتي.

دكتور مدحت يقول لماهر:

– المشوار لسه أمامه شويتين، القضية مش بالسهولة اللي أنت متخيلها دي، إحنا مش بنقول لك كده علشان نحبطك، بالعكس، لكن عاوزينك تفكر بعقلانية شويتين لحد ما نُلم بكل أوراق البراءة في إدينا.

– عندك كل الحق، معلهش يا مدحت، أنت عارف اللي أنا فيه و....

المحامي وشقيقة ماهر وزوجها:

– ما تكملش، كلنا بندعيلك والله، حتى قُراء الجريدة، وخاصة عُشاق مقالك الأسبوعي الناري عن فساد الآثار، وناس كتيرة أوي بيتصلوا بالجرنال ويسألوا زملاءك عنك.

أما دكتورة زوزو فكانت نبرة صوتها تبعث على العزيمة والتحدي حينما قالت:

– لا تخشىَ شيء يا دكتور ماهر، براءتك مضمونة 100٪ إن شاء الله تعالى.

يتنهد ماهر بعد نظرته الطويلة بالثناء لزوزو:

– يااااه، هو المواطن الشريف في البلد دي بيتحارب كده؟!

– الزائرون معا وفي نفس واحد:

– معلهش، مسير الحق هيبان، وتخرج من أزمتك أقوى مما كنت، وترجع لجريدتك وتكتب مقالتك علشان خاطر مصر مش حد تاني.

انتهت الزيارة الرابعة، وذهب مدحت إلى منزله، ليعد ملف القضية بالكامل، خاصة بعد المعلومات «**الخطيرة**» التي أعدتها له: منى وزوجها وتسجيلات الفيديو التي أعدتها له دكتورة زوزو، كما بدأ مدحت يكثف تواصله مع المصادر الأثرية والإعلامية والصحافية ذات الصلة بموكله لجمع ما تيسر له من معلومات

إضافية عن موكله.

بينما يبدأ ماهر رحلته اليومية بالحديث قدر المستطاع مع «أنتيكا»، وبعض المحجوزين عن حضارة وعظمة مصر، ويظل على هذه الحال حتى يدخل الليل، ويخلد الجميع إلى النوم في سريره، ليجد نفسه مجبرا على ممارسة طقوسه اليومية بعد أن يهديه «أنتيكا» واحد شاي في «الخمسينة»، ويلحقه بفنجان من القهوة الـــــ «مضبوطة»، ينام «أنتيكا» ويبدأ ماهر في الكتابة:

– فور دخولي مكتب عميد الكلية، فوجئت بكل أساتذتي الذين درسوا لي بانتظاري ليهنئوني بالعودة وحصولي على الدكتوراه، فما كان مني إلا أن شكرتهم جميعا، وسلمت كل واحد منهم هدية قيمة جدًّا، كنت قد اشتريتها من أمريكا فشكروني، واتفقوا على أن أدرس مادة الصحافة الإلكترونية بجوار الورقية لطلبة المرحلتين، الثالثة والرابعة إعلام، سعدت جدًّا بهذه الثقة. بعد هذا الاختيار بثلاثة أيام، وفي الساعة التاسعة صباحا، كنت متواجدًّا في صالة المحاضرات بناء على إعلان مسبق بهذا الموعد لطلبة المرحلة الرابعة. ويُكمل:

– قبل إلقائي محاضرة خاصة عن الصحافة الإلكترونية ومستقبلها، وإذا بالمفاجأة السارة، عدد لا بأس به من أساتذتي شرفوا مدرجات المحاضرة في الصف الأول بجوار الطلبة كنوع من الدعم لأحد أبنائهم من ناحية، ومن الناحية الأخرى – كما علمت منهم بعد ذلك – ليتعرفوا على كيفية أسلوبي وطريقتي في إلقاء المحاضرات ، والتعامل مع الطلبة بناء على تكليف من السيد عميد الكلية لهم، وكان عنوان المحاضرة « شبابنا.. وبراثن الكتائب الإلكترونية».

بدأ ماهر المحاضرة بتوضيح حقيقة كان لابد وأن يعرفها عنه طلابه وأساتذته أيضا، وهي أن جامعة كاليفورنيا عرضت عليه العمل بها كأستاذ لمادة الصحافة الإلكترونية مقابل الإقامة الدائمة وعائد مادي مغرٍ جدًّا، ولكنه رفض كل ذلك حبا في بلده، بعد ذلك طالب الحضور أن يضعوا أيديهم على العطب الفكري

والمعلوماتي والثقافي والسلوكي الذي أصاب شبابنا بعدما أصبحوا فريسة للكتائب الالكترونية وغير الإلكترونية الموجهة لتحويلهم إلى «مسخ»، فقال:

– هذه الكتائب أعزائي، مُدربة تدريبا عاليا لتشويه الحقائق.. كتائب تُشكك في ثوابت الدين والتاريخ معا.. كتائب تختلق مواقف وأحداثاً ما أنزل الله بها من سلطان.. كتائب تعرف جيدا ماذا تريد وما الهدف الذي تصبو إليه.

وفي جو يسوده المحبة والاهتمام المتبادل بين ماهر وطلابه وأساتذته الذين تواجدوا في المحاضرة، يُكمل:

– فلنحاول إذاً أساتذتي وطلابي معا أن نستكشف إحدى هذه الكتائب.. أكرر.. نحاول وبالتأكيد سننجح في التواصل مع بعض عناصرها التي تملأ وسائل الإعلام المختلفة.. ومنها التواصل الاجتماعي.. الفيسبوك تحديدا.. وسنناقشهم حتى نتأكد من قدرتهم الجبارة على تقزيم أي معلومة نطرحها عليهم.. سنجدهم يجادلوننا بحقائق ووثائق ومعلومات صحيحة 100٪.. لكن فلنحاول مرة أخرى أن نراقب كيف يوظفونها .. كيف يحقرونها.. كيف يستهزئون بها.. وكيف يسفهونها حتى يكفر شبابنا بكل ما يؤمنون به.

ويسترسل ماهر شرحه بثقة الواثق من معلوماته وتأثيره على الحضور، فيوضح:

– لنضرب مثلا بالإعلامي الأمريكي جون ستيوارت، صاحب الشعبية الكبيرة وأشهر برنامج ساخر «THE DAILY SHOW» على قناة COMEDY CENTERAL.. هذا الإعلامي يستهزئ ويسفه ويحقر في برنامجه الأسبوعي من الدعاية الجادة التي تتبناها وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى.. لاحظوا معي.. كلمات: «يستهزئ.. يُسفه.. ويُحقر» من الدعاية الجادة.. هنا تكمن المشكلة.. «ستيوارت» يعرض الحقائق بشكل «هزلي» بعلم وتوجيه من مخابرات بلاده.. في حين أنها قضايا محل اهتمام وتقدير وألم، ويردف ماهر:

– ملايين الضحايا الأبرياء قتلوا ولايزالون بالسلاح الأمريكي حول العالم نموذجا.. فهل هذا «الدجال» يعرض جرائم بلاده في دول العالم بشكل جدي؟!.. لو فعلها لانقلبت عليه المخابرات الأمريكية وهجره متابعوه!!.. بلاش «ستيوارت» يمكن دمه تقيل.. جرب تسفه من إنجاز حقيقي لصديق لك مع أصدقاء آخرين.. أو احكيه بشكل كوميدي وانتظر النتيجة!!

فجأة يقاطعه أحد الطلبة بنوع من التشاؤم:

– عفوا دكتور ماهر، حضرتك تعينت كمعيد في كلية إعلام القاهرة، ثم حصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه من أمريكا على مدار 10 أعوام مثلا، أي أنك لم تعانِ البطالة ولم ينلك ضنك الحياة الذي نحياه الآن، لذا من حقي أن أقول لك إن معظم كلام حضرتك لا يمت للواقع بصلة، فمشاكلنا نحن الشباب وخصوصا شباب الإعلاميين – باستثناء فئة معينة ومعروفة سلفا – أصبحت مستعصية على الحل، حيث يوجد لنا زملاء تخرجوا منذ 10 أعوام، أي يقاربون حضرتك في العمر، وللآن لم يجدوا أي عمل، لا في الجرائد القومية ولا حتي الخاصة، في حين نجد تلك الأماكن محجوزة – كما ذكرت – لأقرباء ومعارف الساسة والصحفيين والإعلاميين الكبار حتى لو لم يكونوا من خريجي الإعلام.

حاول عدد من الحضور أكثر من مرة منع الطالب من الاستمرار في كلمته، لكن دكتور ماهر أصر على أن يستمع إلي كل حرف ينطق به هذا الشاب، وبعد أن أفضي بمالديه، شكره على صراحته، وفي الوقت نفسه وعده، وأكد له أن القادم سيكون أفضل بإذن الله تعالى.

يستكمل ماهر محاضرته وسط إعجاب كثير من الحضور:

– وحتى أكون أكثر دقة.. فالكتائب الإلكترونية ليست فقط على الفيس والواتس وتويتر و..... بل يوجد لها أعوان في: الأندية.. الملاهي.. المواصلات.. المقاهي.. دور العرض.. الأماكن العامة.. المطاعم الفاخرة..

القنوات الفضائية والإذاعات الموجهة.. وحتى الجرائد والمجلات الصفراء.. لذلك وجب علينا الانتباه.. لأن هذه العناصر مُجندة ضدك وضد أي تقدم في وطنك.

– وليت الأمر يقف عند هذا الحد.. بل يتعداه لاصطياد فلذات أكبادنا.. شبابنا الصغير.. وحتى غير الصغير من المغرر بهم.. أسمعهم يوميا بأذني وأشاهدهم بأم عيني هنا وهناك وهم يتبادلون الأخبار والمعلومات الحقيقية على طريقة «ستيوارت».. والمغلوطة – الملغمة والملونة بكل ألوان الطيف التي تزعزع ثقتهم بوطنهم وجيشهم.. أنظر إليهم وأبكى بحسرة وألعن من تسبب في «حشو» رءوسهم، وسمم أفكارهم بهذه الإرهاصات.

ويتساءل ماهر:

– أين إذًا دور الإعلام الصادق الهادف الوطني.. المساجد والكنائس.. المجتمع المدني.. وزارة الشباب والرياضة.. المدارس والمعاهد والجامعات؟!، هذه الأسئلة وغيرها بحاجة مُلحة إلى إجابات واضحة من مسئولينا ومنكم أنتم شباب الإعلاميين الشرفاء، وذلك لإيجاد حلول علمية وعملية قابلة للتنفيذ على أرض الواقع.. وأخشى ما أخشاه أعزائي الطلاب من استغلال جماعات المصالح وأعداء الداخل، لهؤلاء الشباب لخلق جيل جديد حاقد وناقم على كل شيء في مصر.. بدلا من أن يؤمنوا بأن مصر تسير للأمام، ولا ترجع للخلف.

– لأن هؤلاء الشباب هم عماد مصر ومستقبلها.. عزها ومجدها.. عرضها وشرفها.. قوتها الضاربة تحت أحزمة العدو الداخلي قبل الخارجي.. لذا وجب علينا جميعاً احتضانهم واحتواؤهم وفهمهم ومحاورتهم، حتى يكونوا رقماً إضافيا في التنمية والإنتاج.

وقبل أن ينتهي ماهر من تدوين ما قاله في محاضرته، كتب:

– في الحقيقة وجدت إشادة غير عادية من أساتذتي بالكلية عن محاضرتي،

وكذلك أغلب الطلبة الذين تواجدوا بأعداد كبيرة جدًّا أمامي، ومن خلال أسئلتهم المتنوعة عن «السوشيال ميديا» وتأثيرها على الشاب العربي، توصلت إلى معلومات في منتهى الأهمية والخطورة، وبدأت أنتبه لتطور الميديا، ومن ثم كان لزاماً عليَّ أن أطور أيضا طريقة تدريسي لطلبتي، بما يتناسب مع مستوى ذكائهم وتقدم علمهم الذي – في الحقيقة – أذهلني جدًّا، ويستطرد:

– كما وقعت عيني على عدد من الطلاب والطالبات في ذات المحاضرة قد تميزوا عن غيرهم في طريقة طرح أسئلتهم وتطلعاتهم للعمل في المجال الصحفي بشكل عام، ولم يدر بخلدي إطلاقا أنني سأختار من بينهم من يعمل بجريدتي التي ترأست مجلس إدارتها وتحريرها، واستمر الحال على نفس المنوال طوال 3 أشهر كاملة، كنت فيها الصديق والأخ لطلبتي، كما راعيت وحافظت على المستوى نفسه من العلاقات الإنسانية مع زملائي الأساتذة، وحتى موظفي الكلية وعمالها، ويُكمل:

– انتهيت من محاضرتي بتصفيق وإعجاب أغلب الحضور.. وقبل خروجي من المدرج، فوجئت بأحمد بك وسط طلابي في المحاضرة، بالطبع سعدت جدًّا برؤيته، وذهبت إليه مرحبا، ثم اصطحبته إلى كافتيريا الكلية لتناول بعض المشروبات، تحدثنا في أمور كثيرة، أهمها ضرورة زيارتي لزوجتي سارة والجلوس معها أكبر وقت ممكن لمعرفة بعض المعلومات عن زوار المعرض ونوعية حديثهم عن عملائهم في مصر، وعن كل القطع الأثرية المصرية غير المسجلة الموجودة بالمعرض والمعارض وصالات المزادات والمتاحف المتوقع أن أزورها مع سارة واسم بائعها الأصلي ما أمكن، رحبت طبعا بهذه المهمة، لكن كان هناك عائق بسيط، وهو الحديث مع إدارة الكلية عن إجازة في هذا التوقيت، فبادر أحمد بك بحل المشكلة من جذورها عندما قال لي:

– يا دكتور ماهر، لا تحمل هم أي شيء، فأمورك جميعها مُيسرة بإذن الله تعالى.

– مُيسرة يعني إيه يا افندم؟!.. هو حضرتك كلمت عميد الكلية كمان؟!

– هههههه، نعم يا سيدي، والراجل مش ممانع إطلاقا، يلا بقى، خلص شغلك مع الطلبة وإدارة الكلية وما لكش بركة إلا أم أولادك دكتور ميار وأهلك وأهلها، وإن شاء الله نتقابل على خير في كاليفورنيا.

لحظة صمت طويلة بعض الشيء هذه المرة تعاود ماهر، بعدها تزداد شهيته للكتابة:

– المهم، ما صدقت واتجهت مباشرة إلى مكتب عميدالكلية، فوجدت سكرتيرته هالة(ثلاثينية، آخر شياكة)، تبتسم وتقول:

– ابن حلال دكتور ماهر، العميد سأل عليك، وكان عاوزك ضروري.

– طيب، أعطيه خبرًا أني هنا يا هالة بسرعة.

– خبر إيه بس يا دكتور؟ اتفضل ادخل، بقول لك العميد في انتظارك.

– بسرعة الصاروخ طرقت مكتب العميد، وأول ما دخلت، رأيت ابتسامة عريضة على وجهه، نهض من مكانه واحتضنني، ثم سلمني طلب إجازتي لمدة شهرين كاملين قابلة للتجديد حسب الظروف وطبيعة المهمة، وقال لي:

– لا داعي للحديث في أي شيء عن إجازتك، وإن شاء الله تسافر وترجع لنا بألف ألف سلامة، ويردف ماهر:

– بعد هذه المقابلة، استقللت سيارتي الـ «هوندا سيفك»، لاصطحاب زوجتي ميار بعد انتهاء عملها في مستشفى 6 أكتوبر العام كعادتنا اليومية، ومنها إلى مدرسة طفلينا لاصطحابهما معنا، لنتجه بعد ذلك إلى فيلتنا بالمدينة نفسها، تناولنا وجبة سمك بلطي على الغداء، كانت ميار قد أعدتها قبل ذلك على طريقة والدتها في البلد، ويوضح:

– في حديقة فيلتنا جلست مع زوجتي ميار وطفليَّ للحديث عن رحلة سفر

مفاجئة إلى جامعة كاليفورنيا بتكليف من كليتي، ابتسمت زوجتي الحنون، وبدأت الحاسة الأنثوية تأخذ مساحتها، وآاااااه من الحاسة الأنثوية دي؟.. ثم سألتني بابتسامة عريضة لها مغزاها وهي تضع يدها بحنان ما بعده حنان على كتفي و«تبحلق» في عيني:

– الجامعة اللي باعتة لك يا ماهر ولا وحشتك أمريكا و..... يلا اعترف.. قوووووول؟؟؟

ابتسم ماهر والعرق يتصبب من جبهته، وسأل نفسه همسا:

– ماذا لو اكتشفت ميار أنني متزوج عليها؟؟.. يتمالك نفسه ويكبح جماح خياله وظنونه، ويعاود الكتابة:

– يا حبيبة عمري وقلبي وروحي، إن كان عليَّ والله ما أسيبكم لحظة واحدة، بس أعمل إيه يا نور عيني؟

– حبيبي ماهر، أنا بس بضحك معاك يا عمري، إن شاء الله تروح وتيجي بألف سلامة، وإن كان على توصيل الأولاد للمدرسة، ومشوار عملي للمستشفى، ما تشيلش هم، أنا بقيت أسوق كويس جدًّا، والفضل لله ثم ليك حبيبي، إنت اللي علمتني السواقة.

– طيب حبيبتي الحمد والشكر لله تعالى، المهم عاوزك تجهزي نفسك مع الأولاد بعد بكرة، نسافر نزور أهلك وأهلي لأنهم وحشوني جدًّا.

– كويس إنك قُلت حبيبي، أنا كنت وعدتهم بزيارة الأسبوع الجاي، والحمد لله إنك بدرت بالميعاد.

– يا سبحان الله، مش هتصدقيني لو قلت لك إني وعدت والدك ووالدتك بزيارة خلال أيام بسيطة في مكالمة تليفونية أمس، نسيت أحكيلك تفاصيلها.

– هههههه، دي عادتك ولا هتشتريها حبيبي؟ هههههه.

– أنا برضه؟؟.. طيب ماشي حبيبتي.. الله يسامحك بقى، ويضيف:

– وهنا انتهى حوارنا، وسافرنا لنقيم 3 أيام في البلد، استمتعنا فيها بزيارة الأهل والمعارف والأقارب، ومن الطريف والمفروض ذكره هو أن ميار بصفتها طبيبة أطفال، كانت تكشف على أطفال القرية طوال إقامتنا مجانا، ويُكمل:

– بعد عودتنا إلى مدينة 6 أكتوبر بيومين، اتجهت للسفارة الأمريكية، ومنها إلى شركة مصر للطيران، ثم سافرت إلى أمريكا، حيث كانت تنتظرني في مطار لوس أنجلوس زوجتي سارة.

– في هذه اللحظة تذكرت أغنية المطربة الجميلة شادية « ده القلب يحب مرة ما يحبش مرتين».. ومن الواضح أن قلبي خالف قناعات شادية وضرب كل تابوهاتنا بأقدم حذاء، وأحب بدل المرة ثلاثة!!.. (سارة وميار و.....) هههههه، وهذه هي الحقيقة، لأنني لا أستطيع أن أصف مشاعري الجياشة ناحية سارة حينما استقبلتني بكل هذه العاطفة و....، كما أن دموعها انهمرت أثناء احتضانها لي داخل صالة المطار، ثم همست في أذني:

– كل الفترة دي بعيد يا ماهر؟!.. وجالك قلب؟!.. يعني طاوعك قلبك؟!

– سارة حبيبة قلبي، والله غصب عني يا عمري، وبعدين أنا كنت باتواصل معاك بالتليفون كل يوم.

– حبيبي، تليفون إيه بس؟!.. المهم حمد الله على سلامتك، يلا نخرج من المطار، وعلى البيت طوالي.

بعد ركوبها السيارة، بدأ ماهر يغازلها:

– تعرفي انك وحشتيني موووت، أوييي، خاااالص، جدًّاااا، هههههه.

– بكاااااش يا قلبي، طالما ميار معاك، يبقي أكيد أنا مش على بالك خاااالص، صح؟؟

- بلاش تقولي كده سارة حبيبتي، إنت.....

- هووووووووس.... خلاص، أنا مصدقاك، ولا كلمة، يلا خلاص حبيبي، وصلنا الفيلا، ويسترسل ماهر:

- داخل الفيلا شممت رائحة بخور كالذي كانت أمي تطهر به بيتنا في البلد!!.. أما سفرة سارة هذه المرة فكان بها: حمام مشوي وطواجن معمر وملوخية بالأرانب!!.. نظرت إلى السفرة بعدما شممت رائحة البخور وقبل أن أنطق بكلمة، سألتني سارة:

- ما رأيك يا ماهر في سُفرتي؟ هل تشبه سُفرة أم ماهر في البلد؟

- هههههه، أم ماهر إيه بقي؟.. ده انتي فرقتِ الكل، ثم شكرتها جدًّا على كل شيء طيب تفعله من أجلي، بعد ذلك قضينا ليلة جميلة، حب، حنان، عطف، يا الله، ما أروعك يا سارة، في صباح اليوم التالي من وصولي ذهبت مع سارة إلى جامعة كاليفورنيا، استقبلني أساتذتي الذين درسوا لي بكل الحب والتقدير، وبعد أن أنهت سارة عملها في الكلية، عدنا مرة أخرى للفيلا، تناولنا وجبة غداء فاخرة من يد الفتاتين الفلبينيتين، ويضيف:

- اصطحبتني سارة بعد ذلك إلى المعرض، وإذ به قد امتلأ على آخره بقطع أثرية لم أرَها من قبل، تسلمت عملي من سيدة يهودية صديقة لسارة، كانت قد كلفتها بشئون المعرض بشكل استثنائي في غيابي، وحقيقة لم أكن لأتوقع على الإطلاق أن المعرض سيكون محل حديث مدينة كاليفورنيا إلى هذه الدرجة، ويردف الفرعون الصغير:

- قضيت 15 يوما على هذه الحال، متنقلا بين الفيلا والمعرض، وقبل أن نخلد إلى النوم، كنت أجلس مع سارة يوميا جلسة خاصة جدًّا، يتخللها كلمات الود والمحبة و..... ثم أسلمها إيراد المعرض بشكل يومي، فكانت تمنحني 500 دولار كمصاريف يومية، وحتى أمنح كل ذي حق حقه، كانت هذه السيدة

الكريمة ترسل لي شهريا 3 آلاف دولار طوال وجودي بمصر، وحتى بعد سفري لها مرة أخرى، فهي حريصة جدًّا على إرسال المبلغ نفسه بشكل شهري باسم ميار كمصاريف لبيتي.

■ الفصل الحادي عشر
المهمة المقدسة

في جو ممتع تناول ماهر مع سارة عشاءً فاخرا للمأكولات البحرية الحية في أحد مطاعم كاليفورنيا، فجأة تغير وجه سارة الجميل إثر مكالمة هاتفية من شقيقها المقيم في إنجلترا، وألقت بجسمها على كتف ماهر بعدما دخلت في نوبة توهان.....!

ماهر منزعجا من هذا التغيير المفاجئ:

- سارة؟!.. سارة؟!.. حبيبة قلبي؟!

بصوت وخيم ومتقطع، تفتح سارة نصف عينيها وتُطمئن ماهر:

- مافيش حاجة حبيبي، بس دايخة شوية، بسرعة أعطني كوب ماء.

تشرب سارة كوب الماء، وتستيقظ قليلا من غفوتها وبذات الصوت الوخيم المرتجف تقول لماهر:

- أخويا دخل المستشفى في حادث سيارة يا ماهر، ولا بد من زيارته في إنجلترا اليوم، وكل المطلوب منك الآن، تخلى بالك من نفسك ومن المعرض لحين عودتي بعد ثلاثة أيام على أكثر احتمال.

- طيب حبيبتي، ممكن آجي معاك لو وجودي يفيدك.

- أكيد يا عمري يفيد، لكن الأفضل تخليك هنا، تاخد بالك من كل شيء

يخصني، مش كده ولا إيه حبيبي؟.. والآن خليني أدفع حساب الأكل، ونجهز نفسنا للعودة إلى البيت، وفي الطريق نعدي على مكتب السفريات لحجز التذكرة.

– أوك حبيبتي، وأنا هاكون معاك على اتصال من وقت للتاني، ويسترسل ماهر:

– في صباح اليوم التالي أوصلت سارة إلى المطار، ركبت طائرتهاالمتجهة إلى إنجلترا، وذهبت أنا إلى المعرض، وما هي إلا لحظات حتى وجدت من يضع يده على كتفي.. نظرت خلفي، وقلت:

– مين؟!.. أهلا وسهلا أحمد بك، وحشتني والله، طمني عليك.

– أنا بخير يا ماهر، ياريت تتأكد كالعادة من تعطيل كاميرات المعرض حتى لا تلتقطنا.

– اطمئن يا افندم، الآن فقط تم تعطيلها إلكترونيا من «ريموت» بجواري بمجرد أن رأيتك.

– رائع حبيبي، والآن مافيش وقت نضيعه بعد سفر سارة لزيارة أخيها في إنجلترا.

– هههههه، مش هاسألك المرة دي عرفت منين إن سارة مسافرة انجلترا، المهم، خير يا افندم، تؤمرني، فيه حاجة مستعجلة أقدر أقوم بيها ؟ ومين اللي مع حضرتك دول؟؟

– أولاً أحب أعرفك بعلمائنا جميعا في الوطنية وعلم الآثار: البروفيسور نادر ذوالفقار (أحد رموز الجالية المصرية هنا وأستاذ الآثار المصرية القديمة بجامعة نيويورك منذ 32 عاما)، والسيدة الفاضلة أستاذتنا وتاج رؤوسنا الرائعة البروفيسور ناهد النحاس (المستشار الثقافي للسفارة المصرية هنا، وأستاذ الآثار الفرعونية بجامعة بنسلفانيا) أما هذا الشاب المصري الأنيق فهو دكتور عاصم المشد (أستاذ اللغة الهيروغليفية بجامعة كاليفورنيا) وقد استعنا بهم ليساعدونا في بعض المعلومات التي ربما نحتاج إليها.

يمد دكتور ماهر يده مرحبا بالبروفيسور ناهد والبروفيسور نادر والدكتور عاصم.

أحمد بك متحدثا لماهر:

- دكتور ماهر، طبعا عندك فكرة عن مكتشف مقبرة توت عنخ آمون.

- ومين مايعرفوش؟! خاصة إن دكتورة سارة لم تنقطع يوما في حديثها عن الملك توت عنخ آمون الذي اكتشفه «كارتر»، وعن علاقة أسرة زوجها الراحل به، وما جاء في كتاب «كارتر» من وصف دقيق لكل الأحداث التي أحاطت بهذا الاكتشاف المثير من وادي الملوك والمناطق المحيطة به في البر الغربي بالأقصر، ويردف:

- كما حرص « كارتر » – حسب كتابه الذي أهدتني إياه سارة - على تسجيل جميع تجاربه العلمية وخبراته في الحفائر الأثرية، إلى جانب علاقاته مع جميع المحيطين به سواءً أكانوا مصريين أو أجانب، في تلك الفترة المهمة من تاريخ مصر الحديث.

أحمد بك يُلاحظ نظرات غريبة تجاهه وضيوفه من حُراس المعرض، فيطلب من ضيوفه الكف عن الحديث، والتجوال في المعرض كأنهم زبائن يريدون شراء بعض المستنسخات.

ينتبه ماهر لنظرات الحُراس، ويؤدي دوراً ثمينًا رائعاً أمامهم، وذلك عندما يتجاذب الحديث مع أحمد بك وضيوفه على أنهم من عملاء المعرض المهمين، وبذلك اطمأن الحُراس، وعادوا إلى أماكنهم.

يُكمل أحمد بك حديثه:

- من الأفضل يا جماعة أن تكون جلستنا أو اجتماعنا في مسكن دكتور عاصم، حتى نتفادى أي مشاكل من أي نوع للدكتور ماهر .

يتفق الجميع على رأي أحمد بك، يُسرع ماهر في استئذان عملاء المعرض بعد

أن يختلق عذرا لحراس المعرض بزيارة مريض زميل له بالجامعة مع ضيوفه، يستقل دكتور ماهر وأحمد بك ودكتور عاصم وبروفيسور ناهد وبروفيسور نادر سياراتهم، ويتقابلون في المكان المتفق عليه بمقر سكن دكتور عاصم بعد ساعة ونصف الساعة من تحركهم.

يرحب دكتور عاصم بضيوفه في مسكنه، يقدم لهم واجب الضيافة، وجبة مصرية لم تخطر على بالهم، ملوخية بالأرانب، كان قد أعدها ووضعها في ثلاجته ليأكل منها عدة أيام، يسعد الجميع بالوجبة الشهية في جو من المرح والسعادة، وقبل أن يبدءوا حديثهم فيما اجتمعوا من أجله، فاجأهم دكتور عاصم بأطباق «أم علي» بعد الأكل، فزادت سعادتهم بهذا الكرم «الطائي» هكذا أطلقوا على «عاصم».

أحمد بك يطالب الحضور بالإصغاء جيدا لكل حرف سيُقال في هذا الاجتماع، ويكمل حديثه مع دكتور ماهر:

– عظيم جدًّا دكتور ماهر إنك مُلم بمعلومات كافية عن «كارتر» وكتابه، وأظن بروفيسور ناهد وبروفيسور نادر ودكتور عاصم عندهم فكرة كاملة – بحكم عملهم وعلمهم – عما سنقوله.

بروفيسور نادر:

– بالفعل، فقد قرأت جميع الكتب الأجنبية والعربية التي تتحدث عن اكتشافات «كارتر» وفي كتابه عن توت عنخ آمون أكد أن عقلية المصريين القدماء ظاهرة بوضوح في فنهم الذي يرتبط بشكل دقيق بديانتهم، مسلما بحقيقة أنه من الصعب ادعاء أحد – أي أحد – فهم المعاني الأصلية التي يجسدها فن المصريين القدماء، ولا نستطيع مع كل تقدُّمنا أن ندرك تلك المعاني الجوهرية لأن الفن المصري يُعبر عن هدفه بفخامة.

بروفيسور ناهد تُخرج من حقيبتها كتاب «كارتر»، وتشارك الحضور بعض الجمل التي وضعت تحتها خطوطا بقلمها، وتقرأ لهم ما شهد به هذا اللص عندما

يقول:

– بساطة الفن الفرعوني علامة على السمو، وإن الفنانين المصريين لم يجتهدوا ليكونوا مبدعين أو ليقدموا أعمالاً مثيرة للعواطف «مثل الفنانين اليونانيين والرومانيين» وحسب؛ فالمصري القديم كان ينظر للطبيعة من خلال قيود تقاليده هو، وبعينه هو، وهكذا نبعت وشاعت هذه السمة المميزة للفن المصري القديم من شخصية الفنان الذاتية، سواء بسبب وجهة نظره الدينية للأشياء، أو من خلال رؤيته للتذوق الجمالي.

أحمد بك للبروفيسور ناهد:

– الله عليك يا افندم، حضرتك بكده وفرت علينا، أو قطعت معنا نصف الطريق، باقٍ فقط أن تشرحي مع بروفيسور نادر ودكتور عاصم للدكتور ماهر المطلوب منه.

دكتور عاصم بصفته متخصصا في اللغة الهيروغليفية ومن أهم المتابعين للنشاط الصهيوني في مصر، بدأ حديثه:

– دعوني بداية أوضح لكم بعض القضايا الشائكة التي يبحث عنها الصهاينة فيما يخص تاريخنا، على الأقل من خلال كتاب جديد صدر مؤخرا عن دار فيرجين للنشر، للكاتبين: أندرو كولينز وكريس هيرالد بعنوان : «توت عنخ آمون ومؤامرة الخروج»، داخل صفحات هذا المؤلف ستفاجؤون بمعلومات خطيرة عن علاقة مصر الفرعونية بالأديان السماوية، ويكمل:

– وكذلك اختفاء برديات خطيرة تمت سرقتها من مقبرة «توت» تكاد تنسف – حسب الكاتبين – مزاعم القصة التوراتية التي تدعيها الصهيونية العالمية بشأن خروج بني إسرائيل من مصر، وقد تمت جريمة السرقة على يد أربعة لصوص يتقدمهم «كارتر»، كما يجب لفت الانتباه إلى جانب آخر من اهتمام العالم أجمع بتلك الكنوز التي ينحصر عددها بين «3580 و 6000 قطعة ».

بروفيسور نادر يثني على علم ومجهود دكتور عاصم كأحد تلاميذه الذين درس لهم الآثار بجامعة القاهرة قبل سفره لأمريكا:

– ما قاله ابننا دكتور عاصم صحيح بنسبة 100٪، فقد أيقن «كارتر» أن الملك العظيم «توت» دفن في مكان ما بوادي الملوك، نظرًا لعدة شواهد على ذلك بعدد من الحفريات التي تمت بين عامي «1905 » و«1907 »، ومنها العثور على كوب خزفي أزرق يحمل اسم « نب خبرو رع / توت عنخ آمون » وبقايا جرار فخارية عليها اسمه، ويردف:

– وذلك قبل اكتشاف مقبرته التاريخية عام 1922، وفي الوقت ذاته كان شخص يُدعى اللورد جورج إدوارد ستانفورد مولينكس هيربرت كارنرفون، قد حصل من المندوب السامي البريطاني لمصر، المدعو اللورد كرومر على أول تصريح له بالبحث عن آثارنا، وبدأ عمله بالفعل في موقع يُسمى «شيخ عبد القرنة » بالضفة الغربية للنيل في مدينة الأقصر.

دكتور ماهر مؤيدا لكلام بروفيسور نادر وبروفيسور ناهد، ويضيف عليه:

– بحسب ما تأكدت منه عند قراءتي لهذا الملف الشائك، فإن «كارنرفون» كان بحاجة ماسة إلى شخص لديه خبرة في هذا المجال لتحقيق أغراضه الصهيونية، فقدم له جاستون ماسبيرو اللص «كارتر»، العاطل المفلس آنذاك، وتعاون اللصان في البحث داخل منطقة مقابر وادي الملوك بالضفة الغربية للنيل بداية عام 1909، وهنا لا بد أن ألفت انتباهكم لقضية في منتهي الخطورة.

الحضور يطالعون ماهر في لهفة لمعرفة القضية التي أشار إليها ويطالبونه بتفاصيلها المملة، فيوضح:

– باختصار شديد جدًّا إن قطعة آثار واحدة يمكنها تغيير مسار تاريخ أمة بالكامل، والدليل على ذلك حجر رشيد الذى سرقه الإنجليز ووضعوه في متحفهم، بعدما اكتشفه أحد جنود حملة نابليون على مصر، حينها ادعى النصاب

الفرنسي شامبليون أنه هو الذي فك رموزه.

دكتور عاصم يصفق للدكتور ماهر، وكذا فعل باقي الحضور، ثم يشرح:

– بحكم دراستي وخبرتي وتدريبي في مكتبة الإسكندرية على أيدي أساتذة وطنيين عظام للمخطوطات، فإن هذا اللص (شامبليون) ترجم اللغة الهيروغليفية الموجودة على الحجر من مخطوطة عالمنا العربي الفذ ابن وحشى النبطي، والسؤال الآن:

– إلى متى نظل في حالة الغفلة التي أصابتنا بفعل فاعل غير مدركين خطورة ما نحن فيه؟ أما آن الأوان أن نحترم أنفسنا وحضارتنا.

أحمد بك يُفجر مفاجأة لضيوفه:

– هناك احتمال أن يكون اللورد جورج إدوارد ستانفورد مولينكس هيربرت كارنرفون، هو جد زوج بروفيسور سارة، زوجة دكتور ماهر، والكلام ده له معنى خطير جدًّا جدًّا، يعني يا دكتور ماهر يا حبيبي، الآثار اللي اتسرقت من مقبرة الملك توت تم الكشف عنها عام 1987 في أحد السراديب السرية أسفل قلعة «هايكلير»، وهو منزل «كارنرفون»، وتشكل مجموعة ضخمة من الآثار تبلغ 300 قطعة تقريبا، ويُكمل:

– ورغم أن أحد أقرباء «كارنرفون» ـ ربما يكون حفيدًا آخر غير زوج بروفيسور سارة ـ كان يدعي أنها مستنسخات، فإنه يجب أن يسمح للجنة مصرية بفحصها للتأكد منها والعمل على استردادها على الفور.

دكتور عاصم يوضح:

– ويلخص كل ما سبق احتمالية أن تكون بردية خروج اليهود من مصر قد تم سرقتها بواسطة «كارتر وكارنرفورن»، وهناك احتمال آخر، وهو أن تكون تلك البردية قد انتقلت ليد هذا الحفيد أو ربما من كان متزوجًا من زوجة د. ماهر فعلا،

وعموما جميعها احتمالات واستنتاجات إلى أن نصل للحقيقة.

دكتور ماهر بعد فترة صمت وإنصات لكل حرف قاله الحضور:

- ده كلام خطير جدًّا يا جماعة والله.

بروفيسور نادر بعد لحظات من التفكير والتأمل قضاها بين صفحات بعض الكتب التي يستعين بها في هذا الاجتماع:

- وحتى لو ده احتمالاااال، ولو بنسبة 1٪، فلا يجب إغفاله مع العلم أن لدينا معلومات عن عدد كبير من قطع مقبرة نفس الملك تمت سرقتها وقت اكتشافها أيضا، ومنها: تمثال لفتاة، وملعقة دهون، وإناء من الفيانس الأزرق معروضة بمتحف بروكلين الأمريكي، وأيضًا قطة منحوتة من الهيماتيت الأسود معروضة بمتحف كليفلاند، وتمثال أوشابتي يحمل اسم الملك « توت » يعرض في متحف اللوفر، واثنان من رءوس الصقور، يعرضان في متحف كانساس سيتي بولاية ميسوري الأمريكية، وهما جزء من صدرية كانت في رقبة مومياء «توت»، وكنا نتمنى أن نتفاوض مع ورثة «كارنرفون» ممول حملة الكشف عن مقبرة «توت»؛ من أجل استعادة الآثار التي تخص الملك توت.

دكتور ماهر يضع يده على رأسه:

- يا خبر أسود!!.. إيه الكلام ده؟!.. دي قصص ولا ألف ليلة وليلة.

بروفيسور ناهد تبتسم وتهدئ من روع ماهر:

- هون على نفسك، ده تاريخنا، ولازم نحافظ عليه، مش كده ولا إيه؟

دكتور ماهر يهز رأسه موافقا:

- أكيد يا افندم، بس.. أصل....

أحمد بك يعاجل دكتور ماهر:

- لا بس ولا أصل، ولا فصل، أصبح من الثابت - بشهادة الأجانب أنفسهم -

أن اللصوص الأربعة دخلوا المقبرة بطريقة غير رسمية وغير مشروعة من الباب المغلق إلى غرفة دفن الملك الشاب ومستقره الأخير، وهذا الجرم يُعد انتهاكًا لم يعلن عنه «كارتر» منذ ذلك الوقيت وحتى رحيله.

فلتت «آه» مؤلمة من صدر بروفيسور ناهد لم تستطع كتمانها:

– من شهادة «كارتر» وكتابات غيره في هذا الموقف نستنتج ما الذي حدث في تلك اللحظة، وذلك عندما يقول «كارتر» في كتابه:

– «لك أن تتخيل كيف بدت هذه الآثار، ونحن نلقي عليها أول نظرة من تلك الفتحة بالباب الجصي المُغلق، ونحن نسلط عليها ضوء المصباح، وهو أول ضوء يخترق ظلام تلك المقبرة منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، وضوء المصباح يكشف مجموعة من محتويات المقبرة في محاولة فاشلة لتقييم الكنز القابع أمامنا»، هذا ما ذكره «كارتر» فعلا في تمام الساعة الثانية من يوم الأحد الموافق 26 نوفمبر 1922، لكن الحقيقة التي فاتته؛ أنه ذكر في المؤلف ذاته مضاعفته للفتحة التي خرقها بجدار المقبرة حتى يستطيع القفز منها إلى داخل الغرفة الخارجية دون أن ينتظر تصريحًا رسميًّا بذلك أو الإعلان عن افتتاحها رسميًّا.

بروفيسور نادر يؤكد:

– تلك هي الحقيقة المدونة في مسودة اليوميات التي كتبها «كارنرفون» أيضا، هذا المتآمر الثاني مع «كارتر» عن الأحداث التي أدت في نهايتها إلى هذا الكشف العظيم، والذى تم تسجيله يوم الأحد الموافق 10 ديسمبر عام 1922، ويقول «كارنرفون» في يومياته:

– «لقد ضاعفنا حجم الفتحة وقفز «كارتر» عبرها إلى الداخل.. وكانت الغرفة الخارجية أعمق بحوالي قدمين و 7 سم عن مستوى آخر الدهليز، ثم راح «كارتر» يجول داخلها وبيده المصباح، وأدركنا جميعًا أننا عثرنا على شيء شديد التفرد وغير مسبوق.

أحمد بك ينظر إلى ماهر مخاطبا:

– لكل ذلك لا يبدو لنا أن ثمة سببا يدفع «كارنرفون» إلى التلاعب في ذكر وقائع ظهر يوم الأحد، 26 نوفمبر 1922، عندما ذكر أنه وابنته وصديقه و«كارتر» دخلوا الغرفة الخارجية قبل التاريخ الذى ادعاه «كارتر» بدخولهم المقبرة لأول مرة ظهيرة يوم 27 نوفمبر ، ويواصل:

– وكان كل شيء معدًّا داخل المقبرة، وتفقدوا الموجودات بدقة أكثر، وهذا الكلام يجعلنا نطرح السؤال التالي: لماذا إذًا هذا الخداع ؟! ولماذا ادعى «كارتر» أنه دخل الغرفة الخارجية لأول مرة يوم 27 نوفمبر، بينما كان قد دخلها ومن معه قبلها بيوم، أي يوم 26 نوفمبر؟!

دكتور عاصم يوضح:

– الإجابة عن هذا السؤال تثبت أن ذلك قد حدث لسبب سياسي بحت، حيث نصت الفقرة الثالثة من تصريح البحث عن الآثار الممنوح لـ«كارنرفون» عام 1915، أي قبل اكتشاف المقبرة بـــ 7 سنوات تقريبًا، والذى كان يُجدد سنويًّا، على «وجوب قيام صاحب التصريح لـ« كارتر» نيابة عن «كارنرفون» بإبلاغ كبير مفتشي آثار الوجه القبلي بالأقصر بأي كشف فور التوصل إليه، وكان يشغل هذا المنصب في ذلك الوقت عالم المصريات البريطاني ريجنالد ركس إنجلباك الذي كان يُحاط علمًا بكل تطورات البحث والحفر.

بروفيسور ناهد تلقي الضوء على جانب آخر:

– قبل هذا الكشف بيومين، أي يوم 24 نوفمبر شهد «كارتر» بنفسه إزالة آخر الأتربة من أسفل قاع الباب الخارجي التالي للدرج، كما كان «كارتر» قد أخذته العظمة بعد أن اكتشف المقبرة المنشودة، وظن أن تدخل المفتش الفرنسي سيكون لمصلحة الآثار المصرية، التي يهيمن عليها آنذاك الفرنسيون؛ لعرقلة عمله وإفشاله، معتقدًا أن الإصرار على وجود أحد المفتشين أثناء فتح المقبرة لم

يكن الغرض منه إلا مراقبته حتى لا تقع تجاوزات.

دكتور عاصم يستحضر شيئا ما من الذكرة فيؤكد:

– علشان كده، دخل اللصوص الأربعة إلى المقبرة، مع علمهم أن هذا خرق للبند الثالث من تصريح العمل في وادي الملوك، لذا حرص «كارتر» و كارنرفون «أن يحصلا على وعد من «كالندر و إيفيلين» ألاّ يفشيا ذلك السر، لكن فيما بعد أسرع «كارتر» في إبلاغ «إنجلباك» بفحص رسمي في أسرع وقت ممكن، وطالما أن الأربعة الكبار وبعدهم الخفراء الموثوق بهم الذين شاركوهم السر احتفظوا بألسنتهم داخل أفواههم.. فلن تكون هناك مشكلة.

أحمد بك يسعد بطرح الحضور، يوافقهم على كل حرف، ويضيف:

– بالضبط كده، وظل سر دخول اللصوص الأربعة إلى الغرفة الخارجية والداخلية مخفيًا ما يزيد على سبعين عامًا. لم يُذَعْ بشكل علني إلا بعد نشر كتاب مثير جدًّا لتلك الأحداث بعنوان « توت عنخ آمون، القصة الخفية » لكاتبه توماس هوفنج مدير (متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك) والذي يحكى فيه الوقائع التي أحاطت بكشف مقبرة «توت»، وخاصة الوثائق الخاصة بعلاقة المتحف بـ«كارنرفون وكارتر» ومن بينها تسللهما خفية إلى المقبرة قبل اكتشافها وفتحها رسميا، ويتابع:

لذا أعاد «هوفنج» ترتيب الوثائق والوقائع الموجودة بين يديه.. مثلما حدثت يوم 26 نوفمبر 1922، كما توصل إلى أن «إيفيلين» وليس «كارتر» هي التي دخلت لأول مرة الغرفة الخارجية، ويرجع ذلك إلى أنها كانت الأصغر حجمًا من بين اللصوص الأربعة، وهذا الاستنتاج معقول ومنطقي.

بروفيسور ناهد تضيف استنتاجا جديدا:

– بعيدًا عن تلك التفاصيل المُملة، يمكننا التأكد من هوس «كارتر» بما رآه داخل المقبرة، بعدما أثملته كنوز الملك لأول مرة لحظة أن أطل برأسه داخلها،

كما أن سر تلك المجموعة لم يقتصر على اقتحام الغرفة الخارجية دون تصريح رسمي بذلك، بل هناك أدلة مهمة أخرى، فما بين يومي الثلاثاء 28 نوفمبر والخميس 30 نوفمبر 1922، اخترق كل منهم الجدار الجصي المؤدي إلى غرفة الدفن، ثم قاموا بفحص محتوياته قبل ثلاثة أشهر من الإعلان الرسمي لفتح المقبرة وغرفة الدفن، وبعد ذلك أعلنوا عن إزالة الباب الجصي كله في حضور المدعوين والشخصيات البارزة يوم الجمعة 16 فبراير 1923، وهذا ما كشفه أيضا كتاب بعنوان «خلف قناع توت»، الصادر عام 1972 للكاتب والمؤرخ بارى واين، الذي أكد فيه أن المقبرة تم فتحها رسميًّا في 16 فبراير 1923، أي قبل افتتاحها الرسمي بثلاثة أشهر،

أحمد بك يؤكد:

– «كارتر» إذاً ومن معه اقتحموا غرفة الدفن نفسها من خلال الثقب المُشار إليه سابقًا، ثم زحفوا إلى غرفة الدفن ليتفحصوها، وبعد ذلك أغلقوها مرة أخرى بقطع الحجارة نفسها التي انتزعوها من الباب الجصي المؤدي إلى غرفة الدفن، وحتى لا ينكشف أمرهم، تعمد «كارتر»، وقت الافتتاح الرسمي للمقبرة،إخفاء مكان الثقب، وذلك عندما وضع أمامه منضدة خشبية ليخفيه عن أعين المدعوين للافتتاح، وهذا ما أكده الباحث الأثري هيرفن هربت في يومياته، حيث قال بالنص: «اختفت المنصة الخشبية الواطئة التي وضعوها بين التمثالين الواقفين اللذين يحرسان باب غرفة الدفن إثر الفتحة في باب الجص، والذى يفترض أنه يفتح لأول مرة منذ ثلاثة آلاف عام».

دكتور عاصم مصمما على رأيه المدعوم بأدلة ووقائع وشهادات الأجانب:

– لذا فإن إحدى البرديات الخاصة بخروج اليهود من مصر قد سُرقت من مقبرة الملك الذهبي عند اكتشافها في عشرينيات القرن الماضي بحسب الكاتبين البريطانيين أندرو كولينز وكريس أوجيلفي هيرالد في كتابهما «توت عنخ آمون، مؤامرة الخروجَ» المشار إليه سابقا، حيث توقعا أن مجرد إفشاء هذا السر كان

كفيلاً بتغيير خريطة الشرق الأوسط، وأضافا أن «كارتر و كارنرفون» كتما أسرارًا تكشف «قصة الخروج اليهودي من مصر»، وهذه القصة تتناقض مع الوقائع والشكل المذكورين في التوراة ، وكررا أنه «لو أفشى سر هذه البردية وعرفها العالم، لم تكن لتسبب فضيحة سياسية ودينية لكل من تآمر على سرقة مقبرة الملك الذهبي فحسب، بل ربما كانت قد غيرت وجه العالم إلى الأبد»، ويؤكد:

– الكاتبان البريطانيان أوضحا أيضا أن المقبرة التي وصفاها بأنها أعظم كشف أثري في التاريخ، وأصبحت حديث العالم، كانت تضم برديات عن خلفيات الصراع الديني منذ عصر الملك إخناتون وحتى وقوع رحلة الخروج، واسترسلا: إن الذين خرجوا من مصر كانوا مصريين يتبعون ديانة إخناتون« فرعون التوحيد» وكهنة مؤمنين بديانة آتون وبعض الآسيويين، دون أي ذكر لقوم «موسى» من اليهود.

بروفيسور ناهد تداعب دكتور عاصم، عندما سألته:

– أنت بخيل يا عاصم؟

– أنا يا دكتور؟!.. يا خبر.. آاااااه فهمت قصدك يا افندم.. والله كنت هاقوم أعمل لكم قهوة مع كام قطعة جاتوه، معلهش سامحيني بروفيسور ناهد، الكلام أخدني و.....

بروفيسور نادر مبتسما:

– على فكرة يا جماعة، دكتور عاصم من أكرم وأنزه الطلبة الذين درست لهم، في الحقيقة كان يهديني كل أسبوع بزوجين حمام مشوي وبرطمان عسل أبيض من منزل أسرته الريفية بإحدى قرى القليوبية.

يبتسم دكتور عاصم، ويشكر أستاذه:

– ياااااه بروفيسور نادر، معاليك لسه فاكر، دي كانت أجمل أيام والله،

وحضرتك كنت ولا تزال لنا جميعا القدوة والمثل الأعلى.

وعلى الفور نهض عاصم من مكانه، وغاب عن ضيوفه 10 دقائق، وعاد إليهم بطبق حلويات كبير، وطبق آخر به فاكهة، ثم صينية شيك عليها القهوة الفرنسي مع عدد من زجاجات المياه المعدنية والجاتوه.

ابتسم أحمد بك:

- عظيمة يا مصر بأولادك «الجدعان»، شفتوا المصريين حلوين ازاي !!، الله عليك يا مصر يا أم الدنيا.

فيما أطلقت بروفيسور ناهد العنان لصوتها الجميل، وغنت:

- المصريين أهما.. حيوية وعزم وهمة.. جيل بعد جيل متقدمييين.. المصريين - المصريين.. المصرييين..هههه.

وردد خلفها الحضور أغنية المطربة الكبيرة ياسمين الخيام، ببهجة حتى غمرتهم السعادة من تلك اللحظات التي استدعوا فيها الروح المصرية الأصيلة.

بعد ذلك كشفت بروفيسور ناهد عما توصلت إليه في أبحاثها عن مقبرة الملك توت:

- لقد نوه أيضًا المؤلفان البريطانيان بأن دخول «كارتر وكارنرفون» مقبرة «توت» خلسة كان بإيعاز من قوى صهيونية، تؤمن بأن الملك «توت» ربما يكون فرعون الخروج، وبالتالي جاء اعتقادهم بوجود وثائق تتعلق بتاريخ تلك الفترة واضطهاد اليهود فيها بالإضافة إلى ما روّجوه عن «قصة الخروج»، ولذلك كان الهدف من دخولهم المقبرة قبل موعد افتتاحها هو الحصول على أي وثائق بردية من هذا النوع، خشية أن تكشف ادعاء المخططات الصهيونية وكذبها.. وتضيف:

- شوفوا يا جماعة، لو أن تلك البرديات كانت قد ظهرت على الملأ، والتي تم إخفاؤها عن عمد، فمن المؤكد أنها كانت ستكشف أيضا أصول الجنس

الإسرائيلي، ومؤسسي عبادة يهوه والغزو الإسرائيلي لكنعان، وكل ذلك سيغلف المعتقدات التقليدية عن أصل الديانة اليهودية والحق الإسرائيلي الإلهي في أرض فلسطين بالشكوك.

أحمد بك يحاول «لم» الموضوع وتلخيصه ليكشف عن «المهمة المقدسة» حسبما ما أطلق عليها:

– معنى كده أن «كارتر» لو كان أعلن عن مضمون هذه البردية، لتحول ذلك إلى سلاح لا رادّ له في يد عرب فلسطين لِدحض ادعاء الصهاينة بحقهم التاريخي في الأرض المحتلة، ولكان قد نسف دعواهم من جذورها، كما يفتح الباب على مصراعيه لعرب فلسطين للمطالبة بإلغاء وعد بلفور أيضًا عام 1917بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وكان كل ذلك وغيره سيصب بالطبع في بؤرة التهديد الذي أبداه «كارتر» بإفشاء محتويات «بردية الخروج»، يعني إحنا أمام مفصل تاريخي لو أننا توصلنا لمعلومات تؤكد هذا الكلام، ويضيف:

– الغريب حقا أن الكاتبين البريطانيين أشارا إلى أنه في عام 1924 ذهب «كارتر» إلى مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة بعد أن اتهمته السلطات المصرية بسرقة بعض مقتنيات المقبرة، وهو الأمر الذي جعله يطلب من مسئولي القنصلية حمايته، وإلا سيُهدد بنشر «نصوص برديات تكشف للعالم كافة، تلك الوقائع الحقيقية التي سجلتها الحكومة المصرية القديمة المعاصرة للخروج اليهودي».

دكتور عاصم يضيف معلومة مهمة جدًّا:

– هذه البردية كانت تحتوي على وقائع وشكل لقصة الخروج تتناقض مع الوقائع والشكل المذكورة به في التوراة ، ولكن المؤلفين البريطانيين لم يقدما إجابة شافية في كتابهما عن أسئلة كثيرة يجب أن يطرحها مُؤلفهما حول مصير البردية المفقودة أو مكانها، وعن نفسي أرجح أن يكون «كارتر» تعمد تدميرها أو سُلمت لجماعة يمثل نص البردية أهمية خاصة لها، أو وضُعت في مكان آمن بعيدًا عن

أعين الفضوليين، ويؤكد:

– لم يكن يعرف سر البردية إلا «كارنرفون وإيفيلن وكارتر وكالينذر» بالإضافة إلى الأمريكي لي كيديك، الذي سجل في مذكراته المنشورة نص تهديد « كارتر» الحاد لنائب القنصل البريطاني بالقاهرة بالإعلان عن مضمون البردية، لذا يمكن اعتبار الكلام المُشار إليه للكاتبين البريطانيين تحقيقا تاريخيا يُقدم بانوراما لكتب وشهادات عن الملك «توت» ومقبرته، ومنها «توت عنخ آمون، الآموني والآتونية والتوحيد المصري» الذي أصدره عام 1923 سير إدجار والس بدج.. و «البحث عن ذهب توت عنخ آمون»، الذي أصدره عام 1976 الأمريكي أرنولد براكمان، والذي أشار فيه إلى محاضرة ألقاها «كارتر» في الولايات المتحدة يوم 23 إبريل عام 1923 أشرف على تنظيمها أمريكي متخصص في تنظيم الندوات، يدعى لي كيديك سجل في مذكراته المناقشة الحادة التي دارت بين «كارتر» ونائب القنصل البريطاني بالقاهرة، كما رواها له كارتر قائلاً : «سأنشر على العالم كله نص البردية التي وجدتها بالمقبرة، والتي تظهر الوقائع الحقيقية لقصة الخروج».

***

*** «آمون».. كانت دولة إله الشمس، ذات الاتساع شاسع المدى بدأت مع عصر الأهرام . ولكن هذا الإله كان يحكم مصر فحسب، وكان مركز عبادته في هليوبوليس (عين شمس حاليا بالقرب من القاهرة) . ونجده في أنشودة الشمس بمتون الأهرام يقف حارسا على الحدود المصرية ليقيم الحواجز التي تمنع الأجانب من دخول مملكته المحروسة مصر. وتعددت عبادة آلهة مختلفة في أقطار مصر ، إلا أنه كان هناك إله ذائع الصيت من شمال مصر لجنوبها ، زاد صيته خلال الدولة الحديثة، وأصبح آمون رع ، وحرص كل فراعنة الدولة الحديثة على إقامة المعابد والصروح له في طيبة. من هؤلاء الفراعنة الذين اهتموا بـ «طيبة»: تحتمس الأول وتحتمس الثاني والملكة حتشبسوت وتحتمس الثالث . وأصبحت طيبة أكبر معبد في العالم لعبادة آمون رع .**

*** أما دعوة إخناتون فقد اختلفت عن سابقيها بوحدانيته دون شريك له، فكان هو رب كل الناس (المصريين والأجانب) وأراد إخناتون بهذا الدين الجديد أن يحل محل القومية المصرية، وقد هجر الملك إخناتون طيبه (الأقصر) رغم ما كان لها من السيادة والأبهة بعيدا عن كهنة آمون، وسمى نفسه (العائش في الصدق) وأقام له حاضرة جديدة وسماها إخيتاتون ، وهي تل العمارنة بمحافظة المنيا حاليا. إلا أن كهنة آمون رع في طيبة قاوموا أفكاره، ورفضوا دينه الجديد بكل الوسائل.**

***

بروفيسور نادر يواصل كشفه الحقائق بمعلومات موثقة لعلماء أجانب وباحثين حياديين:

– لقد سجل لي كيديك أن «كارتر» ونائب القنصل سيطرا على غضبهما وحدّتهما المتبادلة وتوصلا إلى تسوية، ظل بمقتضاها «كارتر» صامتًا عن تلك المسألة.

أحمد بك يستأذن الحضور في الرد على هاتفه الخاص، يقف احتراما وتقديرا لمحدثه، كان من الواضح أن المتصل قيادة كبيرة في الجهة التي يعمل بها ويتابع عن كثب أدق تفاصيل هذه العملية، أنهى أحمد بك المكالمة، وبدأ يشرح بنهم وعزيمة بقية استنتاجاته:

– إذا كانت هذه هي القصة التي دلت عليها بردية «كارتر»، فمن السهل معرفة سبب هيجان الدبلوماسي البريطاني على «كارتر»، حيث كانت سياسة الشرق الأوسط حينذاك متشابكة في كل مناحيها كما هي الآن، وكان ادعاء اليهود بحقوق كاذبة في إقامة موطن لهم هو جوهر الخلاف، إذ كان تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين حلمًا ظل يُداعب عددًا من الشخصيات المهمة في الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر، ثم تبنته الحكومة البريطانية سياسيًّا عند نهاية الحرب

العالمية الأولى، وأيده رئيس الوزراء «بلفور»، وبطبيعة الحال ثار الرأي العام العربي، وأدى الإحباط الناتج عن تلك الجريمة التاريخية إلى شغب وتظاهرات في شوارع القدس ويافا، وصارت المنطقة بأكملها على وشك الانفجار.

بروفيسور ناهد تُكمل ما بدأته بنفس الإصرار والتحدي:

– معنى كده يا جماعة إنه في مثل هذه الظروف التي اعتمد فيها الصهاينة على القصة التوراتية، كان بوسع العرب ومعارضي «إقامة» الدولة اليهودية الاعتماد على بطلان هذه القصة «تاريخيًّا» لتصديهم للصهاينة.. فإذا كان سيدنا «موسى» -عليه وعلى نبينا وأنبياء الله أفضل الصلاة والسلام ـ وأتباعه من المصريين هم أجانب، فأي حق لليهود إذًّا في فلسطين؟!

بروفيسور نادر يُسلم بأمر الاحتمال الممكن حدوثه كبداية لحقيقة مؤكدة:

– على أي حال، ورغم كل ما نشر عن بردية «توت»، لم يتيسر العثور عليها بعد ذلك عند جرد محتويات المقبرة التي نُقلت إلى المتحف المصري بالقاهرة، تحدث «كارنرفون» مرتين عن هذه البرديات قبل موته في رسالتين بعث بهما إلى عدد من أصدقائه، ونشرت محتوياتهما جريدتا «التايمز اللندنية والنيويورك تايمز الأمريكية» في حينها، ويردف:

– كما ذكر البريطاني واليس بادج، المسئول عن الآثار المصرية في الأقصر عند افتتاح المقبرة، أن «كارتر» بعث، على أثر اكتشافه للمقبرة، برسالة إلى عالم اللغويات آلان جاردنر في لندن يطلب منه الحضور فورًا إلى مصر، لأنه وجد صندوقًا في المقبرة، به لفائف مكتوبة من أوراق البردي، تحوي معلومات سيكون لها أثر كبير في اعتقادات الغرب المسيحي، ويريد من الخبير البريطاني ترجمتها، إلا أن «جاردنر» بدلاً من العثور على تلك البرديات لترجمتها.. لم يجد سوى قطع من الملابس الداخلية للملك، وحينها اعتذر «كارتر»، وادعى أنه أخطأ في التعرف على القماش التيلي، مدعيًا أنه من أوراق البردي.

دكتور ماهر يستشهد هو الآخر بما قرأه في مكتبة سارة لعلماء آثار ثقات عن المقبرة:

- عفوا يا جماعة، الآن تذكرت ما قرأته عن هذه القصة في بعض الكتب الموجودة في مكتبة فيلا زوجتي، من الغريب حقًا اختفاء أي لفائف بردية من مقبرة الملك «توت»، التي وجدت بكل محتوياتها، ذلك أن قدماء المصريين كانوا يحرصون على وضع نسخ من كتاب الموتى في مقابرهم، فكيف تكون هذه المقبرة خالية منه؟؟!!

بروفيسور نادر يتفق ويدعم كلام دكتور ماهر، ومع ذلك قاطعه:

- في فصل عنوانه «الفضيحة» للكاتبين البريطانيين في ذات المؤلف المشار إليه، نجدهما قد شددا على افتقاد «كارتر وكارنرفون» الأمانة العلمية والمهنية في التعامل مع مقبرة الملك الذهبي، ووصفا ممارسة أنشطتهما بـــ «المشبوهة»و «الغزوات السرية» للمقبرة والاستيلاء على « البردية المفقودة».. لذا فإن تلك الأسرار لو أفشيت، لدمرت سمعة «كارنرفون» كأرستقراطي بريطاني يحظى باحترام في جميع أرجاء العالم، كما كان الدمار سيلحق أيضا بسمعة «كارتر» بوصفه أشهر عالم مصريات عرفه العالم إلا أنه مجرد لص آثار ليس إلا، ويتابع:

- تلك الأسرار ربما تكون هي السبب الحقيقي في موت «كارنرفون» المبكر كما ظن الكثيرون، حيث توفي في فندق جراند كونتنتال بالقاهرة يوم 5 إبريل عام 1923 إثر لدغة بعوضة، تضاعف أثرها نتيجة استخدام «كارنرفون» لشفرة حلاقة زادت من التهابها بعد أن جرح موضع اللدغة.. مما تسبب في تدهور صحته. وقد شخص الأطباء حالته على «أنها تسمم عام بالدم».

بروفيسور نادر يستشهد في هذا الموضع بما ذكره الصحفي الراحل محسن محمد مؤلف كتاب «سرقة ملك مصر» عندما علق على الحقائق المفجعة التي

جاءت في مؤلف الكاتبين البريطانيين، فيقول:

– لقد وصف محسن محمد المُؤلِفَّ المشار إليه حين صدرت طبعته الأولى عام 2002 بأنه «قنبلة سياسية»، وفي حال طلبت بريطانيا إعادة فحص جثمان اللورد كارنرفون، فقد يُعرف سبب وفاته، وربما يكون السبب جريمة.. الهدف منها أن يختفي الرجل الذي مول عملية البحث عن مقبرة «توت»، وبذلك كشف أكذوبة أن فلسطين وطن قومي لليهود، وفي مقال بمجلة «آخر ساعة» يوم 14 أغسطس عام 2002،توقع محسن محمد أيضا أن «كارنرفون وكارتر» سرقا قطعًا من المقبرة، وباعاها لمتحف المتروبوليتان في نيويورك وغيره، مستندا في ذلك إلى وجود قطعٍ من تلك الآثار في بيت «كارتر» عند وفاته، كما عُثر على قطع أثرية أخرى من مقبرة الملك «توت» في قصر اللورد بإنجلترا، إضافة إلى أن 60٪ من مجوهرات تلك المقبرة تمت سرقتها حسبما نقلت وكالة رويترز البريطانية في وقتها.

أحمد بك يضع يده على جبهته، ويسب ويلعن – بصوت عالٍ– هؤلاء اللصوص وكل من امتدت يده أو ساهم بشكل أو بآخر في سرقة كنوز الأجداد:

– الأمر المحير حقا هنا يا جماعة هو العلاقة القوية بين «كارنرفون» وعائلة روتشيلد التي موّلت هجرة اليهود إلى فلسطين منذ بداية القرن العشرين، ودعمت نفوذ الحركة الصهيونية في أوروبا الغربية، ولا يفوتنا ربط كل ذلك بحقيقة أن اللورد روتشيلد هو الذي تلقى وعد بلفور من رئيس الوزراء البريطاني في نوفمبر 1917، نيابة عن المؤسسة الصهيونية كما ذكرنا، وهذه العلاقة - بحسب الكاتبين البريطانيين – ربطت بين «كارنرفون» وعائلة روتشيلد حتى قبل حصوله على التصريح بالتنقيب في وادي الملوك، حيث تبين أن اللورد البريطاني لم يكن من الأغنياء كما ساد الاعتقاد، بل كان يعاني من أزمة مالية كبيرة، وكان الطريق الذي حصل به على أموال تمويل عملية البحث عن مقبرة «توت» هو الزواج من يهودية

تدعى ألمينا ومبويل ابنة أحد أشهر زعماء الحركة الصهيونية.

دكتور ماهر ينتقي أحد الكتب الأجنبية التي كان يطالعها من وقت لآخر في معرضه، ويُطِلع الحضور على معلومات مشابهة لتلك التي تحدث أحمد بك عنها:

– تأكيدا لكلام أحمد بك، فإن «كارنرفون» استخدم أموال زوجته في تمويل اكتشاف مقبرة الملك الذهبي، وعندما مات ألفريد روتشيلد عام 1917 وهو أعزب ولم يتزوج، كانت فرصة نادرة أن ترث ألمينا – رغم أنها ابنة غير شرعية له كما أشيع - كل ثروته، وبحسب المؤلفات التي صدرت لعلماء أجانب ثقات عن وفاة «كارنرفون»، يتضح أنه رحل بعد ستة أشهر من افتتاح المقبرة، إثر مؤامرة بشرية أرادت الاستحواذ على «الوثائق البردية» لإخفاء ما بها من معلومات، ثم استمرت تلك المؤامرة حتى تم التخلص من بقية الشهود الذين علموا وشاهدوا افتتاح المقبرة.

بروفيسور ناهد تمسك بين أصابعها كتابا للدكتور مصطفى محمود بعنوان «البداية والنهاية»، وتقرأ منه الجمل الآتية، وتستأذن الحضور بأن يركزوا فيما ستقرؤه عليهم، فتقول:

– لقد حاول مفكرون يهود على مر التاريخ أن يعالجوا هذه النفس اليهودية، فلم ينجحوا، ولم ينالوا من أبناء جلدتهم إلا السخرية والتجريح، ومنهم باروخ سبينوزا الذي آمن بأن نهاية شقاء اليهود وشقاء العالم بهم لن تكون إلا بتخلصهم من النعرة القومية والأفضلية العنصرية التي تفسد ما بينهم وبين الناس، وكان يرى أن التمسك بفلسطين والعودة إلى أرض الأجداد وإقامة الهيكل عقدة وهمية وأسطورة، وأن الله في كل مكان وهو يسمع الدعاء من أي بقعة في الأرض، فما كان جزاؤه إلا اتهامه بالكفر والتآمر على قتله.

أحمد بك يكرر محاولته «لم» الموضوع مع التأكيد على ما تم التوافق عليه من

معلومات صادمة:

– معنى ذلك يا جماعة أن «كارتر» لجأ إلى هذا الكذب لإقناع الحكومة المصرية وقتذاك بأن المقبرة تعرضت للسرقة، مما يجعله طبقًا لقانون القسمة يحصل على 10 ٪ من آثار المقبرة، كما أن لجنة الفحص التي قامت بفحص أعماله كشفت عن محاولته إخفاء قطع أثرية في صندوق خمور باستراحته المجاورة لمقبرته من أجل تهريبها، ويردف:

– لذا أتوقع أن يكون «كارتر» قد قام بالتعامل مع المقبرة على أنها كنز شخصي، وأهدى قطعًا منها إلى طبيب أسنانه، كما أهدى سكرتيره حبات من الخرز الأزرق من عقد كان حول رقبة «توت» وأهدى كذلك إلى بارون النفط الأمريكي إدوارد هاركنس، خاتمًا ذهبيًّا من خواتم الملك!!

دكتور ماهر يعود قليلا لثورة 1919، ليضيف بعدا قوميا لوطنية زعيم الأمة سعد زغلول في هذه الواقعة:

– الراحل سعد باشا زغلول حذر اللص «كارتر» من تكرار دخوله لمقبرة الملك الذهبي إلا بوجود مندوب من الحكومة المصرية، حيث أثبتت الأيام أن عالم المصريات هذا ما هو إلا لص حضارة، بشهادة عدد لابأس به من العلماء والباحثين والخبراء.

***

*** سعد باشا زغلول.. سياسي مصري شهير. وأحد مؤسسي الليبرالية في مصر. تولى منصب رئاسة الوزراء من 26 يناير 1923 وحتى 24 نوفمبر1924. وهو شقيق القاضي أحمد فتحي زغلول. تعود أصوله لقرية إبيانة في محافظة الغربية، وحالياً تتبع كفر الشيخ. ولد في 1859، وتوفي في 23 أغسطس 1927. قاد حزب القوة الوطنية «الوفد حالياً» الذي طالب بالاستقلال عن البريطانيين**

ورحيلهم عن مصر، اعتقله الإنجليز أكثر من مرة، بسبب الاحتجاجات والعصيان المدني اللذيْن قادهما ضد سياستهم القمعية.

***

بروفيسور ناهد تُضيف بعض الكلمات عن تحمل سعد زغلول للحملة الإعلامية الغربية التي انتقدته بسبب موقفه من «كارتر»:

– ويحسب لزعيم الأمة تحمله كافة الضغوط التي تعرض لها بسبب منعه «كارتر» من دخول مقبرة الملك إلا في وجود مندوب من الحكومة المصرية.. وبعد مضي حوالي خمسة وأربعين عامًا على هذا الحدث.. بدأت خيوط الفضيحة تتكشف من جديد، حينما نقلت صحف العالم عن توماس هوفنج – مدير متحف المتروبوليتان في نيويورك – اعترافه بأن «كارتر» سرق من المقبرة 29 قطعة نادرة من آثار «توت» وزعها على أربعة متاحف أمريكية، عشرين منها في متحف متروبوليتان وحده.. والبعض الآخر بمتحف بروكلين ومتحف كانساس سيتى وغيرها من المتاحف العالمية.

دكتور عاصم يركز حديثه على ربط محتوى البردية المسروقة بالأوضاع السياسية السائدة في المنطقة خلال تلك الفترة، فيقول:

– ما يجب لفت الانتباه إليه أيضاهو الربط الذي أراده «هوفنج» بين البردية التي نتحدث عنها، وما كان يجري على المسرح السياسي في المنطقة خاصة والعالم أيضا، تحديدا في ظل طغيان مسألة الوجود اليهودي في أوروبا، والاتفاقات الخفية التي أسفرت عن وعد بلفور المشئوم.

بروفيسور نادر يعود لما ذكر في مُؤلَّف الكاتبين البريطانيين، ويقرأ منه:

– لم يكن «كارتر» ليهدد المسئول البريطاني تهديدًا أجوف في الوقت الذي

كانت فيه المسألة الفلسطينية اليهودية تتضاعف حدتها، وتسبب لهم أرقًا.. فكان على «كارتر» أن يغلق فمه نهائيًّا عن هذا الأمر.. رغم أنه يعرف معلومات لا يعرفها إلا هو، وربما «كارنرفون»، عن العلاقة بين الفترة التاريخية لـ «تل العمارنة» المضطربة، التي اتسمت بالغموض وانتشار الفتن، وبين الأحداث التي أحاطت بحياة سيدنا «موسى» وعصره .

دكتور ناهد تؤكد أن محتوى كتاب «هوفنج» يكشف عن معلومات غير متوافرة في التاريخ التوراتي، وغير معروفة في صفحات التاريخ المصري المتعارف عليه حاليًّا:

– هذا المؤلف يفضح جريمة اللصين« كارتر وكارنرفون» بعد أن أخفيا عمدًا وثائق البردي التي عثرا عليها في المقبرة، والتي ربما احتوت على أسفار من العهد القديم حول عصر سيدنا «موسى» والأحداث التاريخية المذكورة في سفر الخروج بالتوراة، حيث قالا بأنها لا تحتوي على قيمة تاريخية، ويغلب عليها طابع التعميم والشمولية !!كما لفت «هوفنج» إلى أن «كارتر» ربما قد توصل إلى التحديد الدقيق للحقبة الزمنية التي وقعت خلالها حادثة الخروج، بشكل ينسف النظرية التي روج لها الصهاينة، والتي تقول إن «الخروج تم في عصر رمسيس الأعظم، وهو ما جعله يتجه إلى القنصلية البريطانية عام 1924، وبكل ثقة، ليهدد نائب القنصل البريطاني بكشفه للحقيقة المرة » كما سبق أن ذكرنا.

أحمد بك يصل بالحضور إلى المحطة الأخيرة لتحديد الهدف المنشود ووضع الخطة التي اتفق عليها مع قياداته:

– بعد كل هذه المعلومات يا دكتور ماهر، لا بد أن نسعى وبكل ما أوتينا من قوة للحصول على أي وكل شيء يمت بصلة لهذا الموضوع في خزائن سارة، وبالمناسبة فيلا سارة بها سرداب تحت الأرض لا يقل عمقه عن 7 متر، به كنوز

ومعلومات غير عادية تركها لها زوجها بعد وفاته.

دكتور ماهر يبتسم بعدما ألقى رجل المخابرات الكرة في ملعبه لتحديد المهمة التي سيقوم بها، فقال وعلامات التعجب ترتسم على وجهه:

- سرداب؟!، وفي فيلا سارة؟!.. هو حضرتك دخلت الفيلا دي يا افندم قبلي دون علمي؟!

- لا حبيبي خالص، لكن لديَّ معلومات دقيقة عن سارة وأقاربها وكل من له صلة بها، داخل أمريكا أو خارجها باستثناء علاقاتها وخالها بتجار الآثار، وهذا ما أحتاجه منك وبأسرع وقت ممكن.

إلى هنا ظهر الإرهاق على ماهر لكثرة تركيزه في كتابة هذا الفصل في مذكراته، ويستسلم للنوم بعد أن سبقه الجميع، وغاصوا في نوم عميق، على أمل أن يُدوِّن المزيد والمزيد بعد لقائه بمحاميه صباح هذا اليوم.

■ الفصل الثاني عشر
التمويل الأجـنبي

قبل أن يُقابل ماهر محاميه، ظل يحكي قصصا ممتعة للمحبوسـين عـن مصـر العظيمة وثرواتها وجيشها وجغرافيتها ورغبة وطمـع العـالم القـديم والحـديث في السيطرة عليها، كما كان يبحر بهم في رحلات صادمة عن عمالـة وخيانـة جماعـات التأسلم السياسي، إلى جانب الجرعات الإيمانيـة والروحانيـة المفيـدة التـي كـان يغذي بها نفوسهم من وقت لآخر.

يوم 30مارس 2012 في تمام الساعة 12 ظهراً،ميعاد الزيـارة الخامسـة، قابـل مدحت موكله هذه المرة بمفرده متعمدا ليكشف لـه مـا في جعبتـه مـن معلومـات مهمة، نقلا عن مدير سابق للإدارة المركزية لآثار مصر الوسطى بخصوص سـرقة المتحف المصري.

قبل أن يبدأ المحامي في الحديث، عاجله ماهر:

- تعرف يا مدحت أن هذا الأثري من أعز أصدقائي وأوفى مصادري.

- أكيد يا ماهر، وهو متعاطف معك جدًّا، وعنـدما سـألته عـن جريمـة سـرقة متحف التحرير وعلاقتك بها، ضحك بشكل هستيري، واستمر يسب ويلعن مافيـا الآثار الداخلية والخارجية على السواء، كما أكد لي أن جريمة سرقة المتحف كانت

مدبرة، وقد نقل عنه الإعلام حينها قيامه بعرض فيديو لمجموعة من اللصوص وهم يسرقون المتحف يوم 28 يناير 2011 أثناء الثورة، وللأسف الشديد في ظل وجود كاميرات تراقب المتحف، وكشف عن أن تكلفة تلك الكاميرات زادت على الـ 80 مليون جنيه، وأن الشرائط التي سجلتها كاميرات المتحف أثناء اقتحامه اختفت تمامًا بفعل فاعل!!

وأضاف مدحت على لسان مدير الإدارة المركزية لآثار مصر الوسطى:

– وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إن الآثار التي نهبت، خاصة بعهد الملك إخناتون وابنه الملك توت عنخ آمون، وهي التي يسعى وراءها اليهود لإثبات عبرانيتها وحقهم المزعوم في مصر كما يدعون، مضافا على ذلك قيام ذات المافيا بنهب الكثير من المخازن الأثرية بالكامل، لذا يجب التحذير من محاولات الصهيونية العالمية نسبة الأهرامات وبعض الآثار المصرية لليهود، أي «صَهْيَنَة الآثار المصرية»!!

ماهر ينصت جيدا – كعادته – للمعلومات التي يكشف عنها محاميه، وفي ذات الوقت شرد ذهنه ليتذكر الحديث الذي سبق ودار بينه وبين نفس الخبير الأثري في وقت سابق ، وقت أن قال بالحرف الواحد:

– لم يدرك غالبية المصريين ما حدث منذ أعوام قليلة عندما سمحنا لعناصر الجمعية الأمريكية المشبوهة بأخذ عينة من رفات الملك «توت»، وادعوا أنهم أجروا اختبار «DNA. دي إن ايه» عليها ليخرجوا بنتيجة كاذبة هي أن «توت غنخ آمون» عبراني وليس مصريا بنسبة لا تقل عن 95٪.. وهذا ما ادعوه أيضا على والده إخناتون بأنه هو نبي من أنبياء بني إسرائيل..وهو الأمر الذي منح الصهاينة بالخارج الفرصة لإقامة احتفالية كبرى أظهروا من خلالها أن الملك «توت» أبيض الوجه ذو سمات عبرانية. وبصراحة ليس اللوم عليهم، ولكن اللوم كل اللوم على أبناء جلدتنا الذين شاركوا في هذا الجرم، حينها تساءل هذا الأثري:

– لماذا تم التركيز على محاولة سرقة مجموعة «توت وإخناتون» دون غيرها

من المقتنيات الثمينة من متحف التحرير يوم 28 يناير 2011؟؟ !!

مدحت يحاول قطع لحظات الشرود التي شاهدها على وجه ماهر عدة مرات دون جدوى، بعد لحظات ينتبه ماهر لصوت مدحت، فيقدم له اعتذاره، ويكشف عما ذهب إليه في تلك الدقائق المعدودة:

- أظن وقت الزيارة أوشك على الانتهاء يا مدحت، ومن ثم أصبح لديك كم من المعلومات والمستندات التي تبرئ ساحتي من تلك التهم، وتكشف في الوقت نفسه كل أطراف جريمة سرقة المتحف.

بعد ذلك يعود ماهر إلى محبسه، فيما يذهب مدحت إلى مكتبه بمنزله استعدادًا لترتيب الملف الكامل للقضية: صور، مستندات، تسجيلات، و..... على مائدة الطعام، تسأله زوجته مارجريت عن سير قضية صديقه والجديد فيها.. فيوضح:

- الآن حبيبتي، جمعت ما استطعت من معلومات تنسف القضية برمتها، وتبرئ ساحة ماهر من كل التهم المنسوبة إليه، ومش كده وبس، لأ ده أنا كمان هاطالب له بتعويض 10 ملايين من «لآثار» بسبب الأضرار المادية والمعنوية التي لحقت به وبجريدته وكل العاملين فيها.

تبتسم مارجريت، وتفخر من براعة زوجها وتوقعها بزيادة أتعابه على مجهوده في قضية صديقه، ثم تداعبه:

- العشرة ملايين التعويض دول لازم يكون لينا فيهم نسبة يا مدحت، مصاريف ابننا في مدرسة اللغات حبيبي السنة الجاية لسه ما «دبرناش»، هههههه.

- يااااه عليك مارجريت، حاضر يا ستي ربنا يسهل إن شاء الله تعالي، إحنا بس في إيه وانت بتفكري في إيه؟! الله يهديك!!

داخل غرفة الحجز يطلب ماهر من «أنتيكا» واحد شاي في الـ «خمسينة»

وبسرعة، يتفحص المعلومات المنشورة في الجرائد التي أخذها من مدحت على لسان مصادر أثرية ثقات وهو يرتشف الشاي، فتقع عينه على معلومات خطيرة على لسان مدير سابق لإدارة المضبوطات الأثرية، يكشف فيها عن سرقة 74 قطعة آثار من متحف التحرير أثناء الانفلات الأمني، أهمها تمثال إخناتون. يتنهد ماهر ، ويهمس بصوت خافت:

– آاااه، تمثال إخناتون، بكده اكتملت المؤامرة يا أولاد (.....) مع بني صهيون.

يُخرج ماهر هاتفه المحمول المخبأ داخل ملابسه، ويطلب صهره ضابط الشرطة:

– ألو نسيبي الغالي والحبيب، ضابطنا الهمام «جيمس بوند»؟

– هههههه، أكيد هتكلفني بمهمة مستحيلة، أهلا أهلا حبيبي دكتور ماهر، خير طمني عليك، ده رقمك؟!، طيب أنت بتتكلم منين؟!

– من الحجز يا أخي، هاكون باتكلم منين يعني! اسمعني كويس، دي العملية احلَوّت أوي، كاميرات متحف التحرير كانت متعطلة علشان المجرمين يسرقوا اللي هم عاوزينه من كنوزنا، وبعدين يتهموني وغيري ظلما وعدوانا أولاد الـــ «.....».

– طيب حبيبي، المطلوب مني إيه؟ وإن شاء أنفذه بالحرف.

– عاوزك تفوت على مدحت في مكتبه، انت ومُنى، وتكلم دكتورة زوزو تيجي معاكم لزيارة متحف التحرير، وتركزوا في كل قطعة وكل ركن وكل موظف فيه، حتى القطع اللي أنا متهم بسرقتها، اعرفوا كل شيء عنها.

مدحت ومحمود ومُني وزوزو يزورون متحف التحرير، ويبدءون في سؤال جميع موظفيه بعد أن استأذن مدحت النيابة، لم تكن تلك الزيارة عادية، بل كانت زيارة خبراء: آثار وأمن وقضاء، حيث إنهم درسوا بدقة كل كلمة وكل حرف وكل

صورة وكل معلومة جاءت في تحقيق سرقة هذا المتحف، سواء على لسان الأثريين أو من خلال تحقيقات النيابة على لسان اللصوص الـذين ارتكبـوا هـذه الجريمـة، الأمر الذي جعلهم يكتشفون أسراراً خطيرة تدين شخصيات أثريـة كبيـرة، كانـت موجودة في ذلك الوقيت.

في غرفة الحجز يفاجأ ماهر بـ «خناقة» معتبرة بين «أنتيكا» وأحـد المحبوسـين على علبة سجاير من نوع «كليوباترا».

يتدخل ماهر لتهدئة الموقف، ويخرج من حقيبتـه «قروسـة سـجاير روثمـان» ويوزعها على الجميع، وبعد أن تهدأ عاصفة الخلافات بقليـل، يـأتي بالمتشـاجرين ويصالحهما على بعضهما، وبهذه المناسبة يقـيم المحتجـزون حفـل غنـاء مُـدعم بشاي كشري وسجائر، ليسعد فيه الجميع.

مع غروب الشمس ودخول الليل يخلد عدد من المحبوسين إلى النوم، ويُصـر بقيتهم على الحديث مع ماهر عن مصر التاريخ والجغرافيا والإنسـان، فلبـيَّ مـاهر طلبهم.

ولم يتبقَّ لماهر سوي أربع ساعات فقط عـلى مقابلـة محاميـه، فصـمم عـلى أن يقضيها في كتابة ما بدأه بعد أن أخذ قسطا من النوم ليمسك بقلمه، ويبدأ الكتابة:

– هاتفتني سارة من إنجلترا لتطمئنني على شقيقها، وتؤكد لي أن ميعاد وصولها إلى كاليفورنيا في اليوم التالي الساعة الرابعة عصرا. ذهبـت إلى المطـار لاسـتقبالها، داخل السيارة، أثناء حديثنا في الطريق، أخبرتني بموضـوع غايـة في الأهميـة، وهـو تمويل جريدة في بلدي باسمي، ترددت حقيقة في البداية، لكنى استأذنتها في منحـي بعض الوقت للتفكيـر، حتـى أدرس المشـروع مـن كـل جوانيـه. ويصـف مـاهر سعادته بتلك الأخبار مع زوجته، فيكتب:

– قضينا يوما رائعا في الفيلا بكل ما تحملـه الكلمـة مـن معنـي، ولا أدري كيـف جاءتني فكرة استئذان سارة للـذهاب إلى الصـلاة في أقـرب مسـجد في كاليفورنيـا، لم

تمانع، بل العكس، شجعتني جدًّا، ومن نافلة القول أنها سبق وخصصت لي غرفة داخل الفيلا بها: 3 نسخ من القرآن الكريم بتفاسيرها، وكذلك من التوراة والإنجيل، المهم في طريقي للمسجد اتصلت برقم هاتف أحمد بك الذي سبق وأعطاني إياه وأوصاني بعدم الاتصال إلا للضرورة القصوى، وما هي إلا لحظات ووجدته أمامي، شرحت له ما دار بيني وبين سارة عن مشروع الجريدة الجديدة، فهنأني:

- ألف مبروك مقدما يا ماهر، هذه الخطوة جاءت متأخرة إلى حد ما.

- كيف؟ هل كنتم.....؟!

- لا تندهش يا ماهر، فلدينا بعض التسجيلات لسارة وعدد آخر من أقاربها ومعارفها، وهم يتناقشون حول موضوع تمويل جريدة باسمك في مصر منذ أن رأت سارة فيك ما تتمناه، على أن تدافع في جريدتك هذه، عن البعثات الأثرية الأجنبية في بلدك، والتي تخصهم دون غيرها.

- بصراحة، أنا مش فاهم حاجة خالص يا افندم.

- ليه بس يا ماهر؟ الموضوع بسيط جدًّا، مافيا الآثار وظفت سارة لتجنيدك لصالحهم، وهم متأكدون أنك لن ترفض لها طلبا، مع علمهم أنها «بتموت» فيك، هههههه، آدي يا سيدي كل الحكاية باختصار شديد.

ماهر بنوع من الخجل:

- لو سمحت يا افندم الأمور دي ما فيهاش.....

- يا أخي أنا باضحك معاك، ما تبقاش حنبلي كده، المهم لازم توافق على مشروع الجريدة، وتنزل حالًا مصر وتنفذه، وإحنا هنسهل لك كل الخطوات اللازمة، والآن لازم ترجع لسارة بسرعة علشان ما تتأخرش عليها أكتر من كده.

صراع فكري يدور برأس ماهر عن أولويات مهمته الجديدة، فيقول:

- عدت إلى سارة، وقلت لها بالحرف، شوفي يا ست سارة....

سارة بهدوء تام ونظرات حانية ممزوجة بإعجاب وهيام:

- أيوه يا سي ماهر، يا جوزي يا حبيبي، قول يا سي السيد، كلي آذان مصغية، هههههه.

- بلاش تتريقي والنبي.....

سارة تواصل المداعبة بنوع من «الرخامة» التي اكتسبتها من بعض الصغار الذين كانوا يلعبون معها في الصِغر بالأقصر:

- النبي محمد بتاعكم، ولا موسى بتاعنا؟

- مافيش فايدة فيك، كل الأنبياء بتوعنا وبتوعكم.

- جميل، ما شي يا شيخ ماهر هههههه، قول يا حبيبي، سامعاك وبادوب في هواااك، هههه.

- أنا صليت صلاة الاستخارة، ووافقت على مشروع الجريدة و.....

- عظيم جدًّا يا ماهر، بس إيه هي صلاة الاستخارة دي؟.. أنا أول مرة أسمع عنها...

- إشمعنى دي بقى اللي فاتتك يا أم العريف؟

سارة مبتسمة هههههه، وتعاود مسلسل «الرخامة»:

- طيب يا ماهر، أنا أم العريف؟.. إنت كدهووووو....

- بدأت سارة تتصنع الغضب حتى ترى رد فعلي على وجهي، وتختبر مكانتها عندي، فأقسمت لها بالله ما أقصد أبدا، وأني بس باضحك معاها مش أكتر.

سارة بمودة ودلال:

- ولا يهمك حبيبي، أنا عارفة، المهم بسرعة البس علشان هنروح مشوار بسيط وقريب عند ناس معرفة.

- ناس؟.. خير يااااارب، ناس مين حبيبتي؟

- اللي هيمولوا مشروع الجورنال حبيبي.

- ليه كده بس؟ يعني مش انت اللي هتمولي؟!

- لا حبيبي، أنا بس هاكتفي بمقال أسبوعي «عمود» يادوب في حدود الـ 400 كلمة عن الإعلام والآثار في جريدتك، تحت عنوان «كليوباترا».. هههههه، يلا بقي بلاش كلام كتير.

- خلال 30 دقيقة تقريبا بالسيارة، وصلنا إلى قصر فخم جدًّا بأطراف ولاية كاليفورنيا، وفي لمح البصر استقبلنا خمسة ملياردريرات يهود، 3 رجال وسيدتان، جلسنا معهم ما يقرب من الساعة، اتفقنا فيها على كل شيء، بعد ذلك عدت مع سارة، ويردف:

- أقمت مع سارة حوالي 15 يوما من هذا الاتفاق، سافرت بعدها إلى مصر بعد أن ودعتها، ووعدتها بالعودة إليها بعد ثلاثة أشهر على أقصى تقدير، كما وعدتني هي بالزيارات المتقطعة للقاهرة من وقت لآخر إذا سمحت لها الظروف، وبمجرد أن وطئت قدمي مطار القاهرة، وجدت أحمد بك يستقبلني بحفاوة بالغة، ويقول:

- بطل مصر والله يا ماهر حبيبي، ألف حمد الله على سلامتك، طمني على أمورك و... عموما عاوز أقول لك إن كل إجراءات الجورنال تمت، فلا تحمل أي هم، وكل ما عليك الآن هو اختيار عدد من الشباب المهني علشان يساعدوك في تأسيس الجرنال الورقي والموقع الإلكتروني.

- والله مش عارف أقول لحضرتك إيه يا افندم....

- ما تقولش حاجة، إن شاء الله تعالى، ها نتقابل بعدين، اخرج بسرعة سلم على زوجتك وأولادك وأهلها وأهلك، وكمان بالمرة تسلم على دكتورة زوزو وزوجها، والله يا دكتور ماهر، الدكتورة زوزو دي ست بميت راجل ، وكمان زوجها، إنسان في قمة الاحترام والوطنية، وواضح إنه بيعزك جدًّا، المهم اخرج بسرعة لأن

الجميع في انتظارك بقالهم 3 ساعات.

يصف ماهر هذه اللحظة:

- خرجت من المطار في غضون دقائق معدودة حتى بدون تفتيش من رجال الأمن لحقائبي، استقبلتني زوجتي الحبيبة وطفلاي وأسرتي وأسرة ميار، بالإضافة إلى دكتورة زوزو وزوجها، صافحت الجميع، وشكرتهم على الاهتمام لاستقبالي، ثم أهديت دكتورة زوزو وزوجها – كالعادة – عددا من المؤلفات الأجنبية عن حضارتنا وآثارنا، ثم ودعتهما على أمل اللقاء بهما في أقرب وقت ممكن، ويردف:

- بعد ذلك استقللنا سيارتين، وأقمنا جميعا في فيلتي بمنطقة 6 أكتوبر، قضينا أياما من أروع ما يمكن، ثم سلمت والدي مبلغًا كبيرًا من المال ليسترد قيراطين الأرض من المستشار عبد الحليم باشا، وبالفعل وافق الرجل الكريم على طلب والدي إثر مكالمة هاتفية بينهما، تحدثت معهم بشأن الجريدة التي سأترأس مجلس إدارتها وتحريرها دون تفاصيل لا تخصهم كأهل يتمنون كل الخير لي، كما تواصلت بعد استلامي لعملي في الجامعة مع زملائي وأساتذتي في إعلام القاهرة، ليدعموني بمقالاتهم الأسبوعية، بالإضافة إلى اختياري لعدد من الصحفيين المهنيين أعضاء نقابة الصحفيين، ومن تلاميذي الذين اخترتهم من خلال محاضراتي في الجامعة لتدريبهم معي. بالإضافة لعدد آخر من الكتاب الكبار، من بينهم دكتورة زوزو، هذه كانت خطوتي الأولى. ويُكمل ماهر:

- أما الخطوة الثانية، فقد استأجرت دورا كاملا بأفخم أبراج القاهرة القريبة من كورنيش النيل بمنطقة جاردن سيتي، عقدت اجتماعا لهيئة التحرير وآخر للإداريين و..... نظمنا العمل واتفقنا على موعد إصدار العدد «زيرو».. بعد 10 أيام من الاجتماع، طبعنا العدد الذي نال إعجاب أهل الاختصاص وقراء عاديين تم اختيارهم من كل شرائح المجتمع المختلفة، ثم بدأنا الانتظام في طبع العدد الدوري يوم الأربعاء من كل أسبوع، كانت الجريدة شاملة كاملة، تتميز

بالتحقيقات الاستقصائية عن الفساد والمفسدين في كل مناحي الحياة داخل مصر، ويتابع ماهر:

– أما بخصوص الآثار، فكنت أصمم على الكتابة فيها بشكل منفرد، نظرا لخبرتي الطويلة والعميقة بدهاليزها، بعد استئذان أحمد بك ورؤسائه، هؤلاء الذين ظلوا متعاطفين معي ومع كل وطني حر شريف يدافع عن حضارة بلده وتاريخه العظيم، كما كانت تساعدني في هذا الملف من وقت لآخر الأستاذة ميرفت (رئيسة التحرير) والدكتورة زوزو بمقالاتها الثرية حقيقة، والتي لفتت انتباه القراء.

■ الفصل الثالث عشر
حقائق مُفجِعـــــة

وحتى يضمن ماهر إصدار أعداد قوية من الجريدة، كان يُصمم على إجراء بعض الحوارات المتميزة بنفسه مع شخصيات ذات ثقل ثقافي وسياسي وأثري، على أن تشاركه فيها دكتورة زوزو، تلبية لرغبتها واعتمادا على اتساع علاقاتها الاجتماعية، وميرفت (رئيسة تحرير الجريدة) بحكم منصبها، فكان الحوار الأول لزوزو مع مسئول ثقافي رفيع المستوى داخل مكتبه وبين موظفيه، بناء على موعد متفق عليه بين الطرفين مسبقا.

الطريف في الموضوع أن زوزو اشترطت على المسئول الثقافي، بنوع من الود، أن يناديها بـ «حتشبسوت»، إحياء لذكريات طفولتها، حيث كان يناديها زملاؤها الأطفال في المرحلة الابتدائية بهذا الاسم.

المسئول يبتسم من غرابة شرط زوزو، لكن سرعان ما يتسع صدره، يستوعب الموقف بعد لحظات من التفكير العميق، ويطلب منها أن تبدأ الأسئلة:

حتشبسوت (زوزو):

- باعتبارك مسئولاً عن الثقافة المصرية، كيف تترجم شعور المصريين الذين يرون أن بلدهم لم يعد وطنًا يسكنونه، بل أرضًا يعيشون عليها ؟

يكرر المسئول تعجبه من السؤال، لكن لأنه متفتح ولديه خبرة طويلة في التعامل مع الإعلام، أجاب:

– إذا اعتقدت وسلمت بذلك، فهذا يعنى أن الخيانة عمت في المجتمع، وهذا كلام غير صحيح بالمرة، وأنا أؤكد أن مصر كانت ولا تزال وستظل وطنًا يسكننا، ونحن بها ولها، وأنا أصر على ذلك.

حتشبسوت بذكاء ومراوغة:

– هناك من يطالب بضرورة رسم لوحة ثقافية فنية فكرية تمنح عاداتنا وتقاليدنا وانتماءنا قبلة الحياة من جديد و....؟

– لحظة من فضلك، ما تطرحينه قد يكون هو نفس الإحساس بهذا الشعور، أو إحساسًا كاذبًا كالحمل الكاذب أو كالسراب، لأن التراث المصري يُحيى ذاته تلقائيًّا، لأنه متمثل في الحرف والعادات والتقاليد التي ورثها الشعب منذ أمد بعيد وإلى الآن، أما بخصوص الانتعاشة الفكرية والفنية فلها سماتها كالإنسان مثلًا في مراحله العمرية، بداية من مولده، مرورًا بصباه وشبابه وحتى شيخوخته. هذه المراحل تنطلي على الحالة الكينية للفرد، وكذلك الحالة الإبداعية والفكرية والثقافية لأى مجتمع.

حتشبسوت تصر على تكرار المشاكسة، المراوغة:

– مصر أصبحت مستهلكة للمنتج الثقافي الغربي بثوبه الرأسمالي والعربي، وتحديدًا الوهابي منه، الآتي إلينا من شبه الجزيرة العربية، فمن المسئول؟

– حقيقة لا أريد أن أنفي هذا الاتهام، لكن لا بد من معرفة أن الثقافة تنتشر بشكل كبير جدًّا لا يمكن إطلاقًا حجزه عن المجتمعات، فالثقافة هي معلومة الإنسان ورغبته في المعرفة.. والمعرفة لا يمكنها أن تأتى من ذاتية شعب محدد، بل تأتى من شعوب كثيرة جدًّا ومتغيرة، لتصب في بوتقة الثقافة الدولية الكبيرة، فهناك لغة حديثة للثقافة، ولابد أن نتأثر بها ونؤثر فيها، ويواصل:

– وكما نعرف، فالكثير من المستشرقين والكتاب والفنانين والمسرحيين

والسينمائيين، ومصممي الرقصات،تأثروا تمامًا بالشرق، فلماذا لا نتأثر نحن بالغرب كما تأثر بنا؟!.. إنها مسألة واجبة، على الأقل لكى نحصل على المعرفة الكاملة، أما الثقافة الوهابية فهي ثقافة دينية، وكما نعرف أننا هنا، وفي العالم العربي، مهووسون بالدين، وهذا الهوس الديني قد يجعل غير العارفين بأصول الدين والمذاهب يتخبطون في أى مذهب يرون أنه يساعدهم ويثرى وضعهم الاجتماعي.

***

قبل أن تطرح حتشبسوت على المسئول الثقافي سؤالها التالي نظرت إليه، وهو مشغول بالرد على سكرتيرته الخاصة، فتحدثت مع نفسها همسا، فقالت:

*** إن المتابع للحركة الثقافية في مصر خلال أكثر من عقدين سيجد أن مصر كانت بلا سياسة ثقافية، ولا هُوية، وأصبحت تترنح بين الفكر الشيوعي تارة، والرأسمالي تارة أخرى، ونتيجة هذا التخبط، وهذه الفوضى ظهر مالم نكن نتوقعه من فكر تكفيري للمجتمع على يد تلاميذ الإخواني سيد قطب وأزلامه، وتابعت:**

*** ثم فوجئنا بفكر آخر للوهابية، بحيث أصبح المجتمع في حالة صراع أليم، وهو ما اتضحت رؤيته بعد ثورة 25 يناير 2011، نظرا لغياب الهوية الثقافية، بالإضافة إلى الدور المتراخي لكل من: الفن والسياسة والإعلام والدين والأمن معًا، في تلك الفترة القاتلة التي سبقت طوفان المؤامرة اللعينة.**

***

بعد أن فرغ المسئول من حديثه مع سكرتيرته، طلب من موظفيه سرعة تقديم واجب الضيافة للدكتورة زوزو، أو الملكة حتشبسوت، كما نطقها مبتسما.

تشاركه زوزو الابتسامة، بعد دقائق معدودة حضر عامل البوفيه حاملا صينية رشيقة عليها عصير برتقال وزجاجتان من المياه الغازية.. مع عدد من قطع الجاتوه.

تداعب حتشبسوت المسئول بكلمات ذات مغزى، فتقول:

- واجب الضيافة ده زايد أوي يا افندم، «تكونش» ناوي تقدم لي رشوة؟

- رشوة !!!، لا لا .. كده برضه يا افندم، هناك فرق أكبر بين حضرتك وبعض الصحفيين المنتمين للمهنة اسما، البعيدين عنها – كل البعد – سلوكا.

حتشبسوت تشرب علبة عصير ونصف زجاجة مياه، وتشكر المسئول، ثم تواصل طرح أسئلتها:

- هناك من يرى أنك مسئول ثقافي بلا سياسة.

المسئول مقاطعًا:

- كيف؟!.. لا يمكن أن يُقام فعل مادى وواضح وضوح الشمس، وتلجأ إليه كل الدول المحيطة لكى تتماثل معه دون أن تكون هناك سياسة، فالثقافة لها سياستها، كما أن الثقافة تقوم بعمل سياسي، صحيح أنه ليس بالمعنى السياسي الحرفي، لكن سياسة الثقافة لابد أن تكون واضحة لمن يعرف التفسير الجيد والجديد لمعنى كلمة ثقافة والعمل الثقافي.

مسئولة كبيرة من جهة سيادية تقطع الحوار بين زوزو والمسئول الثقافي بعد أن دخلت عليهما المكتب دون استئذان، طالبة منه إنهاء مصلحة تخص قريبة لها رغم أنف القوانين واللوائح والذي منه.

يبتسم المسئول ويطأطئ برأسه في إشارة بالموافقة على طلب ضيفته، بعد أن رحب كل منهما بالآخر، وعلى الفور تم التوقيع على الطلب، وقال المسئول للمسئولة: حضرتك تأمر ي!!

***

تعود حتشبسوت لذات الحالة وتحدث نفسها همسا:

*** آاااااه يا بلد!!.. واضح إن مافيش فايدة في الناس دي، عموما كلمات**

المسئول عن إجابة سؤالي جاءت هلامية على اتهام سيتحمل وزره أمام التاريخ والأجيال القادمة.

حتشبسوت تغوص في أعماق المسئول، بعد انتهائه من مقابلة المسئولة الكبيرة، وتسأله:

– وإذا كانت السياسة تعنى إدارة الشئون الاجتماعية، والثقافة تعنى انعكاسا لهذه السياسة، فأين الخلل في رفض العديد من المثقفين سياستك؟

المسئول مكررا مقاطعته بغضب:

– ليس لدىَّ سياسة شخصية، ولكن هناك سياسة مهمة جدًّا، وهي سياسة الثقافة، وأنا أضع تحتها العديد من الخطوط ليقرأها عدة مرات من يقول دائمًا إنها سياسة المسئول أو سياسة وزارة الثقافة، فالثقافة ليست لها أي علاقة بالسياسة الفعلية بمفهومها الحرفي كما أكدت لك، ويُواصل:

– والثقافة أيضا تمثل هنا أرضية رائعة لتكوين مجتمع، إذاً كل هذه البنى التحتية الرائعة التي تحتاجها دول كبرى أصبحت لمصر، فالمتحف والمدرسة وقصر الثقافة والمكتبة، وكذلك النشاطات المختلفة، كلها عوامل تساعد في تشكيل مكون ثقافي قوى وفاعل، فقد يكون التعليم إجباريًّا، لكن الثقافة ليست كذلك، فعلى العائلة والأجهزة المعنية بالشباب أن تجبرهم على التثقف.

***

حتشبسوت تنظر لمحدثها في صمت، وتعود لمخاطبة نفسها همسا:

*** كانت الصروح الثقافية في مصر تُدار بطريقة هدفها الأول والأخير البحث عن المال، ومن هنا غاب الإبداع عن معظم الأعمال التي قدمتها وزارة الثقافة، خاصة في العقد الثاني الذى توليت أنت فيه هذه المسئولية.**

***

حتشبسوت تسأل المسئول:

– إنجازاتك أبقت عليك فترة طويلة في الوزارة، وإخفاقاتك تُرجمت بتقديم استقالتك أكثر من مرة دون أن تُقبل، بماذا نفسر ذلك؟

– المسئول مبتسما: دعيني أوضح لك يا دكتورة زوزو، أو أيتها الملكة الجميلة حتشبسوت، أولًا لا يوجد إخفاقات، لكن هناك بعض الأخطاء، ولا بد أن يكون لها مكان في زخم عمل غير مسبوق، فقد أنهيت أعمالًا عظيمة بالفعل وغير نادم على ذلك، بل سأكون سعيدًا بالتقاعد، وكوني مسئولاً مسئولية اجتماعية، ولي رسالة مهمة وأتقاعس عنها.. فهذا يمكن أن نسميه إخفاقًا، وأنا صراحة لم أخفق في مهمتي إطلاقا، بل نجحت فيها بمؤازرة المجتمع والمثقفين الأحرار، أبناء الوطن الذين أبدوا شهامة لتقديم مجهوداتهم لهذا المجتمع.

حتشبسوت تعاجل المسئول:

– وما تفسيرك للاحتجاجات المتتالية سنويًّا بخصوص نيل فئة معينة دون غيرها جوائز الدولة؟

– الوزارة لا ترشح للجوائز ولا تمنحها. أما هذه الجائزة فتمنح بناء على التصويت السرى للمجلس الأعلى للثقافة والمكون من 61 عضوًا، وكل منهم يعطى صوته، ولا يعرف عن ذلك شيئاَ من بجواره، فكيف وعلى من تتم الاحتجاجات؟!

حتشبسوت توجه سؤلاً استفزازيا:

– إذا كان عدد المثقفين المنتمين للوزارة 600 مثقف، فأي تصنيف يمكن إلصاقه ببقية مثقفي مصر؟

– دعيني أقول إنه يوجد بعض المثقفين الذين ينالون إعجابي أنا شخصيًّا، وهؤلاء هم الذين يحصلون على فكرهم الثقافي على المقاهي، وكنت دائمًا أتمنى أن أكون منهم، وهؤلاء غير المثقفين الأعضاء بالمجلس الأعلى للثقافة حيث يصل عدد لجانه إلى 26 لجنة، ويوضح:

- كما أن كل لجنة تضم نحو25 عضوًا، وذلك في تخصصات مختلفة، هؤلاء حقيقة لهم باع كبير في رسم سياسات ثقافية في المجتمع، لأن لهم تخصصات محددة، أما أنا شخصيًا، وبعيدًا عن المجلس، فتحت أمر أي مثقف أيا كان موقعه أو اتجاهه السياسي والفكري، فأنا أعتقد أن ذلك بالنسبة لي ثراء عظيم لشخصي كفرد، وللدولة كدولة.

حتشبسوت تواجه المسئول بتراجع المسرح:

- مسارح القطاعين العام والخاص، هناك من يؤكد أنها شهدت انتكاسة وتراجعًا في عهدك و...

- لقد قدمت الدولة مسرحية «شكسبير» أكثر من مرة، كما قدمت المسرح الإيطالي العظيم، وكذلك قدمت كمًّا هائلًا من الأعمال، فالمسرح القومي قدم حتى من تأليف المبدعين المصريين عدة مسرحيات، وقدم فيها أكبر النجوم.. لكننا قد ننسى أحيانًا !، ويواصل:

- ولأن لدينا مسرحية رائعة لكاتب كبير، إلى جانب العديد من الأعمال الأخرى التي تم من خلالها اكتشاف عدد كبير جدًّا من المخرجين الجدد، فهناك مركز الإبداع المسرحي في الأوبرا الذى قدم الممثل والفنان الشامل الذى يُجيد الغناء والحركة الجسدية والمسرحية والتفاعل، كل ذلك من خلال تقنيات يتعلمها في هذا المركز، وهذا يعنى أننا دولة كبيرة وثرية جدًّا ثقافيا.. انتهى.

***

المسئول الأثري:

الحوار الثاني أجراه ماهر مع مسئول أثري كبير داخل مقهى راقٍ وسط القاهرة بعد منتصف الليل في جو هادئ، حينها استحضر ماهر روح أحمس الأول قاهر الهكسوس، وطلب من المسئول الأثرى أن يناديه بهذا الاسم، حتى يضفى على الحوار جوا جميلا من عبق الماضي الأصيل، ولأن هذا المسئول لديه الحس الأثري والنفسي الراقي لمثل هذا الطلب، وافق بأريحية ومودة، وبدأ أحمس يسأل:

- كانت لك جملة شهيرة في مقدمة قانون الآثار 117 لسنة 1983 قلت فيها: سرقة الآثار هي سرقة لعرض وتاريخ مصر، ألهذه الدرجة؟

- نعم، بل أكثر من ذلك، فقد تعمدت وأكدت ذلك، لأظهر حجم الجُرم المصاحب لتهريب وسرقة الآثار، كما أنني أشير إلى أن المصري الذى يُقبل على هذه الخطوة، كأنه ينوى سرقة عرض وتاريخ وحضارة مصر!

أحمس الأول مراوغا المسئول:

- هل أنت راضٍ عن قانون الآثار الجديد؟

- صراحة إلى حد ما، فكم كنت أتمنى أن تطبق عقوبة المؤبد على مهرب وسارق آثار مصر بدلًا من الـ15 عامًا، ومع ذلك أوضح أننا خطونا خطوات فعالة وجادة في هذا الإطار، مثل إلغاء نسبة الـ10٪ التي كانت تحصل عليها البعثات الأجنبية، فضلًا عن تمتعنا بعلامة تجارية ونماذج أثرية ننفرد بها عن غيرنا.

المسئول يستأذن أحمس الأول ليتناول بعض «الأقراص»- كعلاج لمرض ما لم يكشف عنه - بكوب من المياه.

***

خلال تلك اللحظات البسيطة، يحدث أحمس نفسه همسا:

*** مع احترامي لهذا المسئول، فهذا القانون به عورات استغلتها مافيا الآثار في الداخل والخارج، وفي عدة مقالات لى وبعض التقارير الخاصة بالموضوع.. كشفت العديد من الثغرات التي يحويها قانون الآثار الجديد. مثله في ذلك مثل القوانين التي سبقته منذ عهد محمد على والىّ مصر، وعموما لك الله يا مصر.**

***

يعود ماهر بروح (أحمس الأول) ليسأل المسئول بعد أن اطمأن على صحته:

- أهذا يعنى أن القانون القديم كان يمنح البعثات الأجنبية 10٪ من آثارنا التي

يكتشفونها؟

– أقول إن هذا البند كان موجودًا في القانون القديم، وحرصنا على إلغائه في القانون الجديد . لكن على أي حال لم يحدث أن حصلت أي بعثة على هذه النسبة لا قديمًا ولا حديثًا.

فور انتهاء المسئول عن الإجابة على هذا السؤال، رد على اتصال تليفوني لمدة 5 دقائق.

***

أحمس الأول ينظر للمسئول، وينصت جيدا لمحتوى مكالمته مع محدثه، ويعقب همسا:

*** طبعًا الرد على كلام هذا المسئول متروك للخبراء الأثريين.. فمنذ أن عرفت آثارنا طريقها للقوانين بداية من حكم محمد على باشا وأولاده وأحفاده لمصر وحتى وقت قريب جدًّا.. كانت البعثات الأجنبية تحصل على العدد الأكبر والأهم من آثارنا المكتشفة نتيجة الثغرات الموجودة فيها، كما أشرنا إلى أن تلك القوانين التي صاغها حينها إما محتل متآمر، أو ما نُطلق عليه «عبد المأمور»، أو عميل مرتزق، بحجة أنه لولا البعثات الأجنبية لما كنا توصلنا لآثارنا المدفونة بباطن الأرض!!. ويوضح:**

*** وبالتأكيد هذا الكلام يُردده «ببغاوات» يفتقدون روح الانتماء للوطن الحبيب، فهناك تصاريح متكررة لعدد من قيادات الآثار يُؤكدون فيها أننا «لم نستخرج سوى 10٪ فقط من آثارنا»، وهناك تصاريح لخبراء أجانب استنادًا إلى أقمار وكالة ناسا الأمريكية تخالف ذلك تمامًا حيث تتوقع هذه التصاريح أن 99٪ من آثارنا لم تكتشف بعد».. والسؤال هنا: ماذا كان سيضيرنا لو أننا استغنينا عن هذه البعثات «المشئومة» التي نهبت تاريخنا لعشرات السنين حتى يُولد منا جيل وطني شريف نظيف اليد ينقب عنه؟!..**

***

أحمس الأول يسأل المسئول:

- لماذا اعترضت على تجارة الآثار داخل مصر؟

- تداول أو تجارة الآثار داخل مصر من الأخطاء الفادحة، فلسنا هنا في أوروبا التي نلتمس لها العذر في هذا المجال، نظرًا لعدم تمتعها بحضارة مثلنا، ودعني أقول: «إن مصر مليئة بالآثار، وقد يكون أسفل منزلي ومنزلك آثار»، وهذا يعني أننا سنهدم بيوتنا ونتصارع وتزيد ظاهرة الهوس بالآثار أكثر فأكثر، ويدخل البلد في حالة فوضى!!، ومن هنا أكدت خطأ هذا القانون، ومن ثم لم ينفذ.

أحمس الأول يمسك بين يديه كتابا حديثا يكشف فيه مؤلفه عن فساد منقطع النظير في وزارة الآثار، ويسأل المسئول:

- هذا أحد الكُتب الحديثة في مجال فساد الآثار حذر من وجود اختراق صهيوني لآثارنا، هل لديك رد؟

- لقد خضنا معارك حقيقية في هذا المجال، فالأبطال وحدهم من يخوضون مثل هذه المعارك، وأستشهد لك بعدم وجود أي نوع من التطبيع الثقافي أو الأثري مع إسرائيل، هذا إلى جانب أنه لا يمكن من جانبي – كمسئول أثري - أن أسمح بوجود بعثة إسرائيلية في مصر على الإطلاق، بل أشدد على أن هذا الكلام غير دقيق، والدليل أن أي بعثة أثرية ترغب في العمل بمصر لا بد لها من الحصول على موافقة الأمن القومي، وأمن الدولة إلى جانب اللجنة الدائمة.

المسئول الأثري ينهض من مكانه مرحبا بشخصية أمنية كبيرة، دخلت المقهى لتوها، ويتبادلان حديثا وديًا لمدة 10 دقائق.

***

أحمس الأول ينظر للمسئول الأثري الكبير، والشخصية التي يرحب بها ويحدث نفسه همسا:

*** ترى من هذا الرجل؟.. لقد رأيته قبل ذلك، فين.. فين يا ماهر؟.. آاااااه**

افتكرت، ده مسئول أمني كبير في قطاع مباحث الآثار ، ما علينا، المهم الكتاب الذى يقصده هذا المسئول من تأليف كاتب صحفي زميل بعنوان «الاختراق الصهيوني لآثار مصر»، وفيه يكشف الزميل عن المؤامرة الإسرائيلية ضد آثارنا بكل الطرق والأساليب الـ «.....»، وذلك لأهداف لم تعد خافية على أطفالنا في مراحل تعليمهم الأساسية.

***

أحمس الأول يسأل المسئول بعد ان ينتهى من لقائه بصديقه:

– لكن هناك من يؤكد ذلك من رجال المجلس نفسه، بل وتم نشره في وسائل إعلامنا و.... ؟

المسئول«مقاطعا» بغضب شديد:

– أؤكد لك أنه يوم أن تكون هناك بعثة أثرية إسرائيلية تعمل في مصرفإنني سأستقيل من منصبي في اليوم الثاني مباشرة، علمًا بأنني عندما أصرح بهذا الكلام، أجد اليهود يهاجموننني في كل مكان، لكن مع ذلك أُطمئن الجميع بأن ما يُقال عن وجود مثل هذه البعثات ليس له أي أساس من الصحة على الإطلاق، ومن كتب هذا الكلام اعتمد على خلافات الأثريين فيما بينهم، وأي شخص يعمل لدينا يخضع لمعايير وترتيبات دقيقة جدًّا.

المسئول يفتح حوارا جانبيا مع جرسون المقهى، طالبا منه شيشة تفاح.، ثم يسأله عن أخبار عدد من مرتادي المقهى و....

***

أحمس الأول يعود للحديث همسا مع نفسه أثناء حوار المسئول الأثري الكبير مع الجرسون:

*** خبراء الآثار لهم رأى مخالف لما قاله هذا المسئول، بدليل قيام أمننا**

القومي بوقف بعثة أثري أجنبي بعد التأكد من علاقته الوطيدة بالجانب الإسرائيلي، والذى يُنسق معهم في كل صغيرة وكبيرة بخصوص عمله هُنا، كما أن الأثري المستبعد هذا كان عضوًا دائمًا في جميع الحفائر التي أجرتها إسرائيل في سيناء عندما نهبت تراثنًا إبان فترة احتلالها للأرض المباركة عام 1967 حتى انسحابها التدريجي منها طبقًا لاتفاقية كامب ديفيد، ويضيف:

*** كما أن وضع الكُرة في ملعب الجهات الأمنية ينم عن دهاء واضح من هذا المسئول، إذ إن الجهات الأمنية ليست هي الجهة الفنية المختصة في قراءة ما يكتبه الباحث الأجنبي في حقل الآثار وتحليل اتجاهاته السياسية والأيديولوجية، خاصة ممن يخدمون أهداف إسرائيل التوسعية في المنطقة، وكلها تندرج تحت شعار «إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات»، انتهى.**

***

عميد الآثار

الحوار الثالث أجرته ميرفت مع أحد عمداء كلية الآثار بمكتبه، في فترة الإجازة الدراسية، الثانية عشرة ظهرا، وقبل أن تبدأ حوارها، طالبت العميد بخفة ظلها المعهودة، أن يناديها «نفرتيتي»، معللة ذلك بأنها تعشق هذه الملكة، يوافق العميد مبتسما، ويستأذنها أن تبدأ الأسئلة:

نفرتيتي:

– بداية: كيف تقيم فترة عملك وقت أن كنت مسئولا أول للمجلس الأعلى للآثار؟

– كل فترة من هذه الفترات تكون دائمًا مكملة لما قبلها، وعن نفسى لم أبدأ من لا شيء، بل كانت بداية مما انتهى إليه غيرى من إنجازات، سواء أكان ذلك فى الترميمات أو الاكتشافات وحتى الصيانة.

العميد يستأذن نفرتيتي للحظات، حتى ينتهي من التوقيع على بعض الأوراق

التي تحملها له مديرة مكتبه.

***

- نفرتيتي تنظر إلى العميد أثناء انشغاله بمسئولياته، وتحدث نفسها سرا:

*** واضح من كلام العميد إصراره على عدم الإساءة لمن سبقوه، حتى وإن كانوا مخطئين، فملف الترميم والصيانة والاكتشافات كان دائمًا ولا يزال من الملفات المتخمة بالفساد، ولم يشأ العميد فعل شيء للقضاء على هذه الملفات، بل إنه استكان ورحب بهذا الفساد، لغرض في نفس يعقوب- حسب من عاصروه من الأثريين- لذا كان الأجدر له السير على نهج من سبقوه.**

***

نفرتيتي تعود لسؤال العميد بعد أن انتهى من توقيع أوراقه:

- بصراحة، ما سبب ابتعادك عن منصبك؟

- السبب الحقيقي لابتعادي عن منصبي كان لحرصي الشديد على أراضي مارينا المملوءة بالآثار، وذلك عندما رفضت البناء عليها، وقلت حينها للجميع إن «من حقكم أن تصطفوا، لكن ليس على حساب أرض الآثار»، وبعد موقفي هذا تم استبعادي تمامًا من منصبي. وذلك بعد فترة اعتبرتها انتدابًا داخليًّا، وها أنا الآن قد عدت لعملي الأكاديمي، حيث عملت كرئيس لقسم الآثار بكليتي، ثم توليت عدة مناصب أكاديمية معلومة للجميع، وحقيقة أنا أميل للعمل الأكاديمي وأعشقه، بل أفضله على أي شيء آخر.

نفرتيتي توجه نقدا لاذعاً للعميد بعد إجابته هذه:

- هناك من يؤكد قيامك بالإشراف على دراسة مع جمعية أمريكية مشبوهة عن أمراض تصلب شرايين القلب لمومياوات الأسرة 18 تحديدًا، فما حقيقة ذلك؟

- دعيني أصحح هذه المعلومة، فأنا أعمل حاليًّا مع فريق طبي أمريكي -

مصري متخصص في أمراض القلب، ودوري في هذا الموضوع هو فقط الإشراف من الجانب الأثري. أما بخصوص نوعية الدراسة فالهدف منها خدمة الإنسانية.

العميد يبتسم، وهو يستأذن نفرتيتي للرد على مكالمة هاتفية من زوجته.

***

نفرتيتي تنظر للعميد وهي تبتسم بعدما سمعت منه بعض الكلمات العاطفية الراقية بينه وبين زوجته، وتعود للحديث مع نفسها سرا:

*** واضح إن زوجة العميد ده شديدة أوي، والله كويس انها بتأمره بشراء الفواكه والخضار قبل دخوله البيت، آدي الحريم ولا بلااش، هههههه، وتواصل:**

*** عموما أستطيع التأكيد على أن عمل العميد كان الغرض منه الحصول على المال فحسب، حيث ذكر لنا في هذا السياق مدير عام سابق لإدارة المواقع الأثرية، وعضو اللجنة الدائمة آنذاك، أن وزير الآثار حينئذٍ خرج في إحدى جلسات اللجنة الدائمة للآثار المصرية عن مهام موضوع الجلسة وعن جدول أعمالها، موضحًا للحضور أن هذا العميد كشف له عن رغبته في العمل مع الجمعية الأمريكية في مشروعها «فحص مومياوات بعض الفراعنة»، كما أن العمل المشار إليه قد شكك أيضًا في أصول بعض ملوك الفراعنة، ونسبهم- كذبًا وافتراء- إلى الجنس السامي وتحديدًا العبرانيين، وتردف:**

*** وهذا الأمر معروف تماما لدى القيادات الأثرية، الذين أوضحوا موافقة وزير الآثار على طلب العميد، حتى لا يهاجم مشروع الوزير نفسه مع ذات الجمعية، وبالفعل تم الموافقة على مشروع دراسة شرايين المومياوات إرضاءً للعميد، فالمعروف أن أعضاء هذه الجمعية ينفقون الملايين لصالح القائمين على المشروع، والسؤال : ما علاقة باحث أو خبير أو أستاذ آثار بأمراض القلب ؟!، فهل كان الرجل طبيبًا وباحثًا في أمراض القلب ونحن لا ندرى؟ هكذا تسأل ميرفت وتتعجب من هذا الأمر.**

***

ميرفت (نفرتيتي) تسأل:

– ما رأيك في المؤلف الذى ظهر مؤخرًا لكاتب صحفي متخصص في الآثـار، والذى يحذر فيه من الاختراق الصهيوني لآثارنا؟

– هذا صحيح، فلقد تصديت شخصيا للعديد من هذه الاختراقات، كما أنني ناشدت المعنيين بهذا الأمر كثيرًا، ونصحت بالتكـاتف والتعاضـد لـدحض هـذه المزاعم الكاذبة، لكن كما تعلمين، لا يمكن للشخص أن يعمل بمفـرده، ولابـد من تضافر الجهود المخلصة، للوقوف في وجه تلك الادعاءات.

عقب انتهاء إجابة العميد عن السؤال السابق، يأذن لطارق باب مكتبـه بالـدخول، وإذ به رئيس الجامعة، ينهض العميد من مكانه مرحبا، يبتسم رئـيس الجامعـة بـأدب جم عندما يرى ميرفت، وبذلك فهم أن العميـد مشـغول بحـوار صـحفي، فاسـتأذن بالانصراف بعد أن طلب من العميد زيارة مكتبه حينما يسمح وقته.

***

بعد أن صافحت ميرفت (نفرتيتي) رئيس الجامعة، وأثناء حديثـه القليـل مـع العميد، بدأت تعقب مع نفسها همسا:

*** العميد لم يُحرك ساكنا في هذه القضية طوال فترة توليه أمانة المجلس الأعلى للآثار، فالحقيقة المُرة أنه أبقى على البعثات الأجنبية ، كما أنه لم يفعل شيئا يُذكر في تطوير هذا الملف، كما يتضح ذلك من إجابته الهلامية التي يتهـرب فيهـا مـن المسـئولية– حسـب تأكيـد الخبـراء – يُضـاف إلى ذلـك تحـذيرات العديـد مـن المخلصين من خطورة تحاليل الـ« D N A » على المومياوات الملكية المصـرية، لأن نسبة الخطأ فى نتائجها تصل إلى 40٪–بحسب الخبراء – كما يمكن للصهاينة الادعاء بأن جينات تلك المومياوات يهودية، وتتابع:**

*** علمًا بأن موقع الـ «الناشيونال جيوجرافيك» صمم رسمًا تخيليا للملك توت عنخ آمون بملامح إنسان غربي . والسؤال هنا:من الذى سمح باستخراج تصاريح لجامعة «يوتا» المعروفة بميولها الصهيونية للحصول على عينات من عشرات المومياوات الملكية؟! ولماذا صمتت «الآثار» عن نشر كتاب إنجليزي يروج للادعاء بأن خروج اليهود حدث في عهد الملك توت عنخ آمون؟!ثم ما سبب تجاهل «الآثار» مزاعم اليهودي-الروسي الذى يدعى نقل الملكة حتشبسوت لطراز معبدها من معبد «سليمان» بأورشليم رغم الفارق الزمنى الذى يتجاوز الـ500 عامًا بأسبقية حتشبسوت؟!ثم من يُحاكم إسرائيل على مسحها 1166 مقبرة بوادي فيران وإجرائها 72 بحثًا على رفات بعضهم لمعرفة أصول بدو سيناء؟!، وكيف صمتت «الآثار» على طلب مركز البحوث الأمريكي التصريح لـ95 عينة عظام من سقارة واللاهون لتحليلها فى زيورخ؟!، ولماذا تجاهلت «الآثار» تحذيرات الخبراء التي تؤكد أن تحاليل الـ «D N A» على المومياوات الملكية ما هي إلا لعب بالنار ومصر في غنى عنه، هكذا يتساءل الخبراء.**

***

نفرتيتي تسأل:

– لوحة «أمنمحات».. قيل إنها استبدلت في أحد المعارض الأثرية التي أقيمت في اليابان خلال فترة رئاستك للمجلس.. ما تعليقك؟

– هذا الكلام غير صحيح على الإطلاق، وما حدث حول هذا الموضوع ما هو إلا أخبار إعلامية لم تتحرَّ الدقة حينها في عملية النقل، ومن يرد التأكد مما أقوله فعليه الذهاب إلى المتحف المصري، ليشاهد اللوحة ويكشف عليها إذا رغب في ذلك.

ميرفت (نفرتيتي) :

– وكيف ترد على من يؤكد موافقتك على قيام جهة أجنبية بتحليل 27 عينة

لمومياوات ملكية من الأسرتين 18 و19 بأمريكا؟

– من يمتلك الدليل على ذلك فليقدمه، وأنا لم أقم بهذا العمل على الإطلاق، ومن ثم فإن هذه المعلومات غير صحيحة.

ميرفت تسأل:

– قيل إن زلزال 1992 الذى ضرب مصر في فترة مسئوليتك للمجلس الأعلى للآثار دمر عددًا كبيرا من الآثار.. فهل من توضيح؟

– بالطبع، فهذا الزلزال قد دمر ما يقرب من 16 أثـرًا، أغلبها مهم جدًّا، وجميعها من الآثار الإسلامية والقبطية.

نفرتيتي:

– هل لديك معلومات عن عدد البعثات الأجنبية داخل مصر في الوقت الراهن؟

– يؤسفني القول إن عددها زاد على الـ200 بعثة أجنبية على أرض مصر مقابل 10 بعثات مصرية فقط!

العميد يرن جرس مكتبه، تدخل مديرة مكتبه، الفتاة الثلاثينية الأنيقة، وفي يدها مجموعة مؤلفات قيمة من إنتاج العميد، مغلفة بورق أنيق داخل «شنطة» ورق شيك، وعليها إهداء للصحفية ميرفت.

***

أثناء حديث العميد مع مديرة مكتبه، عادت ميرفت (نفرتيتي) للتعليق مع نفسها همسا:

*** لا توجد 10 بعثات مصرية كما ادعى العميد، وإنما كانت بعثتان تتبعان وزير آثار سابقاً، وكان يتم نشر نتائج أبحاثهما بالخارج، وهذا العمل لابد أن**

يسألا عنه.

***

نفرتيتي تقبل الهدية من العميد، وتشكر مديرة مكتبه، ثم تواصل الأسئلة:

- كثيرون يطالبون إنجلترا وألمانيا باسترجاع حجر رشيد ورأس نفرتيتي، فهل تتفق معهم؟

- بالتأكيد أتفق معهم، لكن دعينا نعيش الواقع ونعترف بأنه من غير المعقول رجوع هذين الأثرين في ضوء اتفاقية اليونيسكو الموقعة في بداية السبعينيات، والتي تنص على عدم رجوع أي أثر إلى مصدره الأصلي قبل هذا التاريخ.

- نفرتيتي بصوت جهوري، وفي تحدَّ صارخ هذه المرة، تعقب على اجابة العميد:

- معلوم أن الأثرين خرجا من مصر بطريقة غير مشروعة سيادة العميد، وعليه فطبقا للقانون الدولي، يحق لمصر استردادهما، ولكن من الواضح أن مصالح شخصيات بعينها مع هذه الجهات متشعبة- حسب مصادر أثرية- ولا يستطيع البعض المعني بالأمر الاستغناء عن تلك المصالح، ومن هنا كانت وقفات أصحاب المصالح دائما مع هذه الدول ضد مصالح الوطن، وما عمل البعض- كما سبق وأشرنا مع الجمعية الأمريكية فى مشروع تحليل المومياوات - إلا دليل دامغ على ما نوضحه.

تواصل نفرتيتي سلسلة أسئلتها لتفوت الفرصة على رد العميد:

- في الحقيقة كان يجب على الحكومتين الألمانية والإنجليزية احترام رغبة الشعب المصري فى استرجاع آثاره التي نهبوها دون وجه حق ؟

- حسب الدستور.. بالطبع لا، لكنى أطرح السؤال التالي : أليس من حق

الرئيس أن يتدخل في إلغاء حكم الإعدام عن شخص ما؟.. أجيب : بلى يستطيع.. بل ويحق له ذلك، وبالتالي يجوز له أن يهدى القطع الأثرية في سبيل تحقيق مصالح يراها تخدم مصر!.. وقد حدث ذلك مع الرئيسين جمال عبد الناصر وأنور السادات.

ميرفت (نفرتيتي) تستأذن العميد بالتعقيب اللاذع على كلامه، وتطلب منه عدم الانفعال إن كان هذا العقيب سيغضبه، فتقول:

– كلام سيادتك في منتهى الخطورة.. ولا يجوز أن يخرج من رجل في قامتكم وعلمكم ووطنيتكم.. لكن ربما نلتمس لكم العذر لاستنادكم في ذلك الوقت إلى ما يسمح به القانون المصري لرئيس الجمهورية بتبادل القطع المكررة مع الدول أو الهيئات العلمية أو المتاحف فقط!!.. ومع ذلك فإن هذا الرأي لا يتفق مع كل قناعات كبار الأثريين والمهتمين بالملف الأثري . فآثارنا هي أهم مصادر دخلنا القومي. ومن غير المنطقي أن يتصرف فيها أحد – أي أحد – حتى ولو بالقوانين «إياها» تحت أي ذرائع.. والمؤسف حقا – كما جاء في كتاب لأحد قضاة مصر كان يعمل في وزارة الآثار– أنه فى الفترة ما بين عامي 1805وحتى 1980خرجت من مصر آلاف القطع الأثرية مختلفة الأشكال والأحجام كإهداء رسمي لدول أوروبا وأمريكا، وتوضح:

– والسبب فى ذلك يرجع – للأسف – إلى النظرة السطحية من مسئولينا لآثارنا.. أو تحقيقا لمآرب وأهداف سياسية أحيانًا.. أو لمحاولة تقوية علاقاتنا مع بعض الدول التي توصف بـ«الشقيقة» في أحيان أخرى . أما في عصر الرئيس الراحل أنور السادات.. فكان ذلك يتم من باب الوجاهة والسياسة أيضًا، وقد اجتمعت كل هذا المآسي لتشكل عاملًا صاعقًا لإفقار تراثنا الحضاري حتى نهاية شهر مايو 1980 عندما خرجت من أرضنا آخر قطعة أثرية كإهداء رسمي من رئيس الجمهورية– صاحب الحق الوحيد في ذلك– وذات السلوك انتهجه أولاد وأحفاد محمد على .

ووفقا للروايات الشائعة غير الموثقة المنتشرة بين أثريين ومنهم سيادتك وعلى شبكات الإنترنت-لكنها غير مدونة بسجلات متحف التحرير كما كان متبعاً في عهد السادات-فإن الرئيس جمال عبد الناصر أهدى هو الآخر العديد من القطع الأثرية لملوك ورؤساء.. كان أشهرها تمثال الطائر أبيس!!.

حاول العميد أن يثأر لنفسه بشكل أو بآخر، لكنه التزم بوعده، في حين واصلت ميرفت (نفرتيتي) أسئلتها:

- ألديك فكرة عن عدد القطع الأثرية التي منحها رؤساء مصر لدول أو أشخاص على سبيل المثال؟

- هذه القطع مسجلة رسميًّا.. وأعتقد أن عددها قد يصل إلى 100 قطعة تقريبًا.. قام بإهدائها كل من الرئيسين عبد الناصر والسادات كما سبق وقلت.

نفرتيتي :

- ألديك أي اعتراض على سفر آثارنا بالخارج لعمل معارض بهدف الترويج السياحي؟

- أبدًا.. هذه المعارض مثمرة جدًّا.. بشرط أن يُعتنى بها وتحقق العائد المادي المطلوب.

نفرتيتي تُخرج كتابا من حقيبتها الأنيقة لأحد الصحفيين الوطنيين (دكتور ماهر)، وتطلب من العميد قراءة بعض المعلومات فيه، والمدعومة بالصور والمستندات وأحكام محاكم مجلس الدولة عن الفساد والإفساد والمفسدين بالنسبة لمعارض الآثار الخارجية.

***

نفرتيتي تواصل الحديث مع نفسها همسا عن العميد أثناء انشغاله بالاطلاع على الكتاب المُشار إليه، فتقول:

*** العميد كان «قرصانًا» في معارض الآثار- حسب الخبراء- ولولا تصدى**

كبار الأثريين له ومنهم بعض أساتذة الآثار، لكان هذا الرجل صال وجال في هذا الملف دون حسيب أو رقيب كما يحلو له.. والدليل على ذلك تعاقده مع شركة يابانية خاصة.. قد عرضت آثار مصر بجانب أحد محلات الأحذية في العاصمة اليابانية طوكيو!!، وقد صدرت أحكام قضائية أدانت هذا الفعل منها: حكم تاريخي للمحكمة الإدارية العليا، التي حكمت فيه بعدم قانونية عرض الآثار المصرية بالخارج، سواءً أكانت فريدة أو مكررة، مما يطعن فى دستورية المادة 10 من قانون حماية الآثار رقم 117 لسنة 1983 وتعديلاته.

***

نفرتيتي تسأل:

– منذ فترة قليلة مضت سافرت عجلة الملك الذهبي «توت عنخ آمون» إلى أمريكا.. رغم أنها أثر فريد ومتهالك.. فما ردك؟

– بصراحة أنا لا أوافق على الإطلاق أن تسافر تلك الآثار الفريدة.. وقد نص قانون الآثار الجديد على ذلك.. وحقيقة أنا فوجئت بهذا الخبر عندما نشر بالجرائد وتمنيت ألا يحدث ذلك.

نفرتيتي:

– كانت لك بعض الاعتراضات على الداعية عمرو خالد بسبب مسلسل «قصص الأنبياء »الذى أعد مادته وشارك فيها وعرضه تليفزيونيًّا فى رمضان قبل الماضي، لماذا؟

– اعترضت على المسلسل بسبب ما جاء فيه من مغالطات للحضارة المصرية.. وكنت أتمنى حقيقة أن يتأكد هذا الداعية من المادة التي قدمها قبل بثها.. فعلى سبيل المثال لا الحصر.. وجدته يربط وجود بنى إسرائيل في مصر وخروجهم منها في عهد سيدنا موسى – عليه السلام – بعهد الملك رمسيس الثاني، مدعيا أنه استند على أدلة وقضايا نادرة في التاريخ أو الآثار المصرية.. الأمر

الذى يؤدى في نهاية الأمر إلى تشويه تاريخ مصر فى هذه الحقبة المهمة.

تعقب نفرتيتي على إجابة العميد بغضب:

– لكن سيادة العميد يرى أغلب علماء الآثار في العالم أن رمسيس الثاني ليس هو فرعون الخروج.. وأن فرعون الخروج بالتاريخ والدين والآثار كان هكسوسيا، وأن اعتراضكم، جاء فقط لعدم عرض المعلومات الخاصة بهذا الاستنتاج عليكم لمراجعتها نظير أجر.. أي أن الاعتراض هنا للابتزاز ليس إلا.. كما أكد ذلك الأثريون.

– هذا الكلام عارٍ تماما من الصحة، وأعداء العميد هم الذين يروجونه، ونصيحتي لك يا أستاذة ميرفت، ألا تنساقي وراء هؤلاء الـ «.....».

نفرتيتي تكتفي بما قالته للعميد من تعقيب على السؤال السابق، ثم تسأله:

– «الرءوس الكبيرة»– الكبيرة جدًّا – هي التي تتاجر بآثارنا وتحمى من يتعامل فيها كما تدرى . فهل تؤيد هذا الرأي الشائع حاليًّا في الشارع المصري؟

– حتى لا نقع في أي خطأ.. يجب علينا امتلاك الدليل على إلقاء الاتهام هنا أوهناك.. فما يشاع شيء، والواقع شيء آخر.. وهذا يجعلني لا أستطيع الجزم بهذا الأمر.

– نفرتيتي تكرر مواجهتها للعميد بالأدلة والمستندات:

– من المعلوم أن مطار القاهرة الدولي سبق وشهد عمليات تهريب لآثارنا.. وهذا من واقع حيثيات الأحكام التي صدرت عن بعض محاكم الجنايات المصرية.. فكيف تمر آثارنا من المطار دون موافقة الرؤوس الكبيرة؟!.. وفى هذا السياق يستشهد خبراء آثار بحادثة خروج مخطوطات من هذا المطار على يدكم شخصيا.. كما أكد الشهود أن هذه الواقعة ثابتة بإحدى القضايا الهامة التي تناولتها إحدى الجهات القضائية وقت توليكم أمانة المجلس الأعلى للآثار.

العميد ينفى هذا الاتهام، رغم أنه مُثبت، ثم تواصل نفرتيتي أسئلتها:

- أحد الشخصيات المشهورة في القضاء المصري أصدر كتابًا عن الآثار مؤخرا يوضح فيه أن بعض ملوك الفراعنة.. بمن فيهم الملكة نفرتيتي ينتمون لأصول إسرائيلية.. فهل هذا صحيح؟

العميد مستغربًا ويضرب كفًا بكف:

- في الحقيقة إنني حتى هذه اللحظة لم أقرأ هذا الكتاب.. لكنى سمعت عنه.. وصراحة لقد اندهشت جدًا مما نشر عنه.. فالمعروف أن مؤلف الكتاب قد حصل على دبلومة عليا بالآثار.. ولا أدرى ما أدلته الأثرية والتاريخية فيما ذهب إليه عندما كتب أن نفرتيتي وبعض ملوك الفراعنة ينتمون لبنى إسرائيل.. مع أن الكتابين المقدسين.. القرآن الكريم والتوراة.. ليس فيهما ما ينص صراحة على أن خروج اليهود قد حدث في عهد الملك رمسيس الثاني.

ثم يسأل العميد نفرتيتي:

- ما هذا الكلام الذى يدعى ربط ملوك الفراعنة ببنى إسرائيل؟!.. إن جميع ملوك الفراعنة بمن فيهم الملكة نفرتيتي محل الاهتمام والبحث.. مصريون بالأدلة والآثار والتاريخ والبراهين.. فبشرتهم ولونهم وملامحهم وأسماؤهم مصرية 100٪.. ولا يوجد أدنى شك في ذلك.. وهذا يعنى أن كلام المؤلف غير مفهوم على الإطلاق.

نفرتيتي تبادل العميد ذات الاستغراب عن مؤلف الكتاب المشار إليه، ثم تعاجله بتخطي ذلك بسؤال جديد:

- قانون الآثار الجديد.. هل أصبح كافيا لمعاقبة لصوص وتجار الآثار؟

- قانون الآثار الجديد شدد العقوبة على سارق وتاجر الآثار، واعتبره كمن يسرق تاريخه وأرضه، وأصبح كل مصري حريص على ماضي وحاضر ومستقبل

هذا البلد لا يفعل ذلك.. فالآثار ليست سلعة مثلها مثل الأرز أو القطن أو.. كي نتاجر فيها!.. ولا أستطيع وأنا أتحدث معك إخفاء حزني وتعجبي من بعض هؤلاء الذين نسمع عنهم وكأنهم استبدلوا تجارة المخدرات بتجارة الآثار، وهذا الأمر -إن صح تأكيده- فيجب محاربته والوقوف فى وجه من يعمل فيه والعمل على عقابه.. انتهى.

***

الدبلوماسي المحنك

كما أجرى ماهر الحوارً الرابع مع دبلوماسي كبير ملء السمع والبصر، داخل مكتبه في مقر الجامعة العربية بالقاهرة، بعد الرابعة عصرا ـ وهو الوقت المناسب بعد انتهاء الدبلوماسي من عمله ومقابلاته، فاتسمت إجاباته – كما هو متوقع – بالدبلوماسية الرصينة – فمثلا سأله ماهر عن نهب إسرائيل لآثارنا أثناء احتلالها لسيناء وعن تحركات الجهات المصرية المعنية بالملف كي نستعيد هذه الكنوز؟

ابتسم الرجل ابتسامة الدبلوماسي الوطني المحنك، وقال لماهر:

- يا بنى: مالي أنا وهذا المِلف؟!

نظر ماهر إليه في خجل:

- أعتذر لمعاليك لو كان سؤالي عن الآثار ضايقكم أو كان في غير محله.

وضع الدبلوماسي يده على كتف ماهر بحنو الأب ووعى السياسي الوطني الذى يقدر نوعية ومغزى ما كان محدثه يصبو إليه، ثم سأل ماهر:

- هل أنت خريج آثار يا بني؟

- لا يا افندم.. أنا خريج إعلام.

الدبلوماسي، باستغراب:

- غريبة أوي الحكاية دي، وما سبب اهتمامك بهذا الملف الشائك، على

الرغم من أنك طلبت أن يكون حوارنا سياسيا بحتا؟!

ماهر:

- آثار بلدي لها قصة طويلة معي لو عند معاليك وقت ممكن أشرحها لكم بإيجاز.

ابتسم الدبلوماسي:

- تعرف يا ابني انك كـ «دبلوماسي» أفضل بكتيييير منك صحفي.

يبتسم ماهر:

- أشكر معاليك على هذه الثقة وتلك الشهادة والله يا افندم.

- المفروض إني أنا الذي أشكرك يا ماهر، فقد أسعدتني بما لديك من معلومات، وسعدت جدًّا أن هناك شبابا مثلك يهتمون بآثار وتراث بلدهم، وأتمنى تأجيل حديثك معي عن الآثار لوقت آخر بعدما أكون قد بحثت هذا الملف الخطير، وأعرف بعض المعلومات الموثقة عنه من أهل الاختصاص.

بأدب جم، يضحك ماهر «هههههه»:

- لو حضرتك هتسأل أهل الاختصاص، بلاش أحسن يا افندم.

وقبل أن ينصرف ماهر. همس الدبلوماسي في أذنه، نظرا لدخول بعض الزائرين عليهما:

- أريدك فقط أن تكون مطمئنًّا لأن هذا الملف وغيره من الملفات الشائكة في أيدٍ أمينة يا بنى.. انتهى.

***

رأي فيلسوف

ولأن زوزو كانت ولاتزال مهمومة جدًّا بما يحدث لآثار بلدها، كما كانت

مُطلعة على أغلب ما كتبه كِبار الكتاب المصريين والعرب والأجانب عن الحضارة المصرية القديمة، طلبت أن تجري الحوارالخامس عن كنوزنا التي ملأت متاحف ومخازن ومزادات العالم مع أديب وفيلسوف مصري كبير له مؤلفات عن الفراعنة ولعنتهم في مكتبه بإحدى الجرائد اليومية الكبرى.

بعد أن اتصلت زوزو بالفيلسوف، وزارته بمقر عمله، ابتسم الفيلسوف ابتسامة ذات معنى طوال فترة ترحيبه بها:

- تعلمي يا ابنتي أنك تشبهين في أناقتك ولكنتك وكبريائك ملكات الفراعنة!!

زوزو تقابل الابتسامة بروح مرحة، وتشكر الفيلسوف، ثم تفاجئه أن روح الملكة حتشبسوت تسكنها منذ أن كانت بالمرحلة الابتدائية، حيث كان رفاق الطفولة ينادونها بهذا الاسم، وتسأله:

- هل هناك لعنة حقيقية للفراعنة كما نوهت في كتبك؟

يبتسم الفيلسوف:

- هل قرأت كتابي «لعنة الفراعنة وشيء وراء العقل» جلالة الملكة حتشبسوت؟

- هههه، جلالة الملكة مرة واحدة؟!.. عموما نعم قرأته، ويمكن تلخيصه منذ الحديث عن أسطورة لعنة الفراعنة عند افتتاح مقبرة الملك توت عنخ آمون عام 1922م.

- عظيم جدًّا، ماذا استخلصتٍ منه أيتها الملكة الجميلة؟

- أول ما لفت انتباهي، كغيري من الباحثين عن لعنة الفراعنة، تلك النقوش التي تقول «سيضرب الموت بجناحيه الساميَّن كل من يُعكر صفو الملك». هذه هي العبارة التي وُجدت منقوشة على مقبرة توت عنخ آمون، والتي تلا اكتشافها سلسلة من الحوادث الغريبة التي بدأت بموت عدد لا بأس من عمال الحفر في تلك المقبرة، وهو الأمر الذي أزعج وحير العلماء والعامة على السواء.

يصمت الفيلسوف فترة، وبخفة دمه المعهودة، وحبه اللامتناهي للمرأة والدفاع عنها يرد:

– ده انت مذاكرة كويس يا حتشبسوت، وباين عليك كده هتمارسي سلطاتك الفرعونية علينا هههههه، بصراحة لايق عليك تكوني ملكة حقيقية مش صحفية أبدا.

– هههههه، ده موضوع هيطول شرحه فيلسوفنا الرائع، دعنا الآن نكمل ما كنا نتحدث فيه عن كتابكم «لعنة الفراعنة وشيء وراء العقل».

– بكل سرور جلالة الملكة، اتفضلي.

– حضرتك ذكرت في مؤلفك أن أعداد المعتقدين فيما سُمّي بـ«لعنة الفراعنة» كانوا يتضاعفون يوما بعد يوم، ومن بينهم بعض علماء آثار أجانب شاركوا في اكتشاف حضارات الفراعنة، هؤلاء – بحسب تأكيدك – آمنوا أن كهنة مصر قد صبوا لعنتهم علي أي شخص يحاول نقل تلك الآثار من مكانها، حيث أشيع أن عاصفة رملية قوية ثارت حول مقبرة توت عنخ آمون في الوقت الذي فُتحت فيه، كما شوهد صقر يطير فوق المقبرة، ومن المعروف أن الصقر هو أحد الرموز المقدسة لدى الفراعنة.

الفيلسوف مشاكساً:

– طيب يا جلالة الملكة، ألم تقرئي في ذات المُؤّلف عن العالم الألماني الذي فتح ملف «لعنة الفراعنة» التي شغلت الكثيرين، ليفسر لنا بالعقل والطب والكيمياء كيف أن أربعين عالما وباحثا ماتوا قبل فوات الأوان، والسبب هو ذلك الملك الشاب «توت عنخ آمون»، ورغم أن هذا الملك رحل صغيرا في عمر الـ19 عاما؟

– لو صبر القاتل على المقتول فيلسوفنا العظيم.

الفيلسوف بخفة روح ومرح:

- لا لا لا، كله إلا كده، لو كان الأمر فيه قاتل ومقتول أسيبك تكملي أفضل.

- هههههه، ماشي، يظن الكثيرون أن الملك الشاب – بحسب مُؤلّفك أيضا – هو مصدر اللعنة الفرعونية، بدليل أن كل الذين مسوه أو لمسوه طاردهم الموت واحدا بعد الآخر، مسجلا بذلك أعجب وأغرب ما عرف الإنسان من أنواع العقاب. والشيء الواضح هنا هو أن الأربعين شخصا الذين رحلوا عن دنيانا كانوا ذات صلة بشكل أو بآخر بمقبرة الملك توت، والشيء الغامض في هذه الحالة هو أن موتهم حدث لأسباب تافهة جدًّا وفي ظروف غير مفهومة، لم يستطع العلماء تفسيرها تفسيرا علميا واضحا.

بعد أن انتهت زوزو (حتشبسوت) من سرد تلخيص الكتاب المشار إليه، سألها الفيلسوف الكبير:

- ألهذه الدرجة فهمت، واستوعبت الكتاب جلالة الملكة؟!

زوزو بخفة دمها ولكنتها الغربية التي أسعدت الفيلسوف:

- نعم لسببين، الأول لأن مؤلفات حضرتك شيقة وممتعة جدًّا، والثاني لأني مهمومة بمستقبل وتاريخ مصرنا الحبيبة، كما أن حضرتك شرحت فيه معنى كلمة لعنة، وكما فهمت فهي عبارة عن تعويذة سحرية، أو بعض الحروف التي تسلط على من يجرؤ على انتهاك حرمة الفراعنة، كما شرحت حضرتك في الكتاب كيف يكون لهذه الحروف «خدام» بلغة رجال الدين وعلماء النفس، وما إذا كان لهؤلاء الخدام قوة غير إنسانية، أى قوة شيطانية مثلًا، كما تطرق الكتاب إلى أن اللغة الفرعونية القديمة بها كلمات كثيرة تدل على أن الموت ليس إلا نومًا أو انتظارًا ليقظة أطول وأروع، أى يقظة مروعة أو رائعة.

واستطردت زوزو (حتشبسوت) وهي تنظر إلى الفيلسوف بإعجاب:

- في مؤلفكم أيضًا أكدت أن لعنة الفراعنة من عجائب الآثار والعلوم والطبيعة

والكيمياء والطب والسحر.

هنا قاطعها الفيلسوف الكبير مشفقًا عليها ربما، أو مكررا مشاكسته المقبولة لها:

– أريد فقط أن أوضح لك وجود نظرية جديدة تبناها علماء الآثار في أمريكا، تؤكد أن الحضارة الغربية كلها تأثرت بحضارة مصر، وأن هذه النظرية مفادها أن «علماء الآثار ركزوا جل اهتمامهم على مصر، التي أثرت في الحضارة الإغريقية»، كما يرى العلماء الأمريكان أيضًا أن الإنسان الأول إفريقي أسود. وهذا يفسر لعلماء الفلك، لماذا ترك سكان الكواكب الأخرى آثارهم في شمال ووسط إفريقيا، وليس في آسيا وأوروبا، ولا يزال البحث جاريا عن البدايات الإفريقية لحضارات الإنسان في كل مكان.

في مُؤلَّفه «في انتظار المعجزة» أبحرت حتشبسوت مع الفيلسوف داخل سفينته الثقافية التي جاب بها معظم دول العالم، ثم سألته باستنكار:

– اعترفت في أحد كتبك أن الأمريكان أفضل منا في الحفاظ على تراث الأجدَّاد و....؟

– نعم، في مؤلفي المشار إليه، وتحت عنوان «حذف كلمة إله»، من واشنطن قلت إن أعظم مهرجان لأجدادنا يُقام الآن في المتحف الوطني (142) قطعة نادرة لم نرَها في مصر معروضة الآن مع عظيم الاحترام،وفي إطار من الجمال والجلال، الفراعنة يستحقون ذلك، والقضية التي جاءوا يعرضونها: الخلود... لماذا يحرص الفراعنة على حياة بعد الحياة؟.. لماذا يرون أن الدنيا قنطرة نعبرها ولا نعمرها، أو نعمرها رغم أننا نعبرها إلى حياة أخرى؟.. لذلك أعدوا طعامهم وشرابهم ومراكبهم إلى العالم الأجمل، ولابد من حساب وعقاب، أي لابد من تطهير الجسم من وساوس النفس، شيء غريب: الفراعنة جاءوا يوحدون بالله.... بينما الصحف في أمريكا ترى حذف كلمة (الله) من قسم أمريكا.

لم تصدق حتشبسوت نفسها مما سمعته!!.. كررت سؤالها الاستنكاري للفيلسوف، لكن هذه المرة بشكل مختلف، أو إن شئنا القول، أكثر استغرابا:

– معنى ذلك أنك كنت سعيدًا بخروج كنوزنا التي لا تقدر بثمن إلى أمريكا وغيرها حتى لو كان المبرر كما ذكرت و.....؟

ابتسامة عريضة أطلقها الفيلسوف تنم عن ضعف السؤال أوسطحيته، حتى لو كانت هي الملكة الرائعة حتشبسوت بشحمها ولحمها وليست زوزو المثقفة، يصمت لحظة، غير أن فمه مازال مفتوحا من توابع ضحكته، ينظر لحتشبسوت بعمق، ثم يجيب:

– شوفي يا زوزو، أقصد أيتها الملكة حتشبسوت، الأمريكان يقولون: نقسم بالله على أن نكون مخلصين لأمتنا الموحدة، هذا القسم اعترض عليه أحد الملحدين الأمريكان، وذهب إلى القضاء يطلب حذف لفظ الجلالة؛ لأن الكنيسة ابتعدت عن السياسة.. فلا داعٍ لاسم الله، ثم أي إله هذا الذي يعنيه القسم، أهو إله المسيحيين أم المسلمين أم البوذيين؟!، وقد انزعج هذا الرجل الملحد عندما سمع ابنته الصغيرة تشكر الله، وتحمد فضله كل يوم، وحكمت له المحكمة بضرورة حذف اسم الجلالة، ولكن لابد من استئناف الحكم الهزلي لسخافته.

حتشبسوت تقاطع الفيلسوف، وتحاول انتزاع إجابة بذاتها منه:

– حضرتك بكده بعدت جدًّا عن إجابة السؤال الذي أعنيه و.....

– يا ابنتي، لم أبتعد، فقط دعيني أستكمل ما تريدين سماعه، واحكمي على كلامي بالطريقة التي تريدين.

– على الرحب والسعة، تفضل، ومليار معذرة.

– الفراعنة سافروا حينها إلى واشنطن، واستقروا بها، فذهب إليهم الألوف زائرين، وسوف ينتقل الفراعنة إلى 12 مدينة أمريكية أخرى في رحلة مقدسة، رحلة الإنسان بحثا عن الخلود، مستعينا بكل القيم النبيلة، فالحياة لها قيمة، والموت

طريق إلى حياة أخرى لها حكمة، والطريق مفروش بالذهب.

- ثم إن حضور الناس للفراعنة هنا بأمريكا صلوات لا تنتهى للأبهة الفرعونية التي ركع أمامها التاريخ، فهل كل نبي في وطنه مهان؟!

حتشبسوت مفزوعة من كلام الفيلسوف:

- هو حضرتك مصمم على أننا نُهين – عمدا – أجدادنا و.....

الفيلسوف – كعادته – واسع الصدر صبور على ضيوفه إلى أقصى حد:

- نقول تاني سيدتي الملكة مُفرطة الوطنية، لو نظرت إلى متحف التحرير ومخازن آثارنا الكبرى مثلا، وقارنتِ بين أسلوبنا في التعامل مع كنوزنا التي لا تُقدر بثمن، وتعامل الأمريكان بجزء منها، فماذا ستلاحظين؟

- سؤال حضرتك فيه تعميم، فلسنا جميعا بهذا السوء، إنما الحساب في الإهمال، والسرقة والتهريب والتزييف يقع على عاتق اللصوص ومعدومي الضمير و.....

- هههههه، أنت «عفريتة» أيتها الملكة، فواقعنا يؤكد أن الأمريكان يهتمون بالتعامل مع كنوزنا عنا، وأتمنى من المسئول الأول عن آثارنا حاليا، ألا يركب رأسه ويجمع التحف المسروقة، والتي هربت إلى أمريكا؛ لأنها تلقى هناك تعظيما لا تلقاه عندنا: من تراب مصر وخماسينها ولورياتها ولا مبالاة من 68 مليون مصري.

زوزو تكاد تُجن من كلام الفيلسوف، لكن، و..... انتهى.

***

تزييف الآثار

وجاء الحوار السادس هذه المرة بحضور ماهر (أحمس الأول)، وزوزو

(حتشبسوت)، وميرفت (نفرتيتي) – رئيسة تحرير الجريدة – نظرا لأهمية الحوار مع خبير أثري وأستاذ للآثار ومتخصص في الكشف عن تزييف الآثار، فاتسم الحوار بتفاصيل دقيقة عن تلاعب المافيا المحلية والعالمية في آثارنا بالسرقة والتزييف والتهريب.

بالإضافة إلى الحديث عن سرقة آثار من متحف التحرير يوم 28 يناير 2011، والعثور على بعضها وفقدان البقية، وكان الحوار بمقر جريدة «الرأي الحر»، بعد انتهاء الصحفيين من يوم عمل شاق حتى أرسلوا العدد إلى المطبعة.

أحمس الأول وحتشبسوت ونفرتيتي يرحبون بضيفهم، ويقدمون له واجب الضيافة، علبة من العصير الفاخر مع زجاجة مياه معدنية، وقطعتي جاتوه من أفخم محلات القاهرة.

أحمس الأول يبدأ سؤاله للخبير الأثري:

– جريمة سرقة متحف التحرير، تمت بشكل عشوائي أم بطريقة منظمة، فما تفسيرك لاستردادنا بعض هذه القطع بمحض الصدفة تارة، و...؟

يبتسم الخبير الأثري بسخرية مما يعرفه عن مهازل سرقة الآثار وتهريبها:

– دعني بداية أقول بأنني لا أصدق ادعاء البعض أن يهجم لصوص على المتحف المصري، وهم يعلمون مدى قيمة كل أثر موجود به، وفجأة وبدون مقدمات يلقون بهذه الكنوز في أماكن متفرقة؛ لكي نعثر عليها بالمصادفة البحتة!!، هذا فضلًا عن أننا صعقنا عند إعلان وزير آثار سابق بعد سرقة آثار من المتحف بعدم اختفاء أي منها، فأيهما نصدق؟والذى أزعجني أكثر أننا لأول مرة نعرف أن هناك نماذج أولى للآثار ليست أصلية فى المتحف، وهو شيء خطير، يحتاج إلى فتح ملفات للتحقيق.

نفرتيتي توافق خبير الآثار رأيه، ثم تسأله:

– أفهم من كلامك أن المتحف المصري يحتوى على آثار مزورة؟!

- لا أستطيع الإفتاء ولا أملك أي مستندات لذلك؛ لأنه حتى الآن لم يسمح لي بتطبيق نظرية الكشف عن تزوير الآثار لإخضاع جميع المتاحف المصرية للكشف عما بها للتأكد من نزاهتها!!

حتشبسوت باستياء شديد ونقم بالغ مما تسمعه لأول مرة:

- ولماذا لم يتم تطبيق طريقتكم لكشف تزوير الآثار في مصر حتى الآن يا دكتور؟

- هذا السؤال لا أعرف الإجابة عنه سيدتي الكريمة، فإجابته لدى قيادات المجلس الأعلى للآثار، الذين أرسلنا إليهم مذكرة رسمية، نعلمهم بوجود طريقة جديدة مسجلة كبراءة اختراع في الاتحاد الأوروبي لكشف تزوير الآثار؛ وذلك لعمل بروتوكول تعاون بين كلية الآثار وجامعة القاهرة والمجلس الأعلى للآثار؛ للحفاظ على الآثار المصرية من التزوير، وقد حولت قيادات المجلس المذكرة إلى اللجان المختصة لفحص هذه الطريقة، وللتأكد من مدى إمكانياتها في الكشف عن أصالة الآثار.

أحمس الأول يتدخل في الحديث، بعد أن يستأذن حتشبسوت ونفرتيتي:

- بحسب علمي يا دكتور إنك أرسلت إلى قطاع المتاحف والإدارة المركزية طلبا ينطوي على مفهوم طريقة الكشف عن الأثر المزور، ثم شرحت لهم مدى أهميتها، كما أخبرني مصدر لصيق الصلة بكم أنهم خلال اجتماع مجلس المتاحف الشهري الذى يضم جميع مديري المتاحف المصرية فحصوا طريقتك، لكنهم لم يستطيعوا فهمها، فاستدعوك لشرحها لهم، فذهبت حضرتك إليهم، وشرحت طريقتك لهم بالتفصيل، فماذا حدث بعد ذلك؟

- كلامك صحيح دكتور ماهر، حينها.....

ماهر مقاطعا الضيف ليضفي على الحوار قسطا من المرح:

– حاليا، أنا أحمس الأول يا دكتور مش دكتور ماهر، هههههه.

الخبير الأثري مبتسما:

– هههه، سمعا وطاعة مولاي جلالة الملك. المهم أن الجميع أبدوا استعدادهم التام لمراجعة جميع الآثار الموجودة بالمتاحف، وكتبوا تقريرًا في محضر المجلس حول طريقتي وأهميتها ومميزاتها، ثم أُرسل هذا التقرير إلى قيادات الآثار ليعتمدوه، وبالفعل اعتمدوه، وعقب ذلك أعلنوا عن احتياجهم لموافقة الإدارة المركزية للترميم، حينها تم تشكيل عدة لجان برئاسة مدير المتاحف،فقابلتهم وشرحت لهم طريقتي مرة أخرى، وطلبوا منى تطبيقها عمليا.

حتشبسوت توضح أنها تابعت تفاصيل هذا الأمر إلى أن اختارت قيادات الآثار لوحة بعينها يجرون عليها التجربة من متحف محمد على، وتسأل الخبير الأثري عن مدي صحة هذه المعلومة؟

الخبير الأثري يوافق زوزو فيما ذهبت إليه، ويضيف:

– هذا الأمر صحيح أيضا دكتورة زوزو، حينها بدأنا التجربة على تلك اللوحة فعلا، وبعد شهرين طلبوا منى إجراء التجربة مرة أخرى لنفس الأثر، على اعتبار أنه سافر إلى الخارج وعاد، وكتبت اللجنة تقريرا ممتازًا، وأعلنت موافقتها الرسمية على تطبيق هذه الطريقة، ثم اعتمدته قيادات الآثار ، لكن دون جدوى، فأرسلنا مذكرة رسمية باسم عميد كلية الآثار إلى قيادات الآثار تحوى كل صور التقارير التي حصلنا عليها منذ عام 2005، وحتى بداية عام 2008، ومن وقتها لم يرد علينا أحد، سواء بالإيجاب أو الرفض، وكأن الموضوع لا يشغلهم ولا يعيرونه أي اهتمام!!

نفرتيتي تنتقل بالخبير الأثري لجانب آخر، وتطرح عليه السؤال التالي:

– ما مدي صحة ما يشاع عن انتشار السرقة والتزوير بقطاع الفنون التشكيلية يا دكتور؟

– بكل أمانة السرقة والتزوير في القطاع المذكور أكثر بكثير من قطاعات الآثار الأخرى؛ لذلك أرسلنا مذكرة من عميد كلية الآثار إلى رئيس القطاع، وحتى حينه لم يرد عليها، سواء بالقبول أو الرفض. الأدهى أن رئيس جامعة القاهرة الأسبق أرسل خطابا رسميا إلى وزير الثقافة آنذاك، يضم جميع التقارير التي حصلنا عليها حول الاختراع وأهميته لمصر، إلا أن الوزير لم يجب هو أيضًا، حتى إننا جميعا لا نعرف السبب!

أحمس الأول يستأذن الخبير الأثري إذا كان لديه الرغبة في الحديث عن ملف المعارض الخارجية:

– بكل سرور، أنا مستعد للحديث معكم في أي أمر يخص آثارنا، طالما كان ذلك للصالح العام، مع العلم أنني سبق وأشرت مرارا وتكرارا إلى أن أغلب الآثار يتم سرقتها وتزويرها خلال مشاركتها في المعارض، وهنا أطرح السؤال التالي:

– على أي أساس يتم اختيار أعضاء البعثات المصاحبة للآثار المشاركة في المعارض الدولية؟

أحمس الأول يبتسم ابتسامة لها ألف معنى ومعنى، ويجيب:

– يتم اختيار هؤلاء الأعضاء طبقًا لرغبة وهوى مكتب وزير الآثار؛ نظرًا للمميزات التي يحصلون عليها، سواء أكانت مادية أو معنوية بعيدًا عن التخصص والكفاءة، حسبما وصلنا من شكاوى و.....

نفرتيتي تسأل خبير الآثار:

– تزوير الآثار ظاهرة عالمية، إلا أنها في مصر أخذت منحنى جديدا، فما الأسباب التي أدت لذلك يا دكتور؟

– ظاهرة تزوير الآثار عالمية وقديمة فعلا، وليست وليدة اليوم، حيث بدأت بعد الحرب العالمية الثانية، لكنها – بكل أمانة – منتشرة في مصر بشكل خطير

جدًّا، وتتساوى في ذلك السرقة والتجارة، وللأسف لا يوجد في مصر قانون يحرم تزوير الآثار، فالذي يقوم بتزوير عمله يدخل السجن، أما الذى يزور أثر قيمته ملايين الدولارات لا يُحاكَم. وأتمنى في التعديل الجديد لقانون الآثار الاهتمام بمشكلة التزوير؛ لأنها أخطر من السرقة. والتزوير يتم عادة فى الآثار القابلة للنقل وليست الثابتة. وتعتبر اللوحات من أكثر الآثار تزويرا لسهولة سرقتها.

أحمس الأول يسأل الخبير:

- صف لنا من فضلك كيف تتم عملية تزوير الأثر.

- أي أثر قابل للتزوير والاستبدال.. وعملية التزوير تتم من خلال عمل دراسة كاملة للصوص حول الأثر؛ لمعرفة كل خصائصه وصنع صورة طبق الأصل منه.. منتهزين فى ذلك فرصة التقدم الصناعي لإتمام جرائمهم.. فأعضاء مافيا التزوير لا يقلون عن ستة أعضاء.. الفيزيائي والكيميائي والمؤرخ الفني والفنان والمستنسخ والتاجر.. وأغلبهم علماء متميزون في مجالاتهم.. إلا أن المادة تجذبهم، فيكسبون الملايين.. وهذا الأمر متوقف على سعر الأثر.. فالنادر يصل ثمنه إلى 80 مليون دولار أو أكثر.. أي ميزانية جامعة القاهرة لأكثر من ست سنوات.

حتشبسوت للخبير:

- أشرت إلى أنه من النادر أن نجد مسئولًا يفهم في التزوير، ويستطيع أن يميز الأثر المزور من الأصلي، فما السبب؟

- السبب الحقيقي هو عدم وجود منهج علمي في أي جامعة مصرية في تدريس علم كشف تزوير الآثار، برغم تقدمه على مستوى العالم، حتى إن أغلب المسئولين في وزارة الثقافة لم يدرسوا هذا العلم، وأول منهج للتدريس في الجامعات العربية طبق عام 2005. ورغم عودتي بالدكتوراه عام 2001، فإننا

ظللنا فترة طويلة للحصول على الموافقة.

أحمس الأول للخبير:

– لكن هناك من أوضح أن المجلس الأعلى للجامعات وفر ميزانية كبيرة لإقامة هذا المركز تحت رعايتكم، مع العلم أن هذا الأمر لم يقتصر على جامعة القاهرة فقط.

– نعم،وهناك جامعات أخرى كالفيوم وحلوان وجامعة المنيا وسوهاج والإسكندرية، ومعظم الجامعات التي انتدبت فيها، أدخلت منهج الكشف عن تزوير الآثار، ولتحويل المعلومة إلى شكل واقعى؛ قمت بعمل دورات تدريبية لتعليم طريقة الكشف عن تزوير الآثار، لعلنا نمسك بزمام الأمور إن أمكن.

نفرتيتي:

– أعلم أن حضرتك وجدت صعوبة في تطبيق طريقتك بمصر، طبعا في الوقت الذي طالبته دول بعينها بالتعاون معنا في هذا المجال.

– للأسف الشديد، كلامك صحيح عن «عرقلة» الموضوع في مصر، لكن السعودية وقطر وسوريا، أرسلنا إليها، وطلبت وجود تعاون علمي من خلال السفارات، كما أن هناك البوسنة والهرسك وجورجيا وروسيا البيضاء، وأخيرًا الإمارات، أرسلت إلينا رغبة في التعاون، فضلا عن دول الاتحاد الأوروبي جميعًا، إلا أننا في مصر حتى الآن لا نزال غائبين عن الوعى.

أحمس الأول بصوت مكلوم على وضع الآثار الحالي:

– حتى لو كان بيننا شخصيات نافذة ترفض تطبيق علم تزوير الأثر لأهداف وأغراض مفهومة للجميع، فليس معنى ذلك أن تستسلم يا دكتور.

– الموضوع أكبر مني ومنكم يا إخواننا والله، ومع ذلك أنا حريص على تطبيقه

في مصر؛ حفاظًا على آثارنا الغالية، وأؤكد أنني لو اكتشفت أي تجاوز، فلن أعلن عنه. سنبدأ صفحة جديدة في الحفاظ على آثارنا؛ وذلك حتى يتشجع المسئولون، ويوافقوا على تطبيق الابتكار في مصر؛ لنحمى آثارنا النادرة.

حتشبسوت للخبير:

- متى بدأت البحث عن طريقة أكثر أمانًا للكشف عن تزوير الآثار يا دكتور؟

- تحديدا كان ذلك بعد سرقة لوحة الخشخاش للمرة الأولى عام 1979 وعودتها مرة أخرى للمتحف خلال فترة الثمانينيات، مع تأكيد المسئولين أنها القطعة الأصلية. وبعد عامين من عودتها اكتشفوا أن هناك لوحة أخرى تباع في أحد معارض لندن بـ82 مليون دولار، وللأسف لا يزال المسئولون في قطاع الفنون التشكيلية متأكدين أنهم يمتلكون القطعة الأصلية، وذلك دفعني للبحث عن طريقة جديدة للكشف عن تزوير الآثار، هذا فضلًا عن كثرة السرقات والتزوير فى الآثار المصرية، وتطور مافيا التزوير.

نفرتيتي:

- وما الفكرة التي تدور حولها طريقتكم؟

- هناك خاصية فيزيائية متفردة في كل 2 مم من مساحة الأثر، ومن المستحيل تكرارها مدى الحياة؛ فهي منحة إلهية تشبه بصمة الإصبع؛ لإثبات وحدانية الله. ومن خلال هذه الخاصية نستطيع التأكد من مدى أصالة الأثر: هل هو أصلى أم مزور؟ البصمة تظهر عند تكبير خاص جدًّا بالميكروسكوب وقبل هذا التكبير لا تظهر، وكذلك بعده.

أحمس الأول للخبير:

- وهل الأجهزة المستخدمة في هذه الطريقة متوافرة في كل أنحاء العالم؟

- نعم، بل ورخيصة جدًّا، إلا أن الميكروسكوب له مواصفات معينة، حيث

إنه يتحرك 160 درجة؛ لنستطيع استخدامه مع الآثار كبيرة الحجم. اكتشفت هذه الطريقة في بولندا، وسجلتها في الاتحاد الأوروبي، ولأنها دولة تابعة له، فكل مكاتب براءات الاختراع مرتبطة بعضها ببعض، بحيث لو سجلت فكرة في أي دولة من دول الاتحاد تمر على الدول جميعا، للتأكد من كفاءتها ومن كونها غير مسروقة بعيدا عن المجاملات، لذا استمرت ثماني سنوات لتسجيلها من عام 1998 حتى 2006.

نفرتيتي:

– سبق وصرحت أنك تعتمد في كشف تزوير الأثر على طريقة البصمة المعلنة.

– هذا صحيح، فأنا أعلنها لكل الناس؛ لأنها يصعب تقليدها وتزويرها؛ حيث إن الخصائص الفيزيائية التي تميز الأثر لا تتكرر ولو مرة واحدة فى المليون، فاللجنة العلمية التي وافقت على تسجيل براءة الاختراع في الاتحاد الأوروبي ليتأكدوا من مدى كفاءته؛ صنعوا آلاف المستنسخات باستخدام نفس الأدوات ونفس الفنان في نفس المكان والزمان؛ حتى تكون لها نفس الخصائص الفيزيائية، وبتطبيق الطريقة على المستنسخات، تأكدوا من أن الخاصية الفيزيائية للأثر لا تتكرر ولو مرة واحدة؛ لأنها لو حدثت ولو بالمصادفة بنسبة واحد في المليون مثلًا، لفشل الاختراع.

أحمس الأول:

– ما الفرق بينها وبين الوسائل الأخرى المستخدمة فى قطاع الفنون التشكيلية والمجلس الأعلى للآثار لكشف التزوير ؟

– الطريقة التي يستخدمونها في قطاع الفنون هي باختصار أنهم يحضرون الأثر، ويعرضونه للأشعة، ويضعون عليه بصمة سرية، من خلال تحديد عناصر اللون الموجودة في الأثر، والتي تواكب وتتفق مع خصائصه التي اكتسبها من العصر الذى صنع فيه، ويختارون منطقة محددة يضعون عليها بصمتهم السرية، ويتم تطبيق هذه الطريقة عند سفر الأثر للمشاركة بالمعارض فى الخارج، وعند عودته

يحللون مكان البصمة السرية ليتأكدوا من وجود نفس العناصر بنفس الخصائص، وفى حالة وجود تغيير، يعتبر الأثر مزورا. ورغم أن هذه الطريقة معتمدة، فإنها لا تصلح لقياس مدى تزوير الأثر؛ لأنهم يعتمدون على سرية تحديد المكان الذى أخذت منه البصمة.

حتشبسوت:

- وهل استطاعت مافيا التزوير التغلب على ذلك؟

- بالفعل، مافيا التزوير استطاعت التغلب على ذلك من خلال عمل مسح شامل لكل مللي في الأثر لمعرفة خصائصه الكاملة، وصنع أثر مطابق تماما لكل المقاييس الأصلية، وبالتالي عند القيام بتحليله للتأكد من البصمة السرية، يصعب تحديد كونه مزورا أم لا. المشكلة الأكبر أن الطريقتين الموجودتين في المجلس الأعلى للآثار وقطاع الفنون التشكيلية لا تصلحان، ورغم ذلك يطبقانهما في كثير من الأحيان، لاسيما في المعارض التي تسافر إلى الخارج، ففي أحد المعارض الفرعونية لتوت عنخ آمون التي تسافر دائما لم تطبق طريقة كشف التزوير على الأثر.

أحمس الأول:

- إذًا كل ما يشغل بال المسئولين هو حمايتها من التلف، بل ويتعاقدون مع شركات عالمية، ويدفعون الملايين؛ حتى لا تتعرض للكسر أو السرقة. أما فكرة التزوير فأظنها غائبة عنهم.

- هذه هي الحقيقة مع الأسف الشديد، على الرغم من خطورتها؛ لأن السرقة يسهل اكتشافها، لكن التزوير من الصعب التوصل إليه بسهولة. وحدث وكان هناك معرض لأحد القديسين المشهورين على مستوى العالم، وطلبوا من كل دولة الأيقونات التي تخص القديس؛ للمشاركة في المعرض، وأخذوا من مصر خمس أيقونات، وعرضوها لفترة، وعند عودتها اكتشفوا أن واحدة منهم زائدة في الحجم 9 سم؛ مما يعنى أنها مزورة.

نفرتيتي:

- بصراحة يا دكتور، أين قياداتنا الأثرية من هذه الجريمة؟

- المزور لم يهتم بإخراجها بالشكل الصحيح؛ لأنه على ثقة بأن مصر لن تعير موضوع تزوير الآثار أي اهتمام، حتى إنهم لم يكتشفوا التزوير،وصدق حدثه وتغاضى المسئولون عن متابعة المعرض و عن زيادة الأيقونة 9 سم، وقالوا إنه خطأ في القياس! وخلال السنوات الماضية سافرت بعض الآثار الفرعونية للمشاركة في أحد المعارض باليابان، ومكثت هناك فترة طويلة.

أحمس الأول مقاطعا الخبير الأثري:

- أظن خلال هذه الفترة قام الخبراء اليابانيون بتقليد كل قطع المعرض بحسب تصريح سابق لحضرتك للإعلام.

- بالفعل، وفى نهاية المعرض تسلمت اللجنة المصاحبة للآثار القطع، دون أن تتأكد من أصالتها. وقبل خروجهم من صالة المعرض أخبرهم المسئولون اليابانيون أن كل الآثار الموجودة لديهم مزورة. وهى بادرة منهم لمساعدة المصريين على حماية آثارهم، وسلموهم الآثار الأصلية. الغريب أن اليابانيين قلقون على آثارنا أكثر منا، ونحن لا نعير هذا الموضوع أي اهتمام، حتى إننا لم نستفد من هذا الموقف، حيث لا تزال آثارنا تسافر إلى المعارض، ونحن في غيبة: هل هي مزورة أم لا؟!.. انتهى.

مومياواتنا للبيع!!

الحوار الأخير عُقد أيضا بمقر جريدة «الرأي الحر» في وجود ماهر (أحمس الأول)، وميرفت (نفرتيتي)، وزوزو (حتشبسوت)، مع أحد الخبراء المتخصصين في المومياوات؛ وذلك لفك طلاسم سرقة رفات أجدادنا، قدماء المصريين وبيعها للأجانب بمبالغ خيالية.

قبل أن يبدأ الحوار بين الضيف والمحاورين، دار بينهم حديث جانبي في منتهى الأهمية والخطورة، كان ملخصه وجود ثغرات في قوانينا تسمح لمعدومي الضمير والوطنية بالتلاعب والعبث بجثث أجدادنا قدماء المصريين، بالإضافة إلى حماية بعض اللصوص الذين يحفرون بطرق غير شرعية في أماكن أثرية لاستخراج هذه الجثث.

حتشبسوت تكرر ترحيبها للضيف بعد أن أعدت له بنفسها فنجانا من القهوة الفرنسي بالحليب، سكر زيادة حسب طلبه، وتبدأ سؤالها الأول:

– ليتك تكشف لنا المؤامرة الكبرى التي تتعرض لها «جثث» أجدادنا قدماء المصريين على يد لصوص الداخل ومافيا الخارج؟

خبير المومياوات يوضح أنه كتب مقالا تفصيليا في جريدة قومية به كل ما لذ وطاب عن جرائم اللصوص بحق مومياواتنا، ويقول:

– يمكنكم الاستعانة بما كتبته فيه، مع إضافة أنني حقا اندهشت ولا أزال حينما علمت أن جهات التحقيق عندنا لم تحقق حتى الآن في أخطر مشروع (المومياوات) تعرضت له آثار مصر منذ عام 1952، واندهاشي قائم على أن تحقيقات الآثار التي نُفذت في السنوات الأخيرة، كانت في قضايا مبنية على أدلة ضعيفة.

أحمس الأول:

– أضم صوتي لصوتك يا دكتور، فأنا أيضا مندهش جدًّا من أن تلك التحقيقات التي لم تتطرق من قريب أو بعيد إلى الجريمة الكاملة التي نفذت على أجساد أجدادنا المصريين، وستكون لهذه الجريمة آثار خطيرة في المستقبل، ليس فقط على الأجساد الملكية المصرية، وإنما ستتعلق بالتاريخ المصري القديم ومحاولات سرقته، كما ستتعلق أيضًا بـ«الأمن القومي المصري».

نفرتيتي:

– في الحقيقة حالتي النفسية كانت قاب قوسين أو أدنى؛ بسبب الفيلم الوثائقي

الذي بثته «bbc » عن مومياء الملك توت عنخ آمون يا دكتور.

خبير المومياوات بدا كمن لدغه عقرب، أوشك على البكاء من حجم المأساة:

– أنا مثلك والله أستاذة ميرفت. لقد فوجئت كما فوجئ كل المصريين مؤخرا بفيلم وثائقي عن الملك توت عنخ آمون في قناة الـ«بي بي سي» بعنوان «حقيقة توت عنخ آمون»، وتعمد الفيلم تشويه الملك دون أن يتحرك أحد لملاحقة كل من تسببوا في هذا الجُرم.. ولم ينتبه أحد إلى أن النتائج المشوهة كانت جرَّاء ما حدث في المومياوات الملكية أيام نظام مبارك.. وكل يوم نكتشف عن تسرب عينات من الأجساد الملكية، ولم يُفكر أحد أن يسأل نفسه: من الذى سربها؟وماذا سيفعل بها الذين في حوزتهم هذه الأبحاث الآن؟

أحمس الأول:

– أتتفق معي أن هذه الجريمة ستؤثر بشكل أو بآخر على أمننا القومي؟

– بالفعل، فمنذ وقت قليل مضى حدث جدل حول مومياء توت عنخ آمون، وفوجئ المصريون بعد هدوء هذا الجدل أن اللجنة الدائمة لآثارنا اتخذت قرارًا بإعادة المومياء إلى مكانها الأصلي في غرفة الدفن بعد أن ظلت تعرض لمدة سبع سنوات في الغرفة الأمامية، ولم يسأل أحد نفسه أيضًا من الذى اتخذ قرار نقلها من غرفة الدفن إلى الغرفة الأمامية بمقبرة توت عنخ آمون؟! وهل قرار إعادتها ناتج من تعرضها للتلف؟!.. وهل حُوسب المسئولون عن ذلك؟

حتشبسوت تحاول استخلاص معلومات أكثر إثارة من خبير المومياوات:

– بكل صراحة يا دكتور – و لو من باب الأمانة العملية – من الذي سنُحاسبه على هذه الجرائم؟

خبير المومياوات يذرف الدموع هذه المرة، وبمرارة يرد:

– في الحقيقة شخص واحد حُوسب عن مشروع المومياوات الملكية وعما حدث لموميا‌ء توت عنخ آمون يا دكتورة زوزو، وهذا الشخص هو الذي تتحدثين معه الآن. نعم لقد تعرضت لكل أنواع الاضطهاد والسخف، لا لشيءسوى أنني واجهت من قاموا بالمشروع « الجريمة» على مومياوات ملوك مصر وقت تنفيذ المشروع. وأعتقد أن شعب مصر من حقه أن يعرف ما حدث، ويعرف القصة من بدايتها، وذلك حينما استيقظ المصريون على خبر يوضح نسياننا لموميا‌ء ملكية مصرية بالخارج. ولكن القصة لم تكن كاملة، بل كانت مسرحية تساهم في تغييب المصريين عن الوعى بتاريخهم.

نفرتيتي بصوت حزين تتحسر على معاقبة أثري وطني حاول أن يتصدى للفساد، وأي فساد! فتقول:

– لنا الله والله يا دكتور، وعموما سيأتي اليوم الذي تعرف جيدا هذه القيادات قيمتك، لكن ما أحزنني في موقفك من هذه المهاترات هو مشاركة شخصيات معروفة في القضية؛ من أجل عمل إنجاز وهمى لنظام «.....»، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه المومياء سُميت بأسماء عدة، منها «موميا‌ء أطلانطا»، و«موميا‌ء متحف مايكل كارلوس» و.. .. ولكنها كانت ستدخل مطار القاهرة باسم موميا‌ء «الملك رمسيس الأول»، على الرغم من أن الفراعنة أنفسهم فقدوا «موميا‌ء رمسيس الأول، ولم يعرفوا مكانها، واضطروا لوضع موميا‌ء أخرى مكانها في تابوت الملك! ولولا كتاباتك في بعض الجرائد الرسمية حول هذا الموضوع، لكان العالم يضحك على غبائنا وجهلنا بتاريخنا!!

خبير المومياوات يشكر ميرفت:

– بكل أمانة، يكفيني شعور وإحساس ناس مثلكم بتاريخنا المهدر، وسيأتي اليوم الذي ينكشف فيه المستور للأجيال القادمة.

أحمس الأول يزج بخبير المومياوات في آتون الواجب الوطني؛ ليستخلص منه أدق تفاصيل حجم المأساة التي تتعرض لها جثث أجدادنا:

- حسب متابعتي لكتاباتكم في الجرائد ومداخلاتكم في الإعلام المرئي والمسموع، لابد أن يكون لديكم حصر دقيق لأعداد المومياوات الملكية بمصر.

خبير المومياوات يحسم الأمر:

- بكل تأكيد، هذه المومياوات يصل عددها إلى ست وخمسين مومياء ملكية موزعة بين ثلاثة متاحف، وهي: المتحف المصري، ومتحفا الأقصر والتحنيط بمدينة الأقصر.وتم الكشف عنها في خبيئتي: الدير البحري ووادي الملوك عامي 1881 و1898. والمومياء الملكية الوحيدة التي توجد بمقبرتها منذ اكتشافها عام 1925 هي للملك توت عنخ آمون.

حتشبسوت:

لكنك صرحت منذ وقت قريب أن المومياوات المشار إليها خضعت للفحص البصرى والأشعة السينية، وكان آخر فحص تعرضت لهعام 1968 بواسطة بعثة مشتركة بين جامعتي الإسكندرية وشيكاغو.

- ده كلام صحيح، لكن مومياء الملك توت عنخ آمون تميزت بفحصها أربع مرات، آخرها كان في عام 1972 بواسطة طبيب الأسنان الأمريكي جيمس هاريس، وكان الهدف الرئيسي المعلن من فحص المومياوات الملكية هو الحصول على معلومات عن أعمار الملوك وأسباب وفاتهم وبيانات عن أجسادهم!!

نفرتيتي تستفز خبير المومياوات بدهاء مرغوب في مثل هذه الحوارات:

- بصراحة يا دكتور،وأنت أهلا للصراحة، هل هناك ما يمنعك من أن تكشف لنا وللقراء عن السبب الخفي حول «مهزلة» فحص مومياوات أجدادنا القدماء؟

- بكل سرور، ولِمَ لا؟ أذكر في هذا الصدد وجود جدل محلى- عالمي حول جدوى فحص المومياوات الملكية الذي أعلن عنه المجلس الأعلى للآثار، وبدا للعالم وللمصريين أن هذا المشروع غير مدروس بسبب التخبط وعدم وجود دراسة كاملة عنه، وقد ثار الجدل حول الهدف من الدراسة، وتقنيات الفحص، والقائمين على الفحص،وانتقد الأثريون هذا الفحص، وانتقل الانتقاد من أروقة الأثريين إلى الإعلام.

أحمس الأول:

- ولكن هذا الأمر لم يحرك ساكنا للمسئولين بالدولة.

- هذا ما صرحت به للإعلام، حينها طالبت بوقف العبث بأجساد ملوك مصر، وأصر المسئولون بالمجلس الأعلى للآثار على تنفيذ فحص المومياوات الملكية في هيئة مشروع سُمِّيَ حينها «مشروع المومياوات الملكية» مع مؤسسة الجمعية الأمريكية، وقد وُقِّعَ عقد بتنفيذ المشروع يستغرق خمس سنوات، وكان العقد قد وُقِّعَ قبل الجدل الذى دار بين الأثريين في 30 ديسمبر عام 2003 – 2008. كما انقسم المشروع إلى ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: البحث عن دلائل حول عادة المصريين فى التضحية بالبشر، وسُمِّيت هذه المرحلة باسم «قربان الدم».

- المرحلة الثانية: تناولت شخصيات محاربة مثل «الملك سقنن رع والملك تحتمس الثالث».

- أما المرحلة الثالثة: فأسمتها الجمعية الأمريكية«نفرتيتي»، وهى تتعلق بعائلة الملكة نفرتيتي، والتي تضم «إخناتون ونفرتيتي نفسها، وتوت عنخ آمون وابنتيه ووالدة ووالد الملكة تي، اللي هما: يويا وتويا، وزوجها الملك أمنحتب الثالث».

حتشبسوت تضع يدها على شبهة فساد وتواطؤ:

– أليس مستغربا يا دكتور قيام مؤسسة إعلامية أجنبية بالمخالفة لقانون الآثار بهذا العمل؟!

– طبقا لقانون الآثار المصري، فهذا الوضع مستغرب فعلا؛ لأن أي حفائر أو مشروع ترميم أو صيانة أو دراسة للآثار المصرية، لا يُسمح بها لأى معهد أو جامعة مصرية أو خارجية إلا بعد أن تستوفى الشروط الخاصة بذلك، سواء العلمية أو الأمنية. وكان من الغرابة أن يسمح المجلس الأعلى للآثار بمؤسسة إعلامية ليست لها خبرات علمية بأن تقوم بدراسة المومياوات الملكية، ولم تكن هذه الجمعية تعمل تحت غطاء علمي؛ وبالتالي يعد التعاقد معها مخالفتين:

– الأولى: أنه تم التعاقد معها دون العودة إلى مجلس الشعب.

– والثانية: مخالفة قانون الآثار؛ باعتبار أنها لا ينطبق عليها الشروط العلمية، وقد يؤدى ذلك فى النهاية إلى تدمير للبقايا البشرية التي تخص ملوك مصر، ومن الغريب أن المؤسسة الأمريكية المعنية لا تستطيع الحصول على حق دراسة مومياوات الهنود الحمر في بلدها، ولم تجرؤ على إقامة مثل هذه الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية، يُضاف إلى ذلك وجود شبهة وأعمال خاصة بين بعض مسئولي الآثار وهذه المؤسسة قبل إقامة الدراسة وأثناءها وحتى الآن؛ حيث يعمل عدد من مسئولي الآثار كمستشارين و«مستكشفين مقيمين» لدى تلك الجمعية ، وتربطهم صداقة ، وبالتالي تعد هذا مخالفة قانونية.

نفرتيتي لخبير المومياوات:

– وماذا عن الشركات الأوروبية التي استغلت هذا الحدث في أعمالها الخاصة؟

– من الأخطاء القانونية التي وقع فيها مسئولو الآثار الذين سمحوا لمشروع المومياوات الملكية وجود شركة ألمانية متخصصة في بيع المستلزمات

الطبية، وهى التي منحت جهاز الأشعة المقطعية الذى سيستخدم في دراسة المومياوات الملكية، وتقوم هذه الشركة بالدعاية والإعلان عن أجهزتها، وهذا يشير إلى أنها ستستخدم جهازًا تسوق له عالميًّا، وسيكون ذلك على أجساد الملوك المصريين. والغرابة أن هذه الشركة ساهمت بنصف منحة الجهاز. أما الجمعية فساهمت في صيانة الجهاز على مدى خمس سنوات، ولم نحاسب الشركة على قيمة الدعاية التي ستحصل عليها من خلال دراسة الأجساد الملكية.

أحمس الأول:

– وهل التزمت الجهات الأجنبية المسئولة عن فحص جثث أجدادنا بسلامتها إذا أصابها أي مكروه؟

– أبدا، حيث بدأ فحص المومياوات الملكية بعد جدل كبير وعدم وجود ضمانات حول سلامتها، وانقسم الفحص تقنيا إلى مرحلتين، وهما: مرحلة الأشعة المقطعية، ومرحلة تحليل الحمض النووي. وبدأت المرحلة الأولى في ديسمبر 2004 بشكل سرى بعيدًا عن أعين الإعلام المصري، وتم عمل أشعة مقطعية للملوك الموجودين في قاعتي المومياوات الملكية بالمتحف المصري.وفي الخامس من يناير 2005 تم تنفيذ عمل الأشعة المقطعية لمومياء الملك توت عنخ آمون والمومياوات الثلاثة بمقبرة رقم 35 بوادي الملوك وهى المرأة العجوز والمرأة الشابة والطفل.

حتشبسوت:

– على ما يبدو فإن الجمعية الأمريكية لم تكن مقتنعة بخبرة المصريين فى الأشعة المقطعية.

– ربما؛ لذا أرسلت تلغرافًا لاستدعاء فرانك راؤول بجامعة زيورخ بسويسرا،كما استدعت كلا من إدوارد أجرتل وبول جوستنر من إيطاليا؛ وذلك لدراسة صور الأشعة المقطعية. ويبدو أن المشروع لم يكن مدروسًا.وبسبب

استدعاء هؤلاء المتخصصين والجدل في الاستعانة بالأجانب؛ استدعى المجلس الأعلى للآثار تليفونيا الدكتور أشرف سليم؛ للاستعانة به وإسكات المنتقدين والإعلام المصري.

نفرتيتي تضع يدها على «عطب» التعاقد المجحف بحق ملوكنا الفراعنة:

- ألم تكن مرحلة تحليل الحمض النووي ضمن التعاقد مع الجمعية الأمريكية؟

خبير المومياوات ينفي:

- إطلاقا، وإنما مع مؤسسة إعلامية أخري، وهى قناة ديسكفري وهذا خطأ آخر، ويعد هذا هو الأخطر؛ لأن عينات الحمض النووي لملوك مصر في أيدى مؤسسة إعلامية أجنبية.. وقد أُجبِرَ مسئولو الآثار المصريون على هذه الاتفاقية، بعد أن بدأت الصحف الإنجليزية تشكك في التعاقد مع الجمعية الأمريكية، وسُمِحَ للإنجليز بالدخول في اتفاقية جديدة على أجساد ملوك مصر.

أحمس الأول:

- علمت أن هذه الاتفاقية وقعت على أساس إقامة معمل للحمض النووي في المتحف المصري بتكلفة 2 مليون دولار، مقابل ماذا برأيك؟

- المقابل المعروف لدينا، هو التصوير والمشاركة في تحليل الحمض النووي لملوك مصر، مع العلم يا سادة، بأن هذه هي المرة الثانية التي لم تثق قناة ديسكفري فيها بخبرة المصريين في الحصول على عينات من المومياوات الملكية وتحليلها، واستدعى منتج قناة ديسكفري براندو كويلتشي الإنثربولوجية المتخصصة فى مومياوات ، وهى إنجيليك كورثالز، والتي لم يكن لديها وقت، فرشحت مكانها ألبرت زنك-مدير معهد المومياوات بإيطاليا.

خبير المومياوات يلفت انتباهه صوت عالٍ لقيادي أثري في تليفزيون الدولة،

وهو يتحدث عن المميزات المتعددة للمعارض الأثرية في الخارج. يصمت الخبير قليلا، ثم يضحك بشكل هستيري على كذب ونفاق هذا الأثري – بحسب تأكيده – ويخرج بمحاوريه عن موضوع الحوار، ثم يسألهم:

– هل تصدقون ما يقوله هذا الأثري الذي يصغرني بعشر سنوات، وللأسف الشديد أصبح رئيسي،وذلك عن المميزات التي تعود على مصرنا الحبيبة من سفر كنوزنا الأثرية النادرة للخارج؟!

أحمس الأول:

– أعرف أنه وصولي جدًّا، ولا يُحركه سوى هدفه الخاص دون المصلحة العامة.

خبير المومياوات:

– هذا قليل من كثير والله يا دكتور ماهر، ومع ذلك فهذا الأثري مجرد نموذج مُصغر في النفاق والتدليس و..... .

– حتشبسوت ونفرتيتي تتحسران على ما كشفه خبير المومياوات.

فيما يحاول أحمس الأول الخروج من نفق اللامفيد بقوله:

– دعونا الآن نرجع إلى موضوعنا إذا كان لدى خبيرنا المحترم الوقت الكافي والشهية اللازمة لاستكمال الحوار.

– على الرحب والسعة، هو احنا ورانا إيه يعني؟ اتفضلوا.

حتشبسوت مُصممة على استخلاص إدانة صريحة وواضحة لأصحاب الضمائر الخربة في قطاع الآثار، وتسأل:

– ألديك معلومة مؤكدة عن المومياوات التي تعرضت للاختبارات، وكذلك المبالغ التي حققتها وسائل الإعلام الأمريكية من هذا المشروع؟

خبير المومياوات:

- هذه المرحلة بدأت بمومياء حتشبسوت:

-هنا تقاطعه دكتورة زوزو بابتسامة عريضة، ثم تسب وتلعن من قام بفحص مومياء مليكتها المفضلة.

يشارك الحضور زوزو في الابتسامة للحظات، ويعود الخبير الأثري لمواصلة حديثه.

- كما نجحت قناة ديسكفري في عمل فيلمين وثائقيين عن حتشبسوت ونفرتيتي في يوليو2007، جنت منهما أرباحا خيالية، ولكن المثير في مرحلة الحمض النووي هو ما حدث في 24 فبراير عام 2008 بخصوص العينات التي أخذت من مومياء توت عنخ آمون والمومياوات الثلاثة في مقبرة رقم 35 سالفة الذكر، ويعد هذا غريبا؛ لأنه من المفترض أن يتم الحصول على عينة واحدة، وهذا يفرض تساؤلًا: لمن ستكون تلك العينات الإضافية غير عينة الدراسة؟! وهل تم أخذ ثلاث عينات من كل مومياء ملكية ولم تستفد مصر من هذه المرحلة سوى بعشر صفحات تم نشرهما في دورية الجمعية الطبية الأمريكية في 17 فبراير عام 2010؟!

نفرتيتي تلقي بحجر صلب لتحريك المياه الراكدة في بحيرة الفساد:

- في ظني يا دكتور أن المومياوات التي نالت اهتمامًا أكثر في هذا المشروع تخص الملك توت عنخ آمون.

- هذا الكلام حقيقي.وتم فحصها بالأشعة المقطعية وتحليل الحمض النووي، ونُفِّذ الفحص بالأشعة المقطعية في الخامس عشر من يناير 2005، كما أن هذا الفحص نُفِّذ بتحليل الحمض النووي في عام 2008. وفى الخامس من يناير 2005 تم فحص مومياء الملك توت في جو غير ملائم، وكانت هناك عاصفة

ورياح وأمطار أثناء نقل جسد الملك من المقبرة وإدخاله في العربة المتحركة التي كانت تضم جهاز الأشعة المقطعية، وسوف تبدو في المستقبل آثار هذه العملية وهذا الفحص.

أحمس الأول:

- معنى ذلك أنك تدق ناقوس الخطر من الاختراق الصهيوني العالمي لتاريخنا؟

- نعم، وفي الوقت ذاته أكرر التحذير من حجم المؤامرة التي تتم بمساعدة بعض مسئولينا معدومي الوطنية والضمير، ومن أهم النتائج التي نتجت عن المشروع الخطيرما حدث في أواخر السنة الماضية، حيث أنتجت القناة الأولى بهيئة الإذاعة البريطانية فيلمًا وثائقيًّا عن توت عنخ آمون، وجاء قرار اللجنة الدائمة بإعادة مومياء هذا الملك إلى تابوت الدفن، بعد أن نقله المجلس الأعلى للآثار إلى الغرفة الأمامية بمقبرة الملك منذ سبع سنوات.. ومؤخرا بثت قناة «بي بي سي- 1 » فيلمًا وثائقيًّا بعنوان «حقيقة توت عنخ آمون».

حتشبسوت:

- بعض المصادر الأثرية أكدت أن هذا الفيلم كان مشوهًا لشكل وسيرة الملك.

خبير المومياوات يؤكد:

- أنا أيضا قلت ذلك مرارا وتكرارا، حيث قامت قناة «بي بي سي- 1» بما يُسمَّى «الفحص التقديري» لمومياء الملك باستخدام تقنية الحاسب الآلي، واعتبرت القناة توت عنخ آمون أنه وُلِد بـ«زنا المحارم»؛ نتيجة الزواج بين أخ وأخت، وهما الملك إخناتون ونفرتيتي. وهذه إحدى النتائج الكارثية التي ادعى مشروع الجمعية الأمريكية التوصل إليها!! كما شارك في هذا الفيلم مصريون كانوا أعضاء في مشروع

الجمعية.

أحمس الأول:

– لكن اللجنة الدائمة للآثار المصرية كانت قد قررت إعادة مومياء توت عنخ آمون إلى مكان دفنها الأصلي، وهو التابوت الموجود بغرفة دفنه.

– ما حدث عبارة عن «تهريج في تهريج»، فكيف لنا أن ننقل مومياء بقيت لمدة ثلاثة آلاف عام منذ 1323 ق. م، وحتى 2007 م، ونظن أنها ستظل محتفظة ببيئتها الأصلية طوال هذه السنين من مكانها لأسباب غير علمية وغير مقنعة على الإطلاق. ومع كل ذلك المجلس الأعلى للآثار، هذه المومياء فى شهر نوفمبر عام 2007 إلى فاترينة زجاجية بالغرفة الأمامية بنفس المقبرة، وبالتالي أصبحت المومياء عرضة لدرجة الحرارة العالية ودرجة الرطوبة التي تصل إلى 80٪؛ نتيجة لعدد الزوار الذين يزورون المقبرة.

حتشبسوت تحاول الوصول لنهاية الحوار إشفاقا على الضيف:

– سؤال أخير يا دكتور، وسامحنا على الإطالة.

– اتفضلي وأهلا وسهلا. بالعكس أنا سعيد جدًّا بوعيكم ووطنيتكم وكتاباتكم عن هذا الملف الخطير.

– ماذا لديك عن الأخطار التي تتعرض لها الآن ومن قبل مومياء الملك الذهبي؟

– شوفي دكتور زوزو، هههههه، أقصد يا ملكة حتشبسوت، لقد ظلت مومياء الملك توت عنخ آمون تتعرض لأخطار التلف والتدمير طوال سبع سنوات، لأن فاترينة العرض التي وضعت بها، بكل بساطة، لم تكن مطابقة للمواصفات، وكلفت الدولة 300 ألف جنيه في حينها، مع العلم أنها لا تستحق أكثر من خمسة آلاف جنيه

طبقا للمستندات؛ لذا يجب محاسبة الأعضاء الذين أكدوا مطابقتها للمواصفات، كما أن ماكينة تغيير الهواء غير صالحة ولا تعمل، وكلفت الدولة أيضًا نصف مليون جنيه في وقتها، ولكن الأخطر من ذلك هو التدمير المباشر للمومياء بإصدار قرار نقلها من التابوت وعرضها في الغرفة الأمامية، وقرار اللجنة الدائمة بإعادتها إلى التابوت لصيانتها يعنى أنها تعرضت إلى أخطار التلف، بل وشكلت اللجنة الدائمة لجنة زارت المقبرة، ودرست أوضاع المومياء، كما أن ما حدث في المومياوات الملكية هو جريمة تستوجب العقاب؛ لأن المومياوات الملكية هي تراث يخص المصريين والإنسانية، ولم تكن حقل تجارب من أجل شهوة إعلامية أو مجد وهمى.

أحمس الأول:

- بمنتهى الأمانة والصدق، ودون خوف من مسئول هنا أو هناك، ما طلباتك في ملف المومياوات؟

- أطالب جهات التحقيق بفتح هذا الملف الذى يدل على أوهام نظام مبارك، والذى شارك في تدمير جزء من التاريخ المصري، وسرب عينات الملوك المصريين للخارج، والتي أصبحت الآن في أيدى من يستطيعون سرقة التاريخ المصري بأدلة مزورة طبعًا، ويستطيعون تشويه تاريخ المصريين. وبدأ هذا التشويه في أواخر السنة الماضية، وسيستمر طالما لم تكن هناك محاسبة أو عقاب.. انتهى.

■ الفصل الرابع عشر
البعثات الأجنبية

لكل ما سبق أردف ماهر قائلا:

- الحوارات السابقة كانت بذات القوة والمستوى لكل المواد الصحفية الأخرى بجريدتي «الرأي الحر» كالتحقيقات، الأخبار، المقالات، التقارير، والتحليلات بكل أنواعها، ومن ثم ذاع صيت الجريدة، وأقبل على شرائها القارئ العادي قبل المثقف والمتخصص، كما أصبحت الجريدة محل ثقة للمصادر المحترمة في كل مؤسسات الدولة، وكذلك محل تقدير ومتابعة من الأجهزة المعنية، ويُكمل:

- في مقر الجريدة زارني أحمد بك، وطلب مني أن أعطيه نبذة بسيطة عن البعثات الأثرية الأجنبية التي أوصت بحمايتها بروفيسور سارة وشركاؤها، فبدأت

أطلعه على آراء علماء وخبراء: آثارنا وتاريخنا وديننا المخلصين على مسجلي الخاص تارة، وعن طريق ذاكرتي ومؤلفاتهم تارة أخرى.

- فأحدهم على سبيل المثال لا الحصر يقول:

- إذا كنا حقًّا نؤمن بالتاريخ كما يؤمن به زعماء العالم وحكماؤه، فلا بد أن نعيد قراءته من أجل الحفاظ على تراثنا وحضارتنا من عدو غادر لا يرحم من يتغافل عن حقوقه، ولدينا العديد من الشواهد التي نستدل بها على جُرم الصهاينة وكيدهم لنا منذ آلاف السنين وحتى اللحظة، إذ كيف نفسر عداءهم المستحكم لتراثنا على يد عملائهم في بعثات التنقيب الأجنبية عن آثارنا؟!

أحمد بك ينظر لماهر وعلى وجهه عدة أسئلة حائرة:

- وفين وزارة الآثار يا ماهر مما يحدث في هذا الملف ؟

- يا افندم، دعني أجيب عن سؤالك من خلال اعتراف أحد مصادري عندما أكد أن وزارتنا المعنية بالحفاظ على كنوزنا تتعامل معنا على أننا من جنسية «عاشرة» بعد الأمريكان والفرنسيين والألمان واليابانيين، وحتى الإسرائيليين الذين يحملون جوازات سفر دول أوروبية وأمريكية، هذا ما أكده أثري آخر عمل مع البعثات الأجنبية، منتقدا عمل250 بعثة أجنبية داخل أراضينا في الوقت الذى يجلس فيه خيرة علمائنا - حسب كلامهم - في بيوتهم دون عمل، كما أبدى هذا الأثري تعجبه من «بجاحة» عناصر البعثات «الخواجاتي» عندما يفرضون شروطهم على «الآثار»، ويحددون لأنفسهم مواقع أثرية مهمة؛ ليصبحوا بعد ذلك بقدرة قادر أصحاب حق امتياز لهذه المواقع!!

أحمد بك يضرب كفا بكف:

- هل لديك شهادات لأثريين آخرين عن هذه البعثات أو فساد وإفساد قياداتنا الأثرية؟

ماهر يستشهد برأي أثري ثالث سبق، وأكد معاناتنا كثيرا من بطش «كهنة

المعبد الأثري»، ويتساءل ماهر على لسان الأثري:

– هل يعقل أن يُمنع علماؤنا الأجلاء من مجرد الاقتراب من «الخواجات» والأماكن التي يعملون فيها ؟!.. فيما يسمح بوجود 50 بعثة أجنبية في محافظة الأقصر وحدها؟!

أحمد بك موجها حديثه لماهر:

– أعتقد أن شهادات خبراء الآثار السابقة تكشف عن كارثة حقيقية بكل المقاييس.

ماهر يزيد أحمد بك من الشعر بيتا:

– ما يزيدني قلقاً من هذا الوضع المزرى يا افندم هو ما علمته بأن مفتش الآثار المصري الذى تعينه وزارته للإشراف على بعثة الخواجات يتحول مع الوقت من «مراقب» إلى «أجير» يتقاضى من هذه البعثات 50 جنيهًا يوميًّا.

أحمد بك بصوت ينم عن ترتيبه لأمر ما:

– ألهذه الدرجة نتجاهل علماءنا، ونفضل عليهم الأجانب يا دكتور ماهر؟

– نعم يا افندم، وأكثر من ذلك والله، وما سبق ذكرني بما يأتيني من أخبار عن سطوة بعض الأثريين بحق آثارنا، فقد ترجم ميراثنا الشعبي ذلك، وشخصه دون معرفة جذوره التاريخية، إذ يقال دائمًا: «نحن نخاف وما نختشيش»، بمعنى أننا نخاف لكن ينقصنا الحياء، فالموظف لا يؤدى عمله إلا خوفاً من مديره، والمدير لا بد أن يكون لديه دافع شخصي لمباشرة العمل غير راتبه الذى يتقاضاه وحوافزه التي يحصدها، والمدير بدوره يمكن أن يصدر أوامر مخالفة للقانون والنظام إذا ضمن العاقبة ولم يكن هناك ما يخفيه.

أحمد بك ينظر لماهر، ولسان حاله ينم عن عجز بَيِّن لعلاج الخلل الموجود في منظومة الملف الأثري، ويسأله:

– وأين القانون، أقصد قانون الآثار؟!.. وأين الدستور؟!.. ثم كيف نسمح بحرمان البعثات المصرية من العمل في الحفر بحجج غير مقنعة قد تؤدى إلى ضرب انتمائهم الوطني في مقتل، وهم يشاهدون بلدهم يفضل عليهم الأجانب؟!

ماهر مبتسما بسخرية ومرارة:

– معاليك بتسألني أنا يا افندم؟!.. ما جدوى التشريعات ما دامت لا تطبق إلا بـ«المزاج»؟!.. يا افندم، نحن نحتاج إلى إعادة هيكلة للنظام الأثري بشكل خاص، وللمجتمع عامة، بما يتفق مع حقائق علم الاجتماع التاريخي.

أحمد بك غير مصدق كل ما يسمعه على الرغم من أنه رجل معلومات في المقام الأول:

– معقول يا ماهر اللي بيحصل عندنا ده؟! معقول يا أخي؟! الله يخرب بيت الـــ« .....»؟!

ماهر يبتسم بفتور هذه المرة، ويطلب من أحمد بك أخذ الأمور ببساطة؛ حتى يُلم بكل تفاصيل هذه المؤامرة:

– هههههه، شوف يا افندم، سأقدم لك بعض الدلالات وعليك تطبيقها على أرض الواقع ، فلا يؤدي الموظف عمله إلا بتلكؤ شديد، أو هو ينفذه ليحقق عكس أهدافه، ولسان حاله يقول: «على قد فلوسهم»، «هم بيدُّونا حاجة؟!»، «دول واكلينها والعة»، «كله ماشي»، «وسع مخك»، «خليك مفتح»... إلخ.

أحمد بك يُسجل كل كلمة قالها ماهر في تقرير «هام وخطير»؛ كي يسلمه لقياداته، ثم يسأل ماهر:

– هل ردت وزارة الآثار على أي مقال أو تحقيق أو حوار نشرته ضد مسئوليها، أو بعض أفراد البعثات الأثرية الأجنبية غير البعثات المتفق عليها بينك وبين دكتورة سارة؟

ماهر يبتسم ساخرا، وهو ينظر لأحمد بك بإشفاق:

– يا افندم، قيادات الوزراة، يجلسون في «برج عاجي»، مثلهم مثل العديد من مسئولينا في وزارات ومؤسسات أخرى. أما عن البعثات الأجنبية بشكل عام فإنني بصراحة مؤمن بالمثل القائل: «ما فيش حاجة من الغرب تسرّ القلب»؛ لأن كل ضربة معول من يد مصرية في أرض الكنانة تكشف لنا أثرا يمثل دليلاً دامغا لـ«فضح» التأويلات الصهيونية المستمرة ضد حضارتنا، وهذا ما حدث بالفعل بعد اكتشافنا «جبانة عمال الأهرام»، والتي يعرفها الجميع، وقد ألقيت عليها الضوء في تحقيقات ومقالات وحوارات عدة، ولا مجال هنا لذكرها؛ نظرا لغزارة معلوماتها، والتي دحضت ادعاءات اليهود بأنهم بناة الأهرامات.

ماهر يطرح على أحمد بك السؤال التالي وفي حلقه غصة:

– ماذا لو أن أثريي أي بعثة أجنبية وبينهم مؤمنون بالتوراة المُحرفة طبعاً هم من اكتشفوا تلك المقبرة وليست بعثة مصرية ؟!.. هل كانوا سيعلنون الحقائق لصالحنا؟!..بالطبع لا.. وأظن واقعة ثقب الهرم الأكبر عام 2002،بواسطة الجمعية الأمريكية ، خير دليل على ذلك.

أحمد بك مؤيدا لماهر:

– والله عندك حق يا دكتور ماهر، ده ملف معقد ومحتاج مجهود خارق.

ماهر متحليا بالصبر وسعة الصدر؛ حتى يكشف لأحمد بك بعض الحقائق الغائبة:

– إن دارسي علوم المصريات الأجانب يتبنون جميعهم أفكار التوراة، مستشهدين فيما قالوه بتصريحات سفيرة أمريكية سابقة بالقاهرة نقلاً عن «معاريف» الإسرائيلية عندما نسبت أصل الملك الفرعوني توت عنخ آمون إلى اليهود !!.. كما زعمت حسب فهمها للرواية العبرية «المفبركة» أن والد الملك إخناتون هو سيدنا موسى عليه وعلى نبينا وأنبياء الله أفضل الصلاة والسلام !!.

ويتابع:

- إن هذا «الشطط» يا افندم يجرنا جرًّا إلى كشف ألاعيب نصاب عالمي «مثمن آثار»، يدعى أنه عالم آثار، وقد حاول بمساعدة وزير آثار سابق أن يثقب مقبرة الملك الذهبي؛ بحجة أن خلفها مقبرة أخرى للملكة الجميلة نفرتيتي؛ وهذا ما حذرنا ونحذر منه في تحقيقاتنا ومقالاتنا السابقة، وإن شاء الله في مقالاتنا اللاحقة!!

- لذا فإن المهتمين بالملف الأثري يتساءلون: هم إخوانا مسئولو الآثار بيعملوا فينا كده ليه؟!.. لكن سرعان ما تأتيهم الإجابة الشافية من خلال تفرد هؤلاء الوزراء ، باتخاذ قرارات سلطوية!!

أحمد بك يبدو حازما ومتوعدا معاقبة كل من تورط في هذا الملف من المصريين أو الأجانب على السواء بشكل أو آخر:

- الدنيا مش سايبة يا دكتور ماهر، ولا بد من فتح تحقيق في مثل هذه التجاوزات.

ماهر يناصر أحمد بك مؤيدا رأيه:

- دي مش تجاوزات يا افندم، دي اسمها جرائم بحق الوطن، إن أجدادنا الفراعنة الذين صدروا للدنيا حضارة عظيمة تجلت في معابدهم وأهراماتهم ودور عبادتهم.. بل قدموا من العلوم ما سبقوا به جميع العالم بآلاف السنين من طب وفلك وتشييد ورسم ونحت وتحنيط.. أصبحوا الآن تحت رحمة البعثات الأجنبية.

أحمد بك تبدو عليه علامة الإرهاق:

- مش فاهم يا دكتور ماهر، وضح لي كلامك من فضلك.

ماهر يهز رأسه احتراما وتقديرا:

– حاضر يا افندم، على سبيل المثال لا الحصر تابعنا بعثة «نصابة» يونانية منذ وقت ليس ببعيد للبحث عن مقبرة الإسكندر الأكبر بمنطقة سيوه.. و«مشعوذة» بولندية أخرى معروف انتماؤها للصهاينة كانت ضمن بعثة بلادها، وقد كرمها عميد لأكبر جامعاتنا.

– نضيف إلى ما سبق واقعة المسح الجيولوجي والتنقيب التي قامت بها البعثات: الأمريكية والبلجيكية والهولندية عام 1993 دون موافقة اللجنة الدائمة للآثار بمنطقتي وادى الحمامات وبكر بالبحر الأحمر.

يتوقف ماهر لدقائق معدودة حتى يرد على مكالمة هاتفية من أسرته تحمل أخبارا سارة لم يذكر عنها شيئا في مذكراته، ثم يعتذر لأحمد بك على قطع الحديث معه، ويستطرد:

– وتعد واقعة بعثة متحف اللوفر من أشهر الجرائم التي ارتكبت بحق الآثار المصرية، إذ كيف نفسر وجود خمس لوحات من مقبرة «طيبة 15» في متحف اللوفر في ثمانينيات القرن الماضي؟! أيضا ما معنى قيام بعض علماء المصريات الألمان بنقش علامة «نجمة داود» على أحد الأحجار بمعبد «أوزير نسمتى» بجزيرة ألفنتين بمحافظة أسوان؟ مع العلم أن «نجمة داود السداسية» لم تذكر في التوراة على الإطلاق.. وأن هذا الرمز كان موجوداً كتصميم فنى هندسي في الحضارتين: الإسلامية والهندية.. لكنَّ اللوبي الماسوني استطاع أن يخدع العالم بتزييف حقائق التاريخ، مدعياً أن هذه النجمة هي الرمز اليهودي، وهذا العبث ليس له غير معنى واحد فقط، وهو السعي الدؤوب لصهينة آثار مصر عن طريق تلك البعثات.

أحمد بك «يكز» على أسنانه، ويثني أصابع يديه كمن يستعد للدخول في حلبة مصارعة مع عدو معلوم وآخر مازال شبحا:

– بتقول صهينة آثار مصر؟ مين هم دول؟ وإيه التخاريف دي يا ماهر؟ لأ كله

إلا كده بقى.

ماهر بابتسامة هادئة بعد أن طلب كوبين من الليمون البارد مع زجاجة مياه وفنجانين من «القهوة المحوجة» لنفسه ولكابتن أحمد من ساعي البوفيه بالجريدة:

– سيادتك مستغرب ليه كده يا افندم!!.. نعم، هناك خطة ممنهجة لصهينة تاريخنا، ومن المآسي التي كادت أن تسحق هامتنا ألاعيب بعض مسئولي آثارنا مع هواة ومشعوذين ومدعى علم؛ بغرض جمع المال والبحث عن الشهرة.. وسأسرد لك بعض هذه المآسي، البعثة الأجنبية مثلاً في تل الضبعة بمحافظة الشرقية برئاسة أثري كان ولا يزال يبذل مجهودات مضنية للبحث عن تاريخ يضر حضارتنا.

يدخل عامل البوفيه على ماهر وضيفه المكتب، مقدما لهما صينية عليها الليمون والماء والقهوة، هنا يتوقف ماهر عن الحديث:

– من فضلك يا افندم نشرب الليمون أولا، ثم «القهوة المحوجة المضبوطة»، وبعد ذلك نواصل حديثنا.

رجل المخابرات ينتقل من مكانه على الكرسي المقابل لمكتب ماهر إلى كنبة أنتريه، ويلقى بجسمه عليها، وفي يده كوب الليمون يرتشف منه بـ «مزاااااج»:

– يااااه يا ماهر، ده أنا مُرهق بشكل يا أخي!!

– الله يكون في العون يا افندم. لو تحب أخرج أنا وأقفل عليك باب المكتب ترتاح لك شوية؟

– لا لا، تسلم وتعيش، خلينا نكمل حبيبي، لأني لازم أقدم تقرير مُفصل عما نتحدث عنه لقياداتي في الجهاز بأسرع وقت ممكن.

ماهر بكل أريحية وسعة صدر:

– على الرحب والسعة يا افندم. ليت الأمر وقف عند الخطة الممنهجة لـ«صهينة آثارنا»، بل تعداه إلى رغبة الأثري المشار إليه في إنشاء متحف آثار ادعى

أنها تخص اليهود في تل الضبعة!!.. وفي المقابل لم نسمع عن أي رد علمي موثق من علمائنا ومتخصصينا في الآثار – وهم كُثْر – لنفي هذه المزاعم والتصدي لتلك الادعاءات والأكاذيب التي تنشرها هذه البعثة في مقالاتها وكتبها بشتى اللغات داخل إسرائيل وفي جميع أنحاء العالم.

هذه المرة أحمد بك هو الذي يطلب من ماهر الصبر وسعة الصدر، ويكرر السؤال:

– طيب هسألك تاني: هي وزارة الآثار فين من التقارير والمقالات دي يا دكتور ماهر؟!

– والله يا افندم، يمكنك أن تسأل قياداتنا الأثرية عما تريد، والغريب هنا أن أحد مسئولي الآثار السابقين الكباااار جدًّاااا أشاد في مقال له بهذا الأثري الأجنبي، قائلاً:

– «عندما زرت صديقي «.....» في تل الضبعة، وجدته يتبع أحدث الأساليب العلمية في العالم للحفر.وعلى الرغم من أن المصريين قد دمروا موقع الحفائر، إلا أنه صمد، وواصل عمله، وتوصل إلى نتائج باهرة جعلت تل الضبعة من أهم المواقع الأثرية في مصر؛ حيث إن الموقع يخص فترة تاريخية مهمة، وهي فترة الهكسوس!!».

ويستطرد ماهر على لسان مسئولنا الأثري السابق في مقاله:

– «لقد عرض علىَّ «.....» أن أسافر إلى النمسا عندما كنت صغيرا للحصول على درجة الدكتوراه، ولكنى بالفعل كنت قد حصلت على منحة «فولبرايت» وفضلت السفر إلى أمريكا.. كما أمرت المجلس الأعلى للآثار أن يطبع دورية خاصة يتصدرها «.....»، تكريما لشخصه وتعبيرا عن حبى له.. حيث يحتل مكانة خاصة في قلبي، خاصة أنه زارني في منزلي، وأهداني زهورًا!!

ويختتم هذا المسئول مقاله بالثناء على صديقه الأثري الأجنبي فيقول:

- «أحيانا يهاجمه الجهلاء، ولكنى دائما أقف بجانبه، وأقول له: أنت رجل حساس، ولا تلتفت إليهم، فهم جهلاء، وكلماتهم ستذهب إلى صندوق القمامة، وكتبك تشهد لك بذلك»!!

ماهر يسأل أحمد بك:

- نقول كمان يا افندم، ولا كفاية كده؟

أحمد بك:

- لا دكتور ماهر، كمل حبيبي، خلينا نشوف الدنيا رايحة على فين.

- ماشي يا افندم، من أخطر هذه البعثات تلك التي يترأسها أثري يحمل الجنسية الألمانية في قرية قنتير بمحافظة الشرقية منذ عام 1979 وحتى هذه اللحظة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذا الأثري دارت حوله الشبهات، خاصة بعد حرصه على شراء مقابر حديثة للتنقيب أسفلها بمقابل مبالغ مالية ضخمة جدًّا، ويردف:

- نضيف إلى ما سبق استئجار هذا الأثري مساحة لا بأس بها من الأراضي الزراعية من الفلاحين بمبالغ كبيرة؛ حتى ينقب فيها أيضًا – حسب مصادر ثقات – وجميعها أمور تثبت صحة ما يقال عن أن كثيرًا من البعثات الأثرية الأجنبية تقوم بمهام جاسوسية أكثر منها علمية، وتعمل لجمع المعلومات وسرقة الحضارات القديمة، كما أن هذه البعثة تقيم حفلاً سنويًّا تدعو إليه السفارات الأجنبية وأعيان المنطقة، وعندما استفحل الأمر قدّم الأهالي شكوى إلى المسئولين قبل ثورة 25 يناير 2011 بتحركات هذه البعثة، فقالوا لهم إنهم تحت المراقبة، لكنهم لم يفعلوا شيئًا!!

أحمد بك بصوت مقهور وغصة في الحلق:

- الله يخرب بيوتهم أولاد الـ«.....».

ماهر يعاود نصيحته:

اصبر يا افندم اصبر، اصبر خليني أقرأ لك التصريح الصحفي المنسوب لرئيس قطاع الآثار المصرية الذي يقول فيه:

- إن قرية قنتير تعتبر من أهم المزارات السياحية بالشرقية، وتواجد اليهود بها دون مراقبة يمثل خطرًا كبيرًا على البلاد، حيث إنهم يعتبرونها مدينة الخروج التي فر منها اليهود هربًا من مصر، محذرا من تكرار سيناريو ضريح أبو حصيرة في محافظة البحيرة.

ويواصل رئيس قطاع الآثار المصرية حديثه قائلاً:

- منذ توقيع معاهدة السلام، حرصت إسرائيل على وجود أتباع لها من خلال بعثات أثرية في أكثر من مكان بمحافظة الشرقية مثل قنتير وتل الضبعة، لاعتقادهم أن أحداث سيدنا موسى وفرعون الخروج وقعت في تلك المناطق، فضلًا عن إرسال بعثات أثرية بقيادة صهيوني يعمل في قنتير بجانب بعثات صهيونية ونمساوية.

أحمد بك يرد على مكالمة هاتفية مهمة من رئيسه لمعرفة آخر التفاصيل التي وقف عندها مع ماهر، وبعد لحظات يختتم مكالمته:

- كل شيء تمام يا افندم، وجميع الأمور تسير على خير ما يرام، وسوف أوافي سيادتك بكل التفاصيل في تقرير خاص فور انتهائي من مقابلة ماهر.

يغلق أحمد بك هاتفه، ويكرر اعتذاره لماهر :

- خلينا نكمل ما كنا نتحدث فيه.

ماهر مبتسما:

- لا عليك يا افندم، إن شاء الله يكون رؤساء معاليك راضيين عني؟

أحمد بك بجدية وحسم:

- حقيقي بيشكروك جدًّا والله يا ماهر، ده انت بقيت عندهم «فرخة بكشك».

ماهر مكررا ابتسامته بدهاء بعد سماعه رضا قيادات أحمد بك عنه:

– المعروف جليا للأثريين يا افندم أن هناك صهيونيا فرنسيا من أصل مغربي حاول إثبات ادعاءات وأكاذيب الصهاينة في الاكتشاف الوحيد الذى نُسب إليه في مركز البدرشين بمحافظة الجيزة لمقبرة شخصية مصرية قديمة في منطقة سقارة. هذه المومياء خاصة بالوزير الأول للملك إيمنحتب الثالث من الأسرة الثامنة عشرة.. وزاد هذا الصهيوني في شططه عندما ادعى أن المقبرة التي اكتشفها تعود لسيدنا يوسف عليه السلام في كتابه الشهير «الوزير المنسي» الذى ألفه باللغة الفرنسية، ونشره في جميع أنحاء العالم.. وعلى الرغم من أن الأثاث الجنائزي لهذا الوزير كان على الطريقة الفرعونية الخالصة.. فإنه لم يسلم من أوهام هذا الأثري، وظل يجول ويصول في العالم لنشر أكاذيبه في المحافل الدولية، ومن الغريب حقا ما عرفناه أن هذا الرجل لا يزال يعمل حتى الآن بمنطقة سقارة!!

يضع أحمد بك يده على جبهته كأنه يتذكر شيئا ما، ثم ينتقل بماهر إلى موضوع آخر حين يسأله:

– عندك أي معلومات تخص رئيس مركز البحوث الأمريكية الحالي؟

ماهر بثقة تامة:

– سؤال محترم من شخص وطني أكثر احتراما، لو سألت معاليك أى أثرى في «الآثار» عن رئيس بعثة مركز البحوث الأمريكية، فستجد الإجابة الشافية عنه وعن عمله في منطقة تل البرج بمحافظة شمال سيناء.. كما أنه عضو في جمعية الآثار اليهودية في القدس، وليس هذا فحسب، بل إن هذه البعثة تتبع جامعة ترنتي المتخصصة في تدريس التوراة، والأثري الذي نتكلم عنه، أحد أبرز أساتذتها في التوراة وتاريخ الشرق الأدنى، ويردف:

– نضيف إلى ذلك أن هذا الصهيوني التقى عضوا باللجنة الدائمة للآثار، رغم أن هذا العضو تمت إحالته للمعاش منذ فترة بمنطقة القنطرة شرق، وذلك لدراسة مشروع جديد للكشف عن أي أثر يخص بنى إسرائيل في مصر!!..وهنا نسأل:

كيف يُسمح لـصهيوني بالعودة لممارسة أكاذيبه ضد تاريخنا وهو الذى سبق طرده بواسطة الأمن القومي للأسباب نفسها؟!

أحمد بك يوجه سؤالا عميقا لماهر:

- برأيك مين الجهة اللي بتسمح بعمل الأعداء دول عندنا؟!

ماهر مبتسما بصوت مرتفع جدًّا رغم تحفظه الشـديد عـلى سـؤال أحمـد بـك، فيقول:

- هههههههههههه، معاليك بتسألني أنا يا افنـدم؟!.. دعنـا مـن كـل ذلـك، وخلينا نسأل وزارتنا الموقرة عن السبب الخفي الذى يجعلهـا تتعامـل مـع رجـل يشكك في تاريخنا لخدمة الصهيونية ومزاعمها، وهذا ما ظهر مـن خـلال مؤلفاتـه التي يحمل أحدها عنوان «إسرائيل في مصـر»، والآخـر يحمـل عنـوان «إسـرائيل القديمة في سيناء».. حيث يدعم من خلالهما مزاعم الصهيونية في أرض الفيـروز، مستميتاً في ادعاءاته التي يروجها بحقهم في دولة من النيل للفرات، ويُكمل:

- وليس هذا فحسب، بل حاول الأثري الصهيوني أن يربط بين كشـفه الـوهمي وما تذكره التوراة، فضلاً عن مغالطاته التاريخية التي ينفي فيها الحقوق التاريخيـة لمصر في سيناء.. بل ويؤكد حسب مؤلفاته أن حـدود مصـر تقـف عنـد «المنزلـة والتمساح».. مع العلم أن هذ الصهيوني كان أحد أعمـدة البعثـة الإسـرائيلية التـي نهبت آثارنا من سيناء بعد احتلالها عام 1967 تحت رئاسة أستاذه أليعـازر أوريـن أستاذ الآثار بجامعة بن جوريون بتل أبيب.

أحمد بك:

- لحظـة دكتـور مـاهر: مـن أيـن أحصـل عـلى مـؤلفي :«إسـرائيل في مصـر» و«إسرائيل القديمة في سيناء»؟!

- يا افندم اسأل وزارة الآثار وهي تدلّ معاليك.

أحمد بك يهز رأسه، وعيناه تطالعان الأرض مرة، والسماء مرة أخرى:

- أوك حبيبي، كمل أرجوك.

ماهر يستجيب لرجاء أحمد بك:

- حاضر يا افندم. أما عن منطقة أبو صير مركز البدرشين بمحافظة الجيزة فهناك أثرى صهيوني، الصديق الصدوق لشيمون بيريز الرئيس الإسرائيلي الأسبق، والذى يترأس بعثة تعمل بالتنقيب في تلك المنطقة منذ عشرات السنين.. ولمن لا يعرف هذا الرجل، فقد تم اختياره دون غيره لأسباب لا نعلمها؛ ليكون عضوا في اللجنة العليا لدراسة مشروع الأهرامات، وقد تابع جميعنا ما ذكره الخبراء عن الشبهات التي حامت حول هذا المشروع.. والذى هُربت نتائجه إلى الخارج، ومما يشاع عن هذا الصهيوني أنه كان دائم المقابلة لبيريز خلال زياراته لدولة إثيوبيا كأحد الخبراء المعتمد عليهم للكيان الصهيوني، ويستكمل:

- وبسؤالنا عن الهدف الأساسي من عمل هذه البعثة، علمنا أنها وغيرها العديد من تلك البعثات جاءت لاستكمال السيناريو الخبيث الذى يروج للمزاعم الصهيونية بأن اليهود هم من بنوا الأهرامات، كما أن هذا الرجل سبق له أن ارتكب جريمة يعاقب عليها القانون الدولي والمحلى، وذلك عندما غافل السلطات المعنية بتعديه على الحفائر المصرية في معبد الوادي بهرم اللاهون في الفيوم باستخدامه شينيور تسبب في تشويه غرف بها ودائع أثاث خاصة بالملك سنوسرت أشهر ملوك الأسرة الثانية عشرة.

أحمد بك بهدووء:

- طيب خليني أقاطعك شوية دكتور ماهر، وأسألك عن رأيك في كيفية التخلص من هؤلاء.

ماهر مستغربا من صيغة السؤال، ورغم ذلك يجيب:

- شوف يا أحمد بك، ما سبق يمثل ضربة موجعة بخنجر مسموم في خاصرة

ذاكرة الوطن، فعدد من مصادري داخل «الآثار» وخارجها أكد أن العديد من تلك البعثات لا يمت للعلم بصلة، فيما يرى مسئول كبير بالآثار أن «أغلب هذه البعثات علمية محترمة نستفيد منها، وتقوم بتدريب وتعليم العديد من المصريين العاملين في مجال الآثار، كالمتاحف وعلم الحفائر وعلم إدارة المواقع الأثرية، خاصة أن هذه التخصصات لا تدرس عندنا حتى الآن»!! وردًّا على كلام هذا المسئول أكدت مصادرنا أنه لا علاقة له بالآثار، موضحين أن الجامعات المصرية تُدرس منذ أربعين عامًا علم الحفائر وعلم فن المتاحف.

بعد مرور 3 ساعات متواصلة، قضاها أحمد بك مع ماهر، يسجل فيها كل صغيرة وكبيرة عن البعثات الأثرية الأجنبية في مصر، يرن هاتف ماهر:

- ألو.. ألو، مين؟؟

سارة بغضب مصطنع:

- يعني كمان نسيت صوتي يا ماهر، سارة معاك حبيبي، طمني عليك، أنت كويس؟

- يا خبر، عمري وحياتي، ومين بس يقدر ينسى قلبه، طمنيني عليك يا عمرى و.....

- مش قلتلك بكاااااش وكبير كمااان، هههههه، اطمئن حبيبي أنا بخير الحمد لله، طمني عليك وكل اللي عندك، كنت عاوزة أسألك: شيكات تمويل الجورنال وشيكاتك أنت الشخصية، بتوصلك ولا فيه مشاكل، ويا ترى أخبار الجورنال إيه؟ الجماعة متابعين الطبعة الورقية عن طريق عيونهم عندك، والإلكتروني دايما بيشوفوه من خلال الموقع الإلكتروني. يلا شد حيلك حبيبي، هتجيني إمتى؟ وحشتني أوي... هههههههه.

ماهر يرد بصوت يملؤه الحب والحنان:

- حبيبتي كله تمام. اطمئني خالص، وطمني الجماعة، كله ماشي زى ما هم عاوزين وأحسن، ما فيش كلمة بنكتبها عن البعثات الأثرية الأجنبية حسب تعليماتكم، وأي وسيلة إعلامية بتنتقد هذه البعثات، بنهاجمها فورًا، وإن شاء الله خلال شهر بالكتير هكون عندك. وحشتيني أوي يا عمري. موووووه، موووووه، موووووووه. مع السلامة حبيبي.

أحمد بك مشاكسا ماهر ليضفي على زيارته نوعا من المرح:

- سيدي يا سيدي، داعيلك يا عم ماهر.

- هههههه، ماشي أحمد بك، دي سارة بتسأل عن وضع الجريدة (ورقي وموقع)، والتمويل اللي بتبعته، وعاوزاني أسافر لها قريب.

أحمد بك حازما:

- طيب يا بطل، جهز نفسك هتسافر لها بعد 15 يوم من الآن، وتحاول مرة تانية تخلص لنا المأمورية اللي معاليك مكلف بها، بكده كلامك خلص عن البعثات الأجنبية ولا لسه؟

ماهر يواصل كشف المسكوت عنه:

- إن شاء الله تعالى يا افندم، لكن مصايب البعثات الأجنبية على أرضنا لا تحصى ولا تعد، وخليني بس أكشف لك حاجة أخيرة، فمثلا رئيسة البعثة الأجنبية عندنا تدعى «لوسيانا» زعمت عودتها للحياة بعد موتها لتصبح وسيطًا روحيًّا مع كوكب آخر، ويردف:

- وليس هذا فقط، بل زادت الطين بلة حينما كشفت عن وجهها القبيح والمؤامرة الدنيئة لصالح الصهيونية العالمية، وهي تكرر ادعاءاتها بأن «المدينة المقدسة» أو «أورشليم القدس الجديدة» آتية كعروس من السماء، وأنها سمعت صوت العرش يناديها: «هذا هو بيت الله بين القتلة»، أي العرب وسوف يكون مع شعبه، أي شعب الله المختار «اليهود»، وتزيد المشعوذة من شططها حينما تردد أن

لمدينة القدس سورًا عظيمًا ذا اثنتى عشرة بوابة، إشارة إلى قصة الأسباط الاثني عشر، ومنقوشا عليها أسماء القبائل الإسرائيلية، باختصار شديد فإن المشعوذة لوسيانا لوبوس تعبث كيفما يحلو لها في منطقة سقارة.

أحمد بك بوجه عبوس:

- إيه التخاريف دي؟.. وكيف نسمح لمثل هذه الشخصيات بالعمل على أرضنا؟

يتحسر ماهر وهو يواصل حديثه:

- معاليك برضه بتسألني! عموما هذه السيدة ادعت أيضا أن «أساسات هرم خوفو جاءت بتعليمات للكهنة من عالم آخر، وأن تاريخ بناء الهرم الحقيقي كان قبل تاريخه المعروف بـ2000 سنة، وأن هناك قناة مائية تحت الأرض تصل من هرم خوفو إلى هرم هوارة بالفيوم، ويجب البحث عنها»، ويوضح:

- فيما قررت اللجنة الدائمة للآثار حينها وبالإجماع، بعد افتضاح أمر المشعوذة وبعثتها لدى الأجهزة الأمنية والرقابية، إيقاف أعمالها، وإن كان من المتوقع أن تجرى البعثة محاولات للعودة للعمل مع كلية الآثار، مع العلم أن تلك البعثة تطلق على نفسها مسمى «بعثة فرعون»، أي «Mission Pharaoh»، وهي تابعة لجمعية تدعى «أساطير الأرض» بولاية شيكاغو الأمريكية، حيث تمول من بنك «أوف أمريكا».

أحمد بك غاضبا:

- دي معلومات خطيرة جدًّا يا ماهر و.....

ماهر بكل ثقة:

- وإيه يا افندم؟، كل المعلومات السابقة قديمة جدًّا ومنشورة كمان في كتب وتحقيقات بعض الصحفيين المهتمين بهذا الملف، ومع ذلك يجب علينا طرح

سؤال مهم على لسان الأثريين: من المسئول عن منح هذه البعثة الترخيص بالحفر؟ومن هو «مدير أعمالها»، الذي يقوم على تسيير أعمالها طوال تلك الفترة؟!.. في حين يحذر أحد أساتذة الآثار من أن الدول الممولة لتلك البعثات لا تعمل لوجه الله، وتهدف دراساتها إلى سياسات تسعى إلى تحقيقها، سواء على المدى القريب أو البعيد، ويكمل:

- خاصة بعد ارتفاع عدد تلك البعثات الأجنبية بمناطق حساسة، لا يجب أن تعمل فيها تحت أي مزاعم، لذا نخشى من تأثيرها على عدد كبير من مفتشي الآثار المبتدئين المرافقين لخبرائهم أثناء القيام بأعمال الحفر في المنطقة، التي تحددها تلك البعثات عن طريق تقديم الهدايا والإغراءات المادية، أو تسهيل سفرهم إلى بلادهم بحجة الحصول على درجتي الماجستير أو الدكتوراه، وأناشد الجهات المعنية إعادة النظر في علاقة هؤلاء الأجانب بأثريينا حتى نضمن عدم التفريط في بعض القطع ذات الأهمية الكبرى، التي يتم اكتشافها، وخاصة في ظل الظروف المتدنية التي يمر بها الأثري المصري وتدني راتبه.

ماهر يحاول الاستئذان من أحمد بك بعد أن ينظر في ساعة يده أكثر من مرة:

- معلهش يا افندم، هو ممكن أستأذنك ونؤجل الحديث عن البعثات الأثرية الأجنبية نظرا لارتباطي بموعد مهم جدًّا؟

أحمد بك بدهاء شديد:

- هههههه، أجل مقابلتك يا دكتور ماهر مع الأثرية «.....»، فضلا وليس أمرا حتى ننتهي من الحديث عن هذا الملف، ونحن لك من الشاكرين.

ماهر ينظر لأحمد بك بنصف ابتسامة باهتة:

- هههه، يعني معاليك لسه بتراقب تليفوني وعارف هقابل مين وبتكلم مع مين؟!

- لا لا لا .. الأمور مش كده خالص والله وبالله وتالله، الموضوع وما فيه أننا

نخشي عليك من عدو مجهول غادر، لذلك جاء قرار قياداتي بمراقبتك، فلتكن مطمئنا.

- حاضر يا افندم. عموما شرفاء آثارنا أشاروا أيضا إلى أن اليهود انتشروا داخل البعثات الأجنبية العاملة على أرضنا للتنقيب عن آثارنا، وذلك للقيام بأغراض تجسسية أو إثبات ادعائهم من خلال بعض المعلومات الزائفة، التي يسعون إلى إشاعتها مثل مشاركتهم في بناء الأهرامات عن طريق إدخال روبوت داخل الهرم الأكبر؛ لمحاولة النيل من تاريخنا.. ويُكمل ماهر:

- لكل ما سبق، لا يفوتنا إلقاء الضوء على ما كشفته مجلة «النيوزويك» الأمريكية الشهيرة مؤخرًا عن قرب افتتاح متحف أثري جديد لصالح المليادير الصهيوني ستيف جرين، موضحة أن هذا الرجل أنفق نحو 800 مليون دولار لجمع قطع أثرية قديمة ذات دلالة عقائدية لخدمة ما يطلق عليه «الكتاب المقدس» في واشنطن، الأمر الذي يجعلنا نربط بين هذا العمل غير الأخلاقي، وما يتم سرقته حاليًا وقبل ذلك من آثارنا التي لا تقدر بأي ثمن.

أحمد بك بصوت عالٍ ومكلوم كمن يستعد للطم خديه:

- يا نهار أبوهم أسود أولاد الـ (.....)، وبعدين يا دكتور ماهر؟!

ماهر يلخص المطلوب:

- ولا قبلين يا فندم، المسألة بسيطة جدًّا بالنسبة للتعامل مع البعثات الأجنبية، وإن بدت خطيرة.

أحمد بك ينهر ماهر:

- فهمني طيب دكتور ماهر، عاوز تقول إيه؟

ماهر باختصار شديد وغير مخل:

- قرار سيادي باستبعاد البعثات المخالفة، على أن يكون ممهورا بكل وقائع

تلك المخالفات التي ارتكبها عدد لابأس به من عناصرها منذ أن وطئت أقدامها أرضنا منذ عهد والي مصر محمد على وأبنائه وأحفاده وحتى الآن.

أحمد بك يحسم الموضوع:

- يفعل الله ما يشاء دكتور ماهر، وخير إن شاء الله تعالي.

يضع دكتور ماهر يده على رأسه من شدة التفكير والكتابة طوال الليل، ينام بعض الوقت، ويستيقظ على صوت «أنتيكا» وبقية المحبوسين وهم يهنئونه مقدما بالبراءة بعد أن يحضر جلسته قبل الأخيرة خلال ساعات، فيشكرهم ماهر جميعا، ويعدهم بجلسات نقاشية علمية وجادة بعد عودته من المحكمة طوال فترة وجوده معهم في: الإعلام والسياسة والدين، وبعد لحظات يسمع صوت أمين شرطة يناديه لحضور جلسته في المحكمة، وقبل أن يخرج مع أمين الشرطة، يطب منهم الدعاء له، ثم يذهب إلى جلسته وسط حراسة أمنية مشددة جدًّا، ومعه بالطبع دفتره «الحبيب» على أمل أن يوثق بقية ما سيحدث له ومعه فيما بعد.

■ الفصل الخامس عشر
لصوص الآثار

مشهد أكثر من رائع يتكرر، صفارات قطار الصعيد بالقرب من محطة الجيزةالمجاورة أيضا لمحطة المترو، عشرات البسطاء يسعدون بأكل ساندويتشات الفول،ويُحلون بالتين الشوكي من الباعة الجائلين، حول المحكمة عدد لا بأس به من الصحفيين والإعلاميين من وسائل الإعلام المختلفة، مصرية وعربية وأجنبية جاءوا جميعا لتغطية ومتابعة تطورات قضية ضياع وتهريب القطع الأثرية التي تم سرقتها من متحف التحرير يوم 28 يناير 2011م.

موعد المحاكمة الثانية للمرافعة يوم الأحد 5 إبريل عام 2012 الساعة الثامنة صباحا، في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحا تتضاعف أعداد الحضور.

وفي تمام العاشرة يقف المتهم داخل القفص الحديدي في قاعة المحكمة،

موعد استكمال المرافعات وشهادة بقية الشهود وسماع مرافعة النيابة العامة، بحضور محامي المتهم، ودكتورة زوزو، بالإضافة إلى أحمد بك وجمع غفير من مؤيدي المتهم في الصحافة والإعلام والآثار والثقافة والمحامين ونقيبهم والأمن وشخصيات عامة وكتاب، إضافة إلى عدد لا بأس به من صغار موظفي وزارة الآثار وعدد آخر يتبع مافيا الآثار في الداخل والخارج.

قبل أن تبدأ المحكمة بربع ساعة يستأذن أحمد بك رئيس المحكمة، ويسلمه ملفا به مستندات مهمة لكشف الدور الوطني للمتهم مع الجهاز السيادي المصري في أمريكا، ومن ضمن محتوياته صور لمستنسخات أثرية من القطع المسروقة من متحف التحرير.. والمتهم بسرقتها وتهريبها دكتور ماهر إلى معرض شريكته وزوجته بأمريكا.

بالإضافة إلى مستندات أخرى تكشف تورط قيادتين أثريتين كبيرتين، ومثلهما في الأمن، بالاشتراك مع تاجر آثار مصري لبيع عدد من قطع الملك توت عنخ آمون لليهودي الفرنسي كوهين فيكتور (خال بروفيسور سارة)، كما سلمه تسجيلا بالصوت والصورة يكشف دور «كوهين» في التآمر على المتهم مع تاجر الآثار المصري والقيادتين الأثريتين من ناحية، ومن الناحية الأخرى مستندات تثبت استئجار «كوهين» لقاتل محترف حتى يغتال سارة وماهر.

رئيس المحكمة يقدم شكره وتقديره لأحمد بك على مساعدته العدالة لكشف حقيقة المجرمين وإنقاذ بطل قومي بريء من التهم المنسوبة إليه، ثم ينادي:

- النيابة.

النيابة تسلم الهيئة الموقرة قرارين كتابيين من وزارة الآثار، الأول بوقف عمل الأجانب داخل الهرم الأكبر تحت أي ظرف، والثاني بفتح متحف «عرابي» أمام الزائرين، ووقف بناء متحف الآثار اليهودية بالشرقية، بناء على طلب رئيس المحكمة في الجلسة الأولي، بعد ذلك تكرر النيابة طلبها بتطبيق أقصى عقوبة على المتهم لارتكابه تهمًا ترتقي للخيانة العظمى.

ينهض نقيب المحامين من مكانه بعد أن يستأذن رئيس المحكمة ويسلمه أيضا صورة طبق الأصل من المستندات التي حصل عليها بمعرفته وعلاقاته من أجهزة الدولة السيادية، والتي تؤكد جميعها كشف المتهمين الحقيقيين في هذه القضية، وتُبرئ المتهم.

يعلو صوت عدد من صغار موظفي وزارة الآثار المدفوعين بتحريض من بعض قياداتهم، وكذلك يفعل أتباع تجار الآثار المستأجرين للشوشرة على المحكمة والنيل من المتهم داخل الجلسة وخارجها، لكن شخصية رئيس المحكمة وحسمه للأمور أخرست الجميع، خصوصا بعد أن هددهم بالطرد من القاعة، وإلقاء القبض عليهم إذا لزم الأمر.

الهدوء يسود أركان المحكمة، يأتي دور محامي المتهم:

- سيادة الرئيس، الهيئة الموقرة، ها هو الملف الكامل الذي يثبت براءة موكلي من أي تهمة ألصقت به ظلما وعدوانا، وكذلك عدد من الشهود الذين رافقوا موكلي وقت دفاعه عن متحف التحرير يوم 28 يناير 2011 مع شرفاء مصريين كُثر يتقدمهم دكتورة زوزو عبد الحليم، كل ذلك أمامكم وبين أيديكم الآن، وبذلك أصبح لدينا حقائق لا تقبل الشك لتبرئة ساحة موكلي وإدانة أثريين وأمنيين وتجار آثار مصريين وأجانب بالاسم بسرقة قطع أثرية خاصة بالملك توت عنخ آمون ووالده إخناتون، ويتابع:

- كما أطلب من عدالتكم سماع شهادة عدد من الأثريين والكتاب والصحفيين والشخصيات العامة التي تعاملت مع المتهم في ملف الفساد بشكل عام، والآثار بشكل خاص.

رئيس المحكمة يسمح بسماع شهادة عدد من الشهود، بعد أن يقسموا اليمين بقول الحق ولا شيء غير الحق في: الآثار والثقافة والتاريخ والإعلام، والتي تؤكد جميعها براءة المتهم من التهم الموجهة إليه.

بعد اطلاعه على المستندات اللازمة لتبرئة ماهر، يرفع رئيس المحكمة الجلسة للنطق بالحكم بتاريخ 5 مايو 2012.

قبل مغادرة المتهم المحكمة، وفي طريقه إلى غرفة الحجز، استجاب رجال الأمن المكلفون بحراسته لطلبه بالتحدث مع أسرته ومحاميه وزملائه ومناصريه وبعض وسائل الإعلام الموثوق فيها لمدة 20 دقيقة، فشكر الجميع على حضورهم ومواقفهم المشرفة، وطالبهم بضرورة الحضور يوم النطق بالحكم بعد شهر من تاريخه.

يذهب المتهم إلى غرفة الحجز، يستقبله «أنتيكا» وبقية المحتجزين بالتهنئة على قرب براءته، يشكر الجميع، ويوزع عليهم ثلاث حقائب من الأكل والعصائر والسجائر، كان قد أوصى صهره الرائد محمود بإحضارها، فيسعد كل المحتجزين بكرم ماهر.

يستمر المتهم في حديثه مع زملاء الحبس بشكل عام، و«أنتيكا» بشكل خاص، حتى يخلد الجميع للنوم. أما هو فيغرق في تفكيره ومراجعة كل حرف كتبه في دفتره عن مراحل حياته، السعيدة منها والتعيسة، الهادئة منها والخطرة، ثم يُقرر الاستراحة من الكتابة لمدة شهر لحين حصوله على البراءة، على أن يعود لاستكمالها بأحداث أكثر إثارة فيما بعد، في الوقت ذاته يقرر تنظيم مناقشات توعوية للمحبوسين؛ لإصلاح الخلل النفسي والديني والثقافي والإعلامي الذي لاحظه في أحاديث أكثرهم الثنائية والجماعية على حد سواء.

ولأن المتهم كان يُحسن المعاملة مع زملاء الحبس؛ بدا مقبولا بينهم، خاصة مع دكتور ماجد الرايق (أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية) المقبوض عليه بتهمة تقاضي مركز الدراسات الذي يملكه تمويلا من جهات أجنبية، ولاحت له فكرة تنظيم برنامج توعوي تثقيفي للمحتجزين، بالاتفاق مع دكتور ماجد، ومأمور السجن ونائبه أيضا، وبذلك استطاع ماهر أن يقضي ما تبقى له بالحجز في عمل اجتماعي مفيد.

وبدأ المتهم يصحح للمحتجزين بعض المفاهيم التي سمعها منهم، إضافة إلى تركيزه على قضايا مهمة تتعرض لها مصر في الداخل والخارج، فعلى سبيل المثال يقول ماهر لزملائه في الحجز:

– سمعت من بعضكم أخطاء في مفاهيم بعض الكلمات، ولا بد من شرحها بشكل مبسط، فمثلا تلاحظون أن عددا كبيرا من المؤلفين والكتاب والمبدعين يستخدمون ألفاظًا لا يستوعبها في الغالب المتلقي أو المستمع، فكلمة «النزاهة» التي استخدمها أحدكم لوصف شخص لا تنطبق عليه هذه الصفة إطلاقا، فالنزاهة بمعناها البسيط تعني البعد عن السوء وترك الشبهات، لكن كثيرين منا لا يفهمونها على هذا النحو، فيقول أحدنا مثلا إن الشاب الفلاني نزيه، ليه نزيه يا عمنا وعلشان إيه؟.. علشان بيتعشى كل يوم كباب، ويحبس بعده بمية أصفرة وأحمرة!!

دكتور ماجد يثني على دكتور ماهر:

– والله عندك حق. تخيل معي، والكلام لنا جميعا في الحجز، أن بعض الأهالي في منطقة «.....» معجبون جدًّا بأحد البلطجية ودائما يصفونه بـ «الشهم والجدع» لا لشيء سوى لأنه «بلطجي»!!

ماهر بهدوء وسكينة المصلح الاجتماعي:

– دي مشكلة كبيرة جدًّا، فالشهامة تعني ببساطة كده «عزة النفس وحرصها على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل»، والجدعنة تعنى أيضا الشهامة، لكن للأسف الشديد، نلاحظ أن قطاعاً كبيراً منا يربط الجدعنة أحياناً بالخروج على القانون، وهذا خطأ فادح. ويوضح:

– كأن ننظر أحيانا إلى اللصوص والخارجين على القانون بشيء من الإعجاب على أساس أنهم «جدعان» و«عيال آخر شهامة»، والكلام ده يفسر حالة التعاطف النسبي مع بعض أبطال أفلامنا الهابطة التي تظهر البلطجي (تاجر السلاح والكيف و...) بطلا، بنت الليل الـ (.....) أيضا بطلة.. وبالتالي تصبح مصر في كتاباتهم

وأفلامهم مجرد أرض يتغلغل فيها الفساد والبغاء ، ويردف ماهر:

– وللأسف الشديد هذا الخلط تبناه بعض كُتابُنا في مسلسلاتهم وأفلامهم، وكانت النتيجة أن ألقت بسوءاتها على شبابنا، وعموما هذه كلها موروثات بغيضة توغلت بين المصريين منذ أن ارتضينا لأنفسنا بانتشار هذا النوع من الفن و.....

دكتور ماجد يؤكد أن هذا النوع من الكُتاب الهواة، والفنانين الـ «نصف كم»، المدعومين من مماليك النظام السابق لسبب أو لآخر، لم يكن لهم وجود في عهد الوالي محمد على والزعيم الراحل جمال عبد الناصر، ويوضح:

– كلامنا عن مماليك محمد على وعبدالناصر، ذكرني – حقيقة – بمماليك مبارك، فإذا كان الضباط الأحرار قد تخلصوا مؤقتا من المماليك، إلا أنهم سرعان ما عادوا في أواخر عهد السادات، واستمر صعودهم التدريجي، وقويت شوكتهم ، وباغتيال السادات اتضحت الصورة بشكل لا تخطئه إلا عين لا ترى. فعلا وليس مجازا، لقد أعادنا مبارك إلى عصر المماليك، فعادوا وعاد تأثيرهم بيننا سياسيا واقتصاديا وسلوكيا واجتماعيا ونفسيا وحتى دينيا.

ماهر يؤكد كلام ماجد:

– لذا فأنا لا أبالغ إذا قلت إن المماليك في عهد مبارك كانوا أسوأ مما كانوا عليه وقت قيام دولتهم.. وفي ظل حكم الأتراك العثمانيين، هؤلاء «السفلة» الذين استحلوا لأنفسهم مشاركة فلاحينا – ظلما وعدوانا – محصولهم في غياب أدنى قيم العدل والكرامة، كما أن الصيغة التي كان «نظام المخلوع» أيضا يتعامل بها في توزيع الأراضي على «مماليكه» هي نفس فكرة «الطرخانية» التي مارسها النظام المملوكي أيام دولة المماليك في مصر.

يتدخل في الحديث شاب ثلاثيني متشدد، بدا للمحتجزين أنه «سلفي»، وعن الدولة العثمانية وعن زيارة رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان لمصر، قال:

– أنا دارس تاريخ المنطقة العربية كويس جدًّا، بالنسبة للسلفيين فقد قاموا بدور كبير جدًّا لوأد الفكر والسلوك المملوكي و....

دكتور ماهر يرد:

– للأسف الشديد أخي الكريم، لاحظنا هتافات بعض الشباب المصريين المنتمين لفكر جماعة هنا أو هناك، بعودة الخلافة العثمانية، والتي تواكبت مع زيارة رئيس الوزراء التركي رجب أردوغان مؤخرا لمصر، وهو ما يذكرنا بتولي محمد علي الألباني حكم مصر برضا الشعب، وبدعم وتأييد من كبار مشايخها، للأسف الشديد يتقدمهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم، وذلك في ظل تغييب مقصود أو غير مقصود للرموز الوطنية الفاعلة. ومنهم علماء الأزهر في هذا الوقت.

دكتور ماجد يحاول كشف الحقيقة هو الآخر للشاب المتشدد:

– أتفق معك عزيزي الشاب في أن الحل السلفي طرح منذ عانى العالم العربي والإسلامي من التراث المملوكي، لكنه للأسف الشديد لم ينجح بالشكل المأمول، حتى عندما وصل السلفيون للحكم أكثر من مرة وفي أكثر من مكان، وحتى عندما تم التزاوج بين السلفية والتغريب «الحضارة الغربية»، ووقف السلفيون أنفسهم بل وغيرهم مندهشين من ذلك. فما تفسير هذا؟

ماهر يستأذن ماجد في الحديث ، فيقول:

– كلام دكتور ماجد مهم جدًّا، لقد وصل السلفيون للحكم في السودان، ووصل الإسلاميون للحكم في إيران، وكان السلفيون على وشك الوصول للحكم في الجزائر، وحكم دعاة التغريب، وحكم الاشتراكيون.. وكانت النتيجة في الأحوال جميعا واحدة، فلم يكن دخول العصر الحديث نتيجة لأى منها، ولم ينتقل العالم العربي والإسلامي في ظل أي منهم إلى مصاف الدولة المتقدمة، بسبب التآمر الخارجي والرغبة في أن تظل منطقتنا متخلفة وسوقا للدولة المتقدمة، ويكمل:

– لكن ذلك ليس السبب الوحيد، ولا الأهم، فما دام التطبيق الاشتراكي سيتم على أيدى المماليك ، فسيتحول إلى اقتصاد «ريع» و«طرخانية» و«سباهية» وإلى اقتصاد «سمسرة».. وجميعها مصطلحات ومفردات مملوكية تفسر واقعنا المؤلم الذي نعيشه حاليا، حيث يربح من لا ينتج ضعف أو أضعاف الذين ينتجون.

ماجد يستأذن الشاب المتشدد في تغيير مسار المناقشة و..... :

– الشاب المتشدد يرفض اقتراح دكتور ماجد، وبصوت مرتفع يؤكد:

– يا جماعة، والله أنا إخواني مش سلفي، أنا أحد القيادات الشبابية في جماعة الإخوان المسلمين.

يمتعض دكتور ماجد، ويثور على الشاب بعد اعترافه أنه من جماعة الإخوان:

– كمان إخواني مش سلفي، بالمناسبة يا زملاء الحجز، أنا مضطر أكشف لكم حكاية مؤسس جماعة الإخوان.

ماهر مع بقية المحتجزين بصوت عالٍ ورجاء وتوسل للدكتور ماجد أن يكشف عما لديه من معلومات خاصة بجماعة الإخوان في هذا الوقت الحاسم، الذي شاع فيه مصطلح «الطرف الثالث» الذي يحصد أرواح الأبرياء دون رحمة أو شفقة، ويحرق ويفجر هنا وهناك.

ماجد يهز رأسه تلبية لطلب زملاء الحجز:

– منذ أزمنة سحيقة موغلة في القدم، قيل إنها بدأت في زمن سيدنا موسى وإنه هو الذي نقل لليهود أسرار «البناء» المصري، ويستقر البعض على أنها بدأت في زمن سيدنا سليمان ، وهناك من يقول إنها ازدهرت بعد السيد المسيح، وللمؤرخين في ذلك اتجاهات ومدارس حول عصر التأسيس لهذه الجمعية ومن الذي قام بها، وما هي أسرارها، إلا أنها ظلت تُعرف بجمعية «البنائين»، أي المهندسين، وكانت عضويتها قاصرة على البنائين والرسامين والمثالين، ويُكمل:

- بعد ذلك انضم إلى هذه الجمعية مجموعة من عظماء العالم في هذه الفنون، حيث تمكنوا من إقامة البنايات الفخيمة في جهات متعددة من العالم ، وحدث أن تهاوت «فنون البناء» في العالم بسبب الحروب، وانسحب البناؤون الكبار من عضوية الجمعية، فكادت أن تتلاشى ، وتوقفت كثير من المحافل الماسونية في كثير من دول العالم حتى غدت أثرا بعد عين، فارتأى محفل «مارى بولس» بلندن أن يسمح بالعضوية لغير البنائين، بشرط موافقة الأعضاء، وكان ذلك عام 1715 ميلادية. ولأن للماسونية أهدافا سرية؛ فإنها تضع أسرارها هذه في جوف حصن من الرموز؛ بحيث لا يستطيع أحد الوصول إليها.

يصيح الشاب المتشدد، ويسُب ويلعن الدكتور ماجد، ويصفه بالكذاب، ويدعي:

- يكون في علمكم حسن البنا اللي مش عاجبكم ده يبقى أحد علماء وأئمة المسلمين و.....

عدد من المحتجزين يتصدون للشاب المتشدد ويأمرونه بالتوقف عن الكلام والاعتذار للدكتور ماجد وإلا.....

يتدخل الدكتور ماهر في الوقت المناسب، ويهدئ من روع الجميع، ويطلب في الوقت ذاته من دكتور ماجد كشف بقية حقيقية حسن البنا؛ ليستفيد المحتجزون من تلك الغشاوة التي طمست أعين بعضهم، بعد أن يُرغم الشاب الإخواني على الاعتذار للدكتور ماجد:

ماجد يحاول تطييب خاطر الشاب الإخواني المغيب، ثم يواصل الحديث عن حسن البنا:

- قد تظنون للوهلة الأولى أننا نتحدث عن شيء أسطوري لا وجود له في

الواقع، ولكنه واقع، وأظن أن معظم الرؤساء في أمريكا والعالم الغربي الآن يتبعون الماسونية ولهم درجاتهم في تلك الجمعية السرية الرهيبة ، والهدف المعلن للماسونية هو توحيد العالم كله تحت راية واحدة هي رايتهم، والماسونية ليست جمعية محلية، ولكنها جمعية دولية. كل دولة في العالم فيها «محفل رئيسي» يسمى المحفل الأعظم، وتوجد في الدولة الواحدة عدة محافل، وكان مقر المحفل الأعظم للعالم كله في لندن، ثم أصبح الآن في واشنطون، وقد يأخذكم العجب حينما تعلمون أن الماسونية منتشرة في العالم انتشارا يحسدها عليه أعظم الأديان، ويُكمل:

– كما أن الماسونية ترغب في أن يكون العالم كله تبعا لها، وهي سيدته، والماسون في سبيل تحقيق هدفهم يقومون بتجنيد الأفراد القادرين على تحقيق غاياتهم من كل الأديان والأجناس والمِلل، إلا أن الماسونية لا تقبل عضوية النساء، وهم ينادون على بعض بلقب «أخ» و «الإخوة»، ولهم درجات عضوية، تبدأ بالأخ المنتسب ثم المنتظم، وهكذا تتدرج العضوية حتى يصل بعضهم فيها إلى أعلى المراتب، ولك أن تعرف أن درجات العضوية فيها هي نفس درجات العضوية في جماعة الإخوان، ونفس أهدافها هي نفس أهداف جماعة الإخوان.

«أنتيكا» يسأل دكتور ماجد:

– ولكن الإخوان يصبغون جمعيتهم بصبغة إسلامية يا دكتور؟

دكتور ماجد ينظر لأنتيكا مبتسمًا، ويطلب منه أن يُعد له كوبا من الشاي بالنعناع في الـ «الخمسينة» كالذي يحتسيه ماهر من وقت لآخر، يوافق ماجد سعيدا، ثم يسترسل:

– كلامك صحيح يا «أنتيكا»، لكن لأن الماسونية جمعية سرية؛ لا ينبغي للأخ فيها أن ينشر أسرارها، وإلا حق عليه العقاب، ومن أجل ذلك يكون فيها قسم

الولاء حيث يُحل فيها الأخ دمه للجماعة، ويتم هذا القَسَم في غرفة مغلقة مظلمة، ويتلقى القسم أحد كبار الماسون وهو يضع قناعا أسود على وجهه؛ حتى لا يعرفه الأخ الماسوني الجديد. وفي تلك الجلسة يتم وضع مسدس على منضدة صغيرة، ويوضع بجوار المسدس لائحة الماسون وتعاليمهم، وعليهما يقسم الأخ الماسوني على إخفاء كل أسرار الجمعية وأن يسمع ويطيع كل ما يؤمر به دون مناقشة، وليس له أن ينشر أسرار الجمعية وإلا حق عليه العقاب.

يتدخل ماهر في الحديث لإضافة معلومة كان قد قرأها عن حسن البنا:

– بالمناسبة يا جماعة، قرأت مقالات وكتبا لعدد من المنشقين عن «الإخوان» جاء فيها أنه في عام 1927 حينما كان حسن البنا شابا صغيرا في السنة النهائية من مدرسة دار العلوم التجهيزية تعرف على شاب فرنسي الجنسية اسمه مسيو «بلوم» وكان هذا الشاب يجيد اللغة العربية إجادة تامة، وكانت له أبحاث عن الإسلام وتاريخه. أما المكان الذي تعارفا فيه فهو «دار الكتب» التي كانت كائنة آنذاك بمنطقة باب الخلق، حيث لاحظ مسيو «بلوم» أن هناك شابا له سحنة ليست مصرية ولحية خفيفة، ويرتدي اللباس المغربي الشهير بعباءته وسرواله وعمامته، وكان يجلس منكبا على بعض الكتب، وكان أن جلس بجواره مسيو بلوم، وبدأ معه حوارا طويلا، ظل مستمرا فيما بعد لسنوات طويلة، وكان لبلوم هذا أكبر الأثر في حياة حسن البنا وفي مسار جمعيته الإخوانية.

يبتسم دكتور ماجد ويؤكد:

– كأنك تقرأ ما يدور برأسي دكتور ماهر، فكلامك صحيح مائة في المائة، فلسبب لم يذكره حسن الساعاتي لأمر في نفس يعقوب، ولا حتى أحد من المؤرخين اللهم إلا مؤلف كتاب «حسن البنا الذي لا يعرفه أحد».. قطع «البنا» دراسته، بعد أن نجح بتفوق في مدرسة دار العلوم التجهيزية، إذ لم يلتحق بكلية دار

العلوم رغم أن أوراقه كانت قد قُبلت بالفعل فيها، ومن غير سبب معروف تقدم حسن الساعاتي بأوراقه للعمل كمدرس للخط العربي في إحدى المدارس الابتدائية بمدينة الإسماعيلية، حيث يعمل مسيو بلوم صديقه الذي التقاه في دار الكتب، والذي كان صاحب التأسيس الحقيقي للجماعة. ويبدو أن الصلة كانت قد توثقت بين بلوم وحسن الساعاتي بشكل كبير، ويردف ماجد:

في الأيام الأولى للساعاتي بالإسماعيلية التقيا كثيرا، وكانت الحوارات بينهما مخفية عن الجميع ، خاصة تلك اللقاءات التي كانت تتم في البنسيون الذي أقام فيه حسن الساعاتي في أيامه الأولى بالإسماعيلية، وهو بنسيون مملوك لامرأة يهودية تدعى «أم جيمي»، وكانت لقاءات حسن الساعاتي خوجة الخط العربي الجديد بالمدرسة الابتدائية مع بلوم قد بدأت تتخذ طابعا جماعيا لا فرديا، إذ اشترك معهما بشكل مستمر في هذه اللقاءات شخصيتان يهوديتان ذكرهما حسن الساعاتي في مذكراته، هما: إبراهام جان، وشمعون مونديال. وخلال تلك الأيام بدأ حسن الساعاتي في إنشاء جماعته، وكانت من عدد محدود من الرجال والشباب الأميين من أصحاب العاطفة الدينية، وظنوا في بداية الأمر أنهم يلتحقون بطريقة صوفية شبيهة بتلك الطرق التي كانت تعج بها البلاد .

ماهر يكمل بقية الحكاية، فيرد على ماجد:

– أعتقد أنه بعد أن استقرت إقامة حسن الساعاتي – حسبما لديَّ من معلومات – في شقة صغيرة ، بدأت علاقاته بأعيان الإسماعيلية تتسع، وكان عرَّاب هذه اللقاءات مسيو بلوم، وهو أيضا الذي قاده لمدير شركة قناة السويس؛ ليأخذ منه أشهر خمسمائة جنيه في التاريخ، وهي الخمسمائة التي بدأ بها البنا في تأسيس الكيان الخاص بجماعته، ومن وقتها أصبح البنا أشهر كلب صيد للإنجليز، والآن تقوم جماعة الإخوان بدور كلب الصيد للمخابرات الأمريكية والبريطانية، وكانت هي صاحبة الدور الأكبر في محاولة «قنص» المنطقة كلها؛ لتقديمها إلى الأمريكان،

ويواصل ماهر:

– ولذلك تحظى تلك الجماعة بحماية ثنائية الأبعاد من أمريكا وإنجلترا، وستظل تحظى بحمايتهما طالما تقوم بدورها بانتظام، كشبكة صياد للأمريكان والإنجليز؛ لذلك يجب أن ننتبه لألاعيب هذه الجماعة جيدا.

ينتهي ماجد من كشفه حقيقة حسن البنا، ويترك المجال لماهر؛ كي ينتقد أغلب النخبة الإعلامية التي تحولت بين ليلة وضحاها إلى «حكائين» و«ملياردية» و «قادة رأي عام»، فيقول ماهر :

– منذ عام 2002 بدأ تكوين نخبة إعلامية جديدة مختلفة، المال هو الصانع الأول، حيث ظهر السوق الإعلامي الخاص، أسموه زورا مستقلا، لم يكن كذلك، فالدولة هي التي خرجوا من رحمها، سواء صحف قومية، أو ماسبيرو، انتشرت الأموال، صحف وقنوات فضائية جديدة، تحسنت الدخول، ارتفعت جودة الصناعة، وبدأ الإعلاميون الجدد في التشكل، قدموا أنفسهم أطهارا شرفاء، ويكمل ماهر بسخرية:

– هؤلاء كانوا يغمزون فيمن كانوا قبلهم بأنهم فاسدون وأولاد النظام، وكانوا يشيرون إلى أنفسهم بالشرف، وما قبلهم فاسقون، ولكن دارت الأيام، وبدأت الصحف الخاصة في الرواج.. الانتشار.. الذيوع. الهجوم على الدولة صدَّرهم لدور البطولة.. المزايدة عليها.. هم الشرفاء.. الكل معطوب. تخيل أن هذه النخبة الإعلامية الجديدة، بدلا من أن تكون إضافة فكرية، صانعة حالة جدل مجتمعي؛ من أجل الوصول إلى الأفضل، تحولت إلى جماعات ضغط وقسوة على الدولة، جعلت الدولة محل اتهام دائم من المواطن، بدأت الغنائم؛ ليميز الله الخبيث من الطيب.

ماجد يستأذن ماهر في المقاطعة، بعد أن صفق لحديثه مع بقية المحتجزين:

– عندك كل الحق دكتور ماهر، وعن نفسي أضيف أنه عام 2006 تحديدا غرقت عبارة السلام، كانت في الطريق إلى السعودية، ذهابا أو إيابا، لا أذكر، مالك العبارة رجل أعمال، مثل ملاك الصحف الخاصة والفضائيات الخاصة، كان ذلك أول اختبار، اختبار فساد، مثل اختبار حمل عروس، للنخبة الجديدة، رؤساء التحرير الجدد، المال تدفق من مالك العبارة. ويردف ماجد:

– أموال طائلة للنخبة الجديدة.. حملات تبييض وجه.. تبرئة.. إدانة للدولة في الحادث.. حادث الغرق..« 1026» شخصا لقوا حتفهم في البحر.. كانوا سحرة.. سحروا أعين المواطنين.. استرهبوهم. مسئول كبير قال لي آنذاك: أحد قيادات النخبة الإعلامية الجديدة كان في زيارة لنجل صاحب العبارة ذات ليلة، وحمل الأموال في أكياس بلاستيك سوداء.

ماهر بغصة في الحلق:

– ليس هذا فقط، نضيف إليهم طبقة الفاسدين الجدد، الإعلاميين الجدد، اخترعت مساحات تواصل وهمية مع الجمهور آنذاك، الجمهور الذى ينبهر بتلك الحالة من البطولة المجانية، لمجرد استمتاعه بمتابعة حالة الصراع الوهمي مع الدولة، صدَّر هؤلاء صراعا وهميا، بين المواطن والدولة، دائما ما تصدرها النخبة للمجتمع، المنجذب للتعاطف مع شخصيات درامية تخوض معركة ضد السلطة، ورغم ذلك هم ضيوف دائمون على المكاتب المغلقة للأجهزة الأمنية!!

■ الفصل السادس عشر
مفاهيم استعمارية

ولأن غرفة الحجز بها كاميرات صوت وصورة؛ تم نقل تفاصيل هذه المناقشة إلى مأمور القسم الذي سعد جدًّا بما يسمعه من شخصيتين مثقفتين في توقيت صعب، اختلط فيه الحابل بالنابل، فما كان من «المأمور» إلا أن استدعى دكتور ماهر ودكتور ماجد في مكتبه، وفتح معهما مناقشة ودية، هذه هي تفاصيلها.

المأمور مرحبا بماهر وماجد:

- يسعدني جدًّا مشاركة شخصيتين وطنيتين ومحترمتين مثلكما في الحديث عن الشأن العام، وما تتعرض له مصر من فئة مأجورة لا تعرف من الدين سوى قشوره، ومن الوطنية سوى الخيانة والعمالة، ويتابع:

- قديما قالوا إن أقرب طريق لقلب الرجل معدته، مثل شعبي، أقرب الطريق لقلب النظام نخبته، مثل سياسي، ثلاث نخب عرفتها الأعوام القليلة الماضية،

أعوام فارقة في حياة مصر، نخبة مبارك، نخبة يناير، والمؤكد أنه يوجد في الطريق نخبة أخرى لا ندري، هكذا تُنبئ الأحداث، نخبة مبارك أدت إلى نخبة يناير، حبل علني، ليس سريًّا، النخبة المتوقعة ستكون هجينا معطوبا، مؤسف أن تكون النخب الثلاث معطوبة، مبارك ويناير ، الأولى من مال رجال الأعمال، مال حرام، الثانية من أموال الخارج، مال مسموم، النخبة المتوقعة جلُّها سيكون انتهازيا، بعضها سيكون مؤلفة قلوبهم، سينتقلون إليها قسرًا من نخبة يناير، سيتدولجون، قليلون المؤمنون بالدولة والمشروع.

يبتسم دكتور ماجد وهو يقاطع المأمور برقي، فيقول:

– معالي الباشا، من الواضح – الواضح جدًّا – أن مخرج العرض يحفظ الأدوار، الطالح والصالح، يرى الكواليس، صمت العلماء، نحن الآن لسنا أمام نخبة، أمام مجموعات عاطلة، تعرف بعضها بعضا، تلتف حول نفسها، أصابها وسواس قهري سياسي بأنهم يؤرقون الدولة، يقولون في أنفسهم، قولًا بليغًا، يجب الحفاظ على حالة «النخبوية»، حصانة من أي إجراء، هكذا يزعمون، حصانة من غضب الدولة، الغضب آتٍ.

دكتور ماهر يتساءل:

– وهل سيكون لهذه النخبة المتوقع ظهورها مشروع واضح تدافع عنه، تناضل من أجله، أم أنها ستكون حريصة على أن تظل كيانًا هلاميًا؟ كيانا يملك مرونة الخداع؛ لكى تتمكن من الانقلاب، حسب الأحوال التي تفرض نفسها.

المأمور يوضح:

– مؤسف جدًّا يا دكتور ماهر أن تكون نخبة مصر الآن فيسبوكية، وهمية، افتراضية، يغازلون الدولة بالفيسبوك، لايك، شير. لقد تحولت النخبة لواقع افتراضي، وهمي، يبتزون بالفيسبوك، يطلبون بالفيسبوك، يدعون أعوانهم بالفيسبوك، ويردف:

هل نحن أمام نخبة حقيقية، أم مجموعة من سماسرة السياسة، يكتفون بدور الوسيط، غير النزيه طبعا، بين الدولة وبين المخدوعين بشعاراتهم؟ النخبة هي نتيجة لحالة نضالية فكرية، ليست حقًّا مكتسبًا، ليست ادعاء القدرة على المجاهرة، مجاهرة انتقاد الدولة، دون أن تطرح بدائل منطقية لما تنتقده. ليس من العدل أن تسيطر على الجمهور، لمجرد أنك تمتلك أدوات ومهارات خادعة، بينما تقع ضحية له إذا واجهته بالحقيقة.

ويواصل المأمور حديثه بصوت مكلوم وغصة بالحلق، وهو يستدعي من ذاكرته عملية اقتحام وحرق السجون وقتل عدد من ضباط وجنود الشرطة مع عدد آخر من المواطنين الأبرياء، دون أن يكشف أحد حينها من تكون تلك الأيدي الآثمة التي أطلقوا عليها مصطلح «الطرف الثالث»، فيسأل الحضور.

– ماذا لو كتب أهل السلطة خواطرهم عن النخبة، النخبة المتوقع ظهورها، تلك التي يسلط عليها الإعلام الضوء الآن؟!.. هوس النخب الذى تجمعت عنده العشرة أعوام الماضية، النخب الثلاث، مبارك، يناير، والهجين المتوقع ظهورها، عجب، خواطر كاشفة، نخبة يناير الأكثر انتهازية، ثوار على الصحف، الفضائيات، مناضلون على الفيسبوك، مغاوير تويتر، في الغرف المغلقة، غرف السلطة، مطالب لا تنتهى، جلها غير قانوني، غير مشروعة، مرفوضة.

أثناء الحوار يتدخل نائب المأمور (العقيد، رضا الهواري – أربعيني شرس) في الحديث:

– نخبة مبارك، نخبة رجال الأعمال، تعودوا على الأخذ، المقايضة، مفضوحة، وجوه مكشوفة، مناضلون أول النهار، دولَجية في آخره، حسب الطلب، نخبة يناير تستحق الدراسة، انتهازيون، مبتزون، «إذا أعطوا منها رضوا»، يلمزونك بالطلبات، يراهم الناس على الشاشات، لا يرونهم في الغرف، خلف الجدران، يهرولون إلى السلطة حتى اللهث، بحثًا عن غنائم، يتوددون في رخص، على حساب

الجماهير التي خدعوها، خدعوها بالمعارضة، يحسبونهم رجالًا، بطونهم شتى، بطولات زائفة، من ورق، يدعون «الثورجة»، يدعون «الدولجة»، يؤمنون بالثورة طرف النهار، وبالدولة آخره، قوة الدولة أجبرتهم على ادعاء «الدولجة»، ليس أكثر، ويتابع:

– السلطة رأت من أمثال هؤلاء ما لا عين رأت، إذا استجابت لمطالبهم مرة، زادت الطلبات، تفحلت، ارتفعت الطموحات، إذا رفضت، يفتح هؤلاء عليها نير المقالات، معارضة بطالة، تثوير، نضال فضائي، فيسبوكي، تويتري، ترى العروق منتفخة أسفل الوجنات من الحمية، عندما يتحدثون، حمية الخوف على البلد، ممثلون بارعون.

دكتور ماهر:

– علمي ببواطن الأمور ليس بالشكل الواضح الكاشف، ولكن إذا كانت الأمور بهذا السوء، فالحكايات عن أولئك مليئة بالعار، مصر لا تستحق مثل هذه العينات، خاصة الإخوان المتأسلمين وحوارييهم، هؤلاء هم الخطر الأكبر، مثلهم مثل الانتهازيين والمتسلقة، الاختبارات تتوالى لفرز النخبة، نخبة مصر، لا مبارك ولا يناير، أو حتى المتوقع ظهورها، ويتابع:

– الدولة في طريقها لتغيير كل شيء، السياسة، الاقتصاد، الفنون، الثقافة، النخبة، التغيير هو الحل، متروك للتجربة والفرز، والأيام حبلي، معارك التغيير لا تنتهى، لن تنتهى، كل يوم الدولة في شأن، عبيد اللايك والشير يتوارون إلى الخلف، المقاتلون يتقدمون، لن يكون في الجيش رماة، لن يكون هناك غنائم، الغنائم للأجيال المقبلة!

تنتهي إلى هنا المناقشة، وظل دكتور ماجد محتقنا وغاضبا من كلام المأمور ونائبه بعد أن عاد مع دكتور ماهر إلى غرفة الحجز؛ نظرا لاشتراكه في ثورة 25 يناير 2011، وإن بدا عليه حينها غير ذلك.

داخل الحجز، يواصل ماهر حديثه في ذات الأمور وبحضور بقية المحتجزين، فيقول:

- لأنني مُلم إلى حد ما بالملف الديني بحكم نشأتي وعملي؛ دعوني أصحح بعض المفاهيم الخطأ التي لصقت بأذهان بعضنا من تجار الدين؛ حتى نزيل من عقولنا تلك الشوائب العالقة من وسائل الإعلام الموجهة، وعندما أفتح النقاش في هذا الملف، فلا بد من الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم وسنة الرسول- صلى الله عليه وسلم- عملا بالحديث النبوي الشريف: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي».

دكتور ماجد:

- أما في الثقافة والإعلام، وهو مجال دكتور ماهر، فليأذن لي أن أُسدي نصيحة لنفسي ولكم بالحذر من كل ما تسمعونه وتشاهدونه في الفضائيات والإذاعات وبعض الجرائد، كما أنصح نفسى وأنصحكم بعدم الانغماس في وسائل التواصل الاجتماعي والتأثر بكل ما يكتب فيها، ورجاء حينما تريدون قراءة كتب ثقافية ودينية وسياسية أن تكون لكُتاب ثقات.

مر شهر وماهر مستمر في مناقشاته المثمرة مع ماجد داخل غرفة الحجز، وفي الوقت ذاته استمرت زيارة محاميه وأهله وبعض أساتذته وزملائه في الإعلام والسياسة والثقافة له فيأيضًا من وقت لآخر، كما كان دائم الاتصال بزوجته الأمريكية بروفيسور سارة ويطمئنها على كل جديد في قضيته، وكان حريصا على أن تحضر جلسة براءته من التهم المنسوبة إليه.

بتاريخ يوم 5 مايو 2012م التاسعة صباحا ينادي أمين الشرطة على المتهم ماهر في غرفة الحبس، ويطلب منه الاستعداد لمصاحبة طاقم الأمن المسئول عن حراسته إلى محكمة الجيزة.

ماهر يجهز نفسه، ويودع زملاء الحجز وداعا يتناسب مع علاقته الطيبة بهم،

وقبل أن يحتضن ويودع «أنتيكا»، فوجئ بقرار مختوم في يده من إدارة السجون بإخلاء سبيله بضمان محل إقامته.

لم يصدق ماهر نفسه، وحمد الله على سماعه هذا الخبر، ثم احتضن «أنتيكا»، وودعا بعضهما على أمل التواصل خلال الأيام التالية.

يغادر ماهر في سيارة ترحيلات القسم مع فريق الأمن المرافق له كالمعتاد، بمجرد نزوله من السيارة، فوجئ بمحبيه وزملائه ومناصريه وأهل بلدته وأساتذته وزوجتيه ووالديه وولديه وشقيقته وزوجها في انتظاره.

ينادى حاجب المحكمة:

- محكمة.

يدخل القُضاة (رئيس المحكمة قاضي شمال – قاضي يمين)، ومعهم ممثل النيابة وأمين السر قاعة المحاكمة باتجاه المنصة، يقف الجميع لمدة دقيقة حتى يأذن لهم رئيس المحكمة بالجلوس.

يكرر الحاجب:

- الرول رقم (1) قضية رقم (1).

رئيس المحكمة ينظر إلى السماء، ويناجي الله بكلمات قليلة غير مسموعة، ثم ينطق بالحكم:

- حكمت المحكمة حضوريا ببراءة المتهم ماهر أحمد عبد الرحمن من جميع التهم المنسوبة إليه، وتغريم وزارة الآثار 10 ملايين جنيه على سبيل التعويض الذي لحق بشخص وجريدة المتهم وتكليف مباحث الآثار والأموال العامة والنيابة العامة بالقبض على القيادتين الأثريتين: «..... و..... » والقيادتين الأمنيتين: «..... و.....» وتاجر الآثار المتورط في القضية «.....» وعدد آخر من صغار موظفي وزارة الآثار الذين شاركوا بشكل أو بآخر في تنفيذ

هذه الجريمة بحق الشعب، وهم:«..... و.... و..... و..... و..... و..... و..... »، ويواصل:

- كما حكمت المحكمة بوضع عدد من تجار الآثار الأجانب ضمن قائمة الترقب في المطارات، وترفع الجلسة.

مناصرو ماهر بصوت عالٍ يرج قاعة المحكمة:

- يحيا العدل ويسقط الفساد والخونة، يحيا العدل ويسقط الفساد والخونة، يحيا العدل ويسقط الفساد والخونة.

تنطلق المحامية مُنى شقيقة ماهر مع زوجها ضابط الشرطة، والمحامي مدحت ودكتورة زوزو وزوجها إلى المحكمة، ومنها إلى قسم الشرطة؛ لإنهاء الإجراءات الخاصة بخروج المتهم، وقد كان، وفي وقت قياسي نظرا لتوصيات رئيس المحكمة وأحمد بك عليه.

على سلالم المحكمة تقف بروفيسور سارة مجهدة؛ لقلة نومها يومين متواصلين، بعد وصولها من أمريكا لحضور محاكمة زوجها، وبصوت هادئ تقول:

- الحمد لله، ظهرت براءة حبيبي ماهر.

أحمد بك يراقب الموقف عن كثب، وبحذر شديد يهمس في أذن ماهر المحاط بجمع غفير من الأهل والأصدقاء والزملاء و.....، فيقول:

- ماهر حبيبي، زوجتك الأمريكية تقف وحيدة مرهقة على سلالم المحكمة.

وسط هذا المشهد تنظر دكتورة زوزو بعيني الصقر إلى بروفيسور سارة من بعيد، تستأذن زوجها للحظات، ثم تتجه نحوها لتتحدث معها لشيء في نفسها:

- أهلا وسهلا يا افندم، أنا باشبه على حضرتك. يا ترى بروفيسور سارة اللي بتكتبي مقالات في نفس صفحة الرأي التي أكتب أنا فيها أم لا؟

بفطنة وحس النساء تبتسم بروفيسور سارة:

- نعم أنا هي يا دكتور زوزو. سعدت جدًّا بلقائك.

تحدق زوزو في وجه سارة، وترمقها بنصف ابتسامة باهتة، ثم تجيبها:

- أهلا وسهلا يا افندم، شرفتِ ونورتِ مصر.

تكرر سارة ابتسامتها بنوع من العتاب، وترد:

- ماهر كلمني عنك كتير أوي، غير كده، أنا من أشد المعجبين بمقالاتك اللي بتكتبيها في جريدة الرأي الحر.

زوزو بغيظ شديد تحدث نفسها همسا:

- معجبة بمقالاتي، وماهر يكلمها عني، آاااه.. على أي حال لازم أفهم إيه حكاية الست دي، آاه يا ماهر، ده انت بقى على كده حكايتك حكاية. طيب لما أشوفك!

يهرول ماهر مسرعا نحو سارة، كاد أن يحتضنها لولا خشيته من زوزو ومن الإعلاميين الذين ملؤوا المكان ومن أعدائه ومن ميار زوجته.

وبصوت مرتعش ومتلعثم يصافح ماهر دكتورة زوزو، ويقدم لها بروفيسور سارة على أنها أستاذته التي أشرفت له على رسالتي: الماجستير والدكتوراه، وهي أيضا الكاتبة الأمريكية التي تكتب عمودا أسبوعيا بجوار عمودها.

تبتسم زوزو بدهاء، ونظراتها تتوعد ماهر بعتاب من نوع خاص إنهاءً للموقف، وإكراما للضيفة، ثم تصافح سارة، وتحتضنها على وعد بلقائها في أقرب وقت، بعد أن ترتب موعدا مناسبا مع ماهر. وقبل أن تعود زوزو إلى زوجها، همست في أذن ماهر؛ لتسأله بدلال الأيام الخوالي، وكأنها غارت عليه من سارة:

- إيه الحكاية يا ولد؟ ده الموضوع باين فيه زواج و.....؟!

ماهر سعيدا بنظرات زوزو، وفي لحظات قليلة يسترجع واقعة الخطاب

الغرامي إياه أيام الطفولة، ويضحك:

- أبدا والله حبيبتي... عفوا.. أبدا والله زوزو. أصل الموضوع.....

زوزو تشفق على ماهر، وتعفيه من الإجابة، بعد أن قرأت جيدا ابتسامته وتعابير وجهه:

- بعدين ليَّ كلام تاني معاك. هههههه.... باااااي دي الوقت يا ماهر يا «خلبوص». حان موعد العودة مع زوجي الحبيب إلى منزلنا.

يكرر ماهر ابتسامته ، ويداه تحتضنان يدي زوزو، ثم يودعها بنظرات حانية، ويشكرها على كل شيء قامت به من أجله.

يلتفت ماهر بعد ذلك إلى سارة، ويسلم عليها بالقلب والعين دون الجسد.

وهكذا فعلت معه سارة، رحبت بماهر، وظلا على هذا الحال لمدة 10 دقائق، بعدها استأذنها لتتعرف على أسرته وزوجته ميار وولديه. رحبت سارة جدًّا بأهل زوجها، كما بدت سعيدة جدًّا بهذه اللحظات، واستمتعت بدفء التواجد بين ماهر وأهله، وبدأت تتذكر تلك الأيام التي قضتها بين أحضان والديها عالمي الآثار وشقيقها في الأقصر، ونشأتها بين أهل الصعيد و.....

ماهر يحدث نفسه همسا:

- يا ترى ما الذي قالته عني زوزو عندما رأت سارة؟! زوزو ذكية جدًّا، وتفهمها وهي طايرة ـ طيب، وما الذي ستقوله عني ميار لو اكتشفت زواجي بسارة؟ هل ستعتبرني ميار خائنا للعيش والملح؟؟.. وهل يمكن أن تتخلي عني وتطلب الـ «.....»؟؟ ولو طلبت الـ «.....» ما مصير الطفلين؟؟، ويتابع:

- يا الله! دماغي هتنفجر. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعتقد أن كل هذا مجرد إرهاصات، كما أن ميار بتحب سارة لأسباب كثيرة جدًّا، أهمها حديثي لها عن دعمها لي في رسالتي: الماجستير والدكتوراه، ثم استمرار إرسالها الشيك

الشهري بالدولار لي ولأسرتي الصغيرة و..... لا لا لا يمكن أن تشك ميار في زواجي من سارة. أما زوزو فستلتمس لي العذر عندما تكتشف الحقيقة يوما ما.

بعد نحو نصف ساعة تقريبا قضاها ماهر بين أحبابه عقب براءته، بدأ يوجه أهله وأهل زوجته للعودة إلى قريته بالمنصورة، فيما أوصى محاميه بمصاحبة سارة إلى منطقة الهرم بناء على رغبتها، وبعد ذلك إلى محل إقامتها بالفندق الذي تقيم فيه وسط القاهرة إلى أن يزورها غدا.

ركبت سارة في المقعد الخلفي بسيارة مدحت ماركة البيجو غير المكيفة في درجة حرارة لا تقل عن 40؛ لينطلق بها إلى منطقة الأهرامات.

تتنزل سارة من السيارة مسرعة ناحية الهرم الأكبر، وتبدأ الحديث مع نفسها بصوت يملؤه الكبرياء والغرور وهي تنظر إليه:

أيها الهرم الأكبر.. أيها الملك خوفو العظيم الذي يرقد الآن بسلام.. أعرفك بنفسي.. أنا يهودية.. من سلالة متماسكة «الهكسوس».. لم نستسلم، ولم ننقرض بعد، رغم محاربة ومطاردة الطغاة لنا.. ولم نبتعد مطلقا عن جذورنا..أي لم ولن نبتعد عنك أنت.. فشجرة عائلتنا في أمان.. أقوياء أشداء منذ ذلك الزمان الذي أخرجنا فيه – عنوة – الملك الطاغية «رمسيس الثاني».. أكرر لك أيها الملك.. أن شجرة عائلتنا مكتوبة على جلد غزلان.. ومحفوظة الآن في أفخم وأعرق بنوك العالم أمنا وأمانا.. تلك البنوك هي من بنات أفكارنا نحن سادة العالم.. إن بنوكنا المنتشرة في أنحاء العالم ليست لحفظ النقود فقط كما يتوهم الدهماء.. بل لحفظ أصولنا وأنسابنا من جانب.. ومن الجانب الآخر للتحكم في مصير العالم.

ينظر مدحت إلى سارة وهي تتحدث مع الهرم، يستشعر بشيء ما غير مريح وغير طبيعي، يناديها بأدب واحترام؛ حتى يقطع عليها تلك اللحظات عن عمد:

– سيدتي.. هل تريدين بعض العصائر أو الساندويتشات أو التنزه قليلا بين الأهرامات أو ....

تبتسم سارة، وترد على مدحت بامتعاض:

- لا.. أشكرك مستر مدحت، سأكتفي بقضاء هذا الوقت الـذي اختلسـته مـن الزمن الجميل، وإن لم تمانع، يمكننا الذهاب الآن إلى الفندق.

تركب سارة سيارة مدحت في طريقها إلى مقر إقامتها، وخلال 35 دقيقة يصلان إلى الفندق، فيترك لها مدحت أرقام هواتفه وهواتف زوجته مارجريت في: المنـزل والمكتب إن هي احتاجت لأي شيء، بناء على طلب صديقه ماهر منه.

أثناء تواجد ميار وماهر وولديهما وشقيقته مُنى في سيارة زوجها ضابط الشرطة محمود متجهين إلى منزل ماهر بمدينة 6 أكتوبر، تعترضهم سيارة همر، يخرج منهـا أربعة أشخاص برشاشات، «يغربلون» سيارة الضابط بوابل مـن النيـران.. يصـاب ماهر بطلقـة في الكتـف، وتصـاب زوجتـه برصاصـتين قـرب قلبهـا، بينمـا ينجـو الآخرون.

لم يستسلم ضابط الشرطة، ويستمر في مطاردة المعتدين بسلاحه الميري، حتى ينجح في الإمساك بأحدهم بعد اصطدام سـيارتهم بعمـود كهربـائي، فيمـا يهـرب الباقون.

يذهب الضابط أولا إلى أقـرب مستشـفى؛ ليتـرك فيهـا مـاهر وزوجتـه لتلقِّـي العلاج، ثم يواصل سيره إلى أقرب قسم شرطة، ويسلم فيه المجـرم، بعـد أن كبـل يديه بالكلبشات، وكتب محضرا بالواقعة.

سارة تستلقي على سريرها بالفندق مستسلمة للنوم؛ لتعوض إرهاقها وتعبها.

في منامها زارها ماهر، فتحتضنه ويتسامران معا، إلى أن يدخلا في «مـود الحـب الجميل».

تستيقظ سارة في الصباح الباكر، تجلس بعض الوقت في بلكونة غرفتها المطلـة على النيل، فيسحرها مشهد المياه والمراكب وصفاء الجـو، تسـتكمل مـع نفسـها

ذات الحوار الذي رددت جزءا منه أمام الهرم الأكبر:

– هل رمسيس الثاني فعلا هو فرعون الخروج الذي طردنا من جنتك يا مصر، يا أم الدنيا؟؟ وماذا لو لم يُخرجنا هذا الفرعون منك؟! هل كنا نحن اليهود سنصبح أصحاب هذه الأرض التي وعدتنا بها التوراة؟!

لم يوقظ سارة من أحلام يقظتها سوى نغمة هاتفها الخاصة«إنت وبس اللي حبيبي». ترد بسرعة ولهفة:

– ألو ماهر حبيبي، تعرف.....؟

ماهر يبتسم بدلال العشرة الجميلة:

– عارف كل حاجة.إنت طمنيني عليك حبيبتي.

سارة بلهفة وحنين:

– باموت عليك وفيك. أنا بخير حبيبي.. يلا تعالي، منتظراك على الغدا حبيبي.

ماهر معتذرا:

– مش هينفع يا عمري؛ لأني تعرضت لحادث إجرامي أنا وميار.

سارة منزعجة على زوجها وزوجته:

– يا ساتر يارب! خير حبيبي؟! قلقتني. طيب إنت فين؟ وممكن آجي أزورك؟

ماهر بصوت خافت:

– بعد 30 دقيقة هيفوت عليك دكتور مدحت وأسرته، وكمان دكتورة زوزو.. تعالي معاهم.. منتظرك في مستشفى مدينة 6 أكتوبر. بس خلي بالك.. اتحكمي في مشاعرك شوية لغاية ما.....

سارة تضحك بصوت مرتفع:

- جبااااان حبيبي.. هههههه. موووووووه. باااااي حبيبي.

تنهض سارة من سريرها، وترتدي أفخم ثيابها وحليها؛ استعدادا لرؤية الـزوج والحبيب. تقف لحظات أمام مرآتها، وتغني:

«إنت وبس اللي حبيبي». يرن جرس التليفون الأرضي:

- ألو.. مين؟!

- موظف الاستعلام مع حضرتك يا افنـدم. فيـه زوار في انتظـار حضـرتك في الاستقبال.

سارة:

- أوك، فقط دقيقتين، ونازلة حالاً،

بخطى ثابتة وعيون قناصة تنزل بروفيسور سارة من غرفتها بالدور الثالث عـلى السلالم. تبدو من زينتها وتسريحة شعرها وكحل عينيها شـبيهة بالملكـة كليوبـاترا فعلاً.. تلمح ضيوفها.. تتجه نحوهم.. تصـافح دكتـورة زوزو مصـافحة خاصـة، وتهمس في أذنها:

- هانتظرك في زيارة خاصة لأمريكا عزيزتي زوزو.

زوزو بكبرياء وشموخ ملكات الفراعنة تستحضر هـي الأخـرى روح الملكـة حتشبسوت (المصرية أبا عن جد)، فترمق سـارة (كليوبـاترا– رومانيـة الجـذور) بنظرات الماضي السحيق عنـدما كـان اليهـود خـداما عنـد فرعـون مصـر، وتـرد بكلمات من تحت الضرس:

- ميرسي خالص سارة.. أووووه، سوري بيبي، ميرسـي كليوبـاترا. إن شـاء الله تعالى أرتب مع مستر ماهر، وأعطيك خبرا.

بعد مصافحة سارة لزوزو وما حدث بينهما، تمـد يـدها لتسـلم عـلى مـدحت

سلاما شرقيا؛ خشية من رد فعل زوجها إن بدر منها ما يمس كبرياءه. هكذا كان ماهر يلفت دائما نظرها بغيرته عليها، ثم تسلم على دكتورة مارجريت سلام الهوانم وتقبلها، وتقبل طفلها، وتمنحه هدية مادية قيمة في ظرف مغلق.

ينطلق مدحت بسيارته حتى يصل بهم إلى مستشفى أكتوبر، يصافحون ماهر وميار، ويمطرونهما بوابل من الدعاء والتبريكات على سلامتهما.

لأول مرة تشعر ميار بالغيرة رغم حالتها الصحية من سارة؛ بسبب زيها وأناقتها وعطرها، وطريقة نظراتها لماهر. أما زوزو فكانت لها نظرتها الخاصة، وتحليلها الخاص في علاقة ماهر بسارة، حيث تأكدت أنهما مرتبطان بشكل أو بآخر.

مرت الزيارة على خير، وعادت سارة بصحبة مدحت وزوجته وولده إلى فندقها، ثم واصلت زوزو طريقها إلى جامعة القاهرة؛ لتلقي محاضراتها لطلبتها في سيارتها الخاصة.

وهكذا يواصل مدحت طريقه إلى منزله بمنطقة المعادي سعيدا بهدية سارة لابنه، وباستلامه شيكا بمبلغ خمسين ألف جنيه من ماهر نظير أتعابه في القضية.

داخل كلية الصيدلة، وبإحدى صالاتها الكبرى، تقف الأستاذ الدكتور زوزو بكبريائها؛ لتشرح لأبنائها الطلبة عظمة وحضارة ونبوغ قدماء المصريين في الطب بالأعشاب، ثم تركز معهم على نبوغ إله الطب «إيمحتب»، وكيف أفاد المصريين والعالم أجمع بعلمه، وعالجهم من كثير من أمراضهم المستعصية، وكيف نقل عنه هذا العلمَ حكماءُ الإغريق كـ«أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث و.....»؛ لإثراء حضاراتهم.

شعرت دكتورة زوزو بسعادة غامرة حينما لمحت في عيون طلابها الإعزاز والفخر بعلم وحضارة أجدادهم قدماء المصريين.

داخل منزل مدحت تلتقط مارجريت الشيك من يد زوجها وهي سعيدة جدًّا به، وبنظرات الإعجاب والحب والمودة و..... تقول:

- مدحت حبيبي.

- نعم مارجرجيت. تؤمري حبيبتي.

- الشيك ده مش كفاية حبيبي على تعبك في قضية هزت العالم كله بالشكل ده.إنت تستاهل أكتر من كده بكتير.. هههههههه.

- أنا عارف يا مرجريت إنت بتفكري في إيه، عموما حبيبتي أنا عارف ماهر كويس، عمره ما بخل عليَّ بشيء، حتى واحنا أطفال وصبية وشباب رغم ظروفه الصعبة في بعض الأحيان، فكان كريما معي جدًّا، كما كان يدافع عني ضد أي زميل يتعرض لي في ابتدائي أو إعدادي أو ثانوي. أما في الجامعة فقد افترقنا، ولأن مجموع درجاته في الثانوي العام تعدى الـ97٪، ومجموعي أنا كان 87٪؛ التحق هو بكلية الإعلام مع أختك ميرفت، وتفوق فيها، وأصبح معيدا ثم أستاذا، ويتابع:

- بينما التحقت أنا بكلية الحقوق، وعملت بالمحاماة، وقد نلت درجة الدكتوراه والحمد لله. المهم حبيبتي ما تنسيش كمان إن ماهر عين أختك ميرفت كمساعدة له في جريدته، لأ وإيه منحها منصب «رئيس التحرير»، ورغم كله ده يا ستي هو وعدني بنسبة كويسة جدًّا من تعويض وزارة الآثار لما نستلمه إن شاء الله تعالى،

مارجريت سعيدة جدًّا:

- هههههه. موووووووووووه. أحبك. يلا بقى.

مدحت يبادل زوجته اللحظة الجميلة:

- يلا ماري حبيبي على السرير عدل.. من حقنا نستريح شوية بعد القلق اللي عشناه الكام يوم اللي فاتوا.

بعد انتهاء زوزو من محاضرتها وعودتها إلى فيلتها بمنطقة الزمالك بسيارتها، كانت فاجعتها أم الفواجع، وجدت أعدادا غفيرة من الناس حول الفيلا. أصابها هم وغم شديدان قبل أن تعلم بوفاة زوجها في حادث مروري أليم، فتنقلب حياتها

إلى مأساة حقيقية لفترة طويلة جدًّا؛ حزنا وكمدا على زوجها، وإشفاقا على وليدها «على»؛ لحرمانه من والده.

حيث كان الزوج بالنسبة لها كل شيء، الأخ الوفي والصديق الصدوق والأب الحنون، وبفقدانه انهارت أمور كثيرة في حياة زوزو كما أكدت هي ذلك للمقربين منها، ومنهم ماهر.

ورغم كل المآسي التي آلمتها وحاصرتها بعد رحيل شريك عمرها، وبعدها بأيام بسيطة والدها، سندها الأخير في الحياة، إلا أنها سرعان ما تماسكت واستردت قوتها، وعادت زوزو مرة أخرى إلى نشاطها في الكتابة ومحاضراتها بالجامعة والإشراف على صيدليتها الخاصة. والاهتمام بطفلها، إلى جانب الحفاظ على مهامها الوطنية تجاه وطنها.

داخل مستشفى 6 أكتوبر يتكالب الإعلام المحلي والعالمي بكل أنواعه على دكتور ماهر للحديث معه عن ملابسات ومسار القضية لمعرفة أدق التفاصيل عن سرقة متحف التحرير وعدد القطع التي عادت إليه، والقطع التي تم بيعها، والأطراف المتورطة فيها.

ولأن ماهر رجل أكاديمي، ويعرف حدود مسئوليته تجاه عمله وزملائه؛ لم يتأخر ولو للحظة على مدار ثلاثة أيام متواصلة وهو في مصابه ومصاب زوجته عن أي زميل أو زميلة يطلبان منه أي معلومة عن هذه القضية.

بعد تعافيه من إصابته هو وزوجته على مدار 30 يوما، كان يتواصل فيها مع زوجته سارة على الأقل 10 مرات يوميا بالهاتف، ثم زارها قبل سفرها بيوم واحد، وقضيا معا وقتا جميلا، بعد ذلك أوصلها إلى مطار القاهرة، لتستقل الطائرة المتجهة إلى كاليفورنيا، على أن يلحقها في أقرب وقت ممكن، بعد أن سلمته مبلغا كبيرا من المال كدعم مادي إضافي منها ومن شركائها؛ لضمان ولاء الجريدة لهم، وقيامه بالمهمة المكلف بها على أكمل وجه ممكن ضد كل من تسول له نفسه في الإعلام المصري أن يتعرض للبعثات الأثرية الأجنبية بأي سوء (هكذا أوصته نقلا عن جماعتها).

ماهر يعود لمحادثة نفسه همسا بعد عودته من المطار:

- كيف أقبل هذا المال الحرام؟! كيف أنفق منه على بيتي وجريدتي وزملائي؟! ما الذي فعلته بنفسي؟! هل زواجي من «سارة» ودخولي في هذه اللعبة صحيح أم خطأ؟! وعلى فرض أن كل هذا في مصلحة مصر، فكيف أسمح لنفسي أن «.....» آاااااااه. دماغي هتنفجر يا ناس.

يستمر ماهر في تأنيب ضميره على النحو السابق حتى يصل إلى منزله بين أحضان زوجته ميار التي تعاني آلاما شديدة؛ بسبب إصابتها في الحادث الذي تعرضت له، ثم يتناول وجبة شهية معها ومع ولديه. وبعد انتهائهم من الطعام، خرجوا لمشاهدة فيلم كوميدي للفنان عادل إمام في سينما بشارع عماد الدين.

يرد ماهر على مكالمة من هاتفه المحمول داخل السينما:

- ألو. مين؟

- أنا ميرفت رئيس التحرير يا دكتور ماهر.

ماهر مرحبا:

- أهلا خير يا ميرفت.؟ الأمور ماشية تمام في الجرنال ورقي وموقع؟

ميرفت بصوت حزين:

- لا والله يا دكتور. المحررين طالبين زيادة مرتباتهم، وأنا وعدتهم إني هاكلم حضرتك بعد ما تخرج من الأزمة إن شاء الله.

ماهر يطمئن ميرفت:

- ولا يهمك يا ميرفت. طمني الزملاء، وإن شاء الله طلباتهم كلها مجابة. أما إنت فلك عندي هدية كبيرة مقابل وقفتك وصمودك وتحديك لأهل الشر في أزمتي.

- ما تقولش كده يا دكتور. ده أقل واجب أعمله. حضرتك بس تيجي لنا بألف

سلامة، وألف مبروك على البراءة.

ميار تبتسم بعد أن أغلق زوجها هاتفه؛ حتى لا يزعجه متصل آخر أيا كان طوال مشاهدتهم للفيلم:

– حتى الاتصالات والشغل كمان في السينما حبيبي. انسى بقى شوية وخليك معانا.

ماهر بخجل:

– عندك حق والله يا روحي. حاضر يا ست الكل. أنا خلاص قفلت التليفون.

يعود دكتور ماهر مع أسرته إلى فيلته بمدينة 6 أكتوبر، بعد استمتاعهم بالفيلم وتناولهم عشاء جميلا «كوارع بالفتة» في أحد محلات منطقة الحسين.

في تمام الثامنة صباحا من اليوم التالي مباشرة يذهب دكتور ماهر إلى جامعته؛ ليتسلم جدول محاضراته من إدارة الكلية، بعد أن يُسلم على الجميع ويمنح بعض الهدايا للمقربين منه، ثم يذهب إلى جريدته.

يستقبله زملاؤه في الجريدة بالأحضان والتهنئة والدعاء له بالسلامة مما أصابه وأصاب زوجته، وخلال 30 دقيقة أكل معهم وجبة دسمة كان قد أوصي أشهر مطاعم القاهرة بها قبل وصوله للجريدة، ثم جلس معهم؛ ليناقشهم في تطوير الجريدة والارتقاء في التحقيقات الاستقصائية عن فساد: الأراضي والأدوية والزراعة والبيئة البترول والمحليات و.....

وبحماس استجاب جميع زملاء العمل بالوعد على بذل المزيد من الجهد في المواد التحريرية بالجريدة الورقية والموقع الإلكتروني؛ حتى يفيدوا القارئ من ناحية، ويشجعوا المُعلن على التعامل معهم من الناحية الأخرى.

وقبل أن ينتهي الاجتماع وعد دكتور ماهر عددًا من الصحفيين المتميزين بالتعيين في نقابة الصحفيين، ثم استدعى محاسب الجريدة الأستاذ خالد أحمد (أربعيني

وقور)؛ ليوزع على الزملاء مكافأة مادية، بالإضافة إلى زيادة مناسبة في الراتب.

اجتهد الجميع في الانفرادات الصحفية بعد هذا الدعم المادي والمعنوي، وهو الأمر الذي انعكس إيجابيا على الجريدة، ومن ثم تضاعف عدد المعلنين، وزاد التوزيع، وأصبحت جريدة «الرأي الحر» من الجرائد التي يقبل عليها القارئ وهو مطمئن، خاصة أن بها عددًا من الكُتاب على اختلاف توجهاتهم، لكن يجمعهم في النهاية «حب مصر».

ولأن دكتورة زوزو كانت أحد كتاب الجريدة الأساسيين، وكذلك بروفيسور سارة، بين كتاب مصريين وعرب منتقين وثقات، فقد دبت الغيرة بقلب دكتورة ميار، وطالبت زوجها بكتابة مقال أسبوعي هي الأخرى، على أن يكون في مجال طب الأطفال والأسرة، أي تخصصها؛ حتى تستطيع أن تعطي فيه بكفاءة وعلم ومهنية.

ابتسم دكتور ماهر وسعد جدًّا برغبة زوجته في الكتابة، وتحديدا في مجالها، وبعد نجاح مقالاتها في جذب عدد كبير من القراء، استشار سارة في أن تتولى ميار مسئولية صفحة متخصصة عن «طب الأسرة» ؛ مثل دكتورة زوزو المتخصصة في الكتابة والإشراف على صفحة أسبوعية عن طب الأعشاب في العصر الحديث بشكل عام، وأيام الفراعنة بشكل خاص.

رحبت سارة جدًّا بانضمام ميار إلى دولاب العمل الصحفي بالجريدة، كما سبق ورحبت بالدكتورة زوزو، وأوصت ماهر أن يُخصص لها راتبا شهريا يعادل راتب دكتورة زوزو وميرفت رئيسة التحرير، وقد كان.

بنهاية هذه الأحداث لم يتوانَ ماهر عن رصد كل صغيرة وكبيرة تستجدُّ في حياته بدفتره الحبيب حتى بعد تبرئة القضاء له من التهم التي وجهت إليه في القضية المسماة إعلاميا بـ «قضية الآثار الكبرى» حتى توضع – حسب اتفاق تم بينه وبين أحمد بك – في ملف خاص بجهاز سيادي.

■ الفصل السابع عشر
المؤامرة الكبرى

في خطوة جريئة من دكتور ماهر لم يوضح الغرض منها حينما سجلها في مذكراته، أو إذا كان هناك من دفعه للقيام بها، عقد ندوة صحفية بمقر جريدته، بالتنسيق مع دكتورة زوزو وزميلته ميرفت عن الفساد الذي عشش في معظم مؤسسات الدولة.

استضافوا فيها عددا لا بأس به من خبراء: التعليم والمعاشات والثقافة والفن والاقتصاد والزراعة والبيئة والمحليات و والصحة والصناعة و البترول و....

كان موضوع الندوة «سرقة مقدرات مصر» ليدلي كل ضيف بدلوه حول ما حدث ويحدث في المحروسة في عهد الرئيس السابق، فبدأ الدكتور فتحي البيلي (خبير اقتصادي خمسيني، معروف باتجاهه الوطني وتصديه للفساد) بالحديث عن

نهب أموال الشعب على يد بعض معدومي الضمير من الأنظمة السابقة، فقال:

– الحديث الآن في وسائل الإعلام مستمر عن استرداد حوالى 110 مليارات جنيه من ألف قضية تقريبًا لوزراء ومسئولين سابقين ورجال أعمال متهمين بتضخم ثرواتهم من وظائفهم العامة ونفوذهم السياسي، أحد هؤلاء هو رجل أعمال هارب عرض التنازل عن 75٪ من ثروته مقابل التصالح مع الدولة، والشيء نفسه مع وزراء: بترول وإسكان وتجارة وصناعة سابقين، بالإضافة إلى رئيس أسبق ونجليه، ويردف:

– كما أن تبديد مواردنا الطبيعية تم من خلال بيع الغاز الطبيعي والنفط بأسعار تقل كثيراً عن الأسعار العالمية، في مقابل عمولات حصلت عليها شخصيات معروفة، وقد بلغت حجم الأموال المهدرة فيها بين 4 و5 مليارات دولار سنويا.

دكتورة زوزو تلقي الضوء على جانب مهم جدًّا للفساد، فتقول:

– نقلا عن إعلامنا المحلى وبعض الجرائد العالمية، فإن الأشكال الأخرى لعمليات النهب تمثلت في الاستيلاء على أموال المصارف من خلال الحصول على قروض دون ضمانات، وتهريب جزء من هذه الأموال إلى الخارج (بين مليار وثلاثة مليارات دولار سنوياً)، وفي صفقات بيع الشركات والأصول المملوكة للدولة بأسعار تقل عن خمس قيمتها الحقيقية، لقاء عمولات بلغت حوالى مليارى دولار منذ بدء برنامج الخصخصة وحتى الأزمة الاقتصادية العالمية عام 2008.

دكتور ماهر يسأل الحضور عن إمكانية استرداد الأموال المهربة التي أشارت إليها دكتورة زوزو.

الخبير الاقتصادي يبادر بشرح أبعاد هذه القضية، فيقول:

– المشكلة الحقيقية في استرداد هذه الأموال تتمثل في أن حكومتنا تجنبت التصديق على بنود اتفاقية مكافحة الفساد، لما تحويها من بنود حول الرقابة

والشفـافية، ومع ذلك أرى أن بإمكان المنظمات الحقوقيـة المحليـة المشـهود لها بالنزاهة وطهارة اليد القيام بدور وطني لملاحقـة الفاسـدين، وأرى أن نجاحـا أوليا قد تحقق في هذا الصدد عندما أمـرت الحكومـة السويسـرية بتجميـد بعـض الأرصدة لرموز النظام السابق في مصارفها، ويُكمل:

- كما أن استرجاع «الأموال المخفية» يتطلب جهـداً أكبـر ممـا يظـن بعضـنا، وهنا يأتي دور الدولة بمتابعة هذه القضية وملاحقة اللصوص، سـواء مـن الناحيـة القانونية أو عبر علاقاتها الرسمية مع الدول التي هربت الأمـوال إليهـا، ولـن يـتم ذلـك إلا مـن خـلال نظـام حكـم جديـد، باعتبـار أن معظـم المسـيطرين عـلى المؤسسات الحكومية في الدولة الآن هم من ذيول الحزب الوطني.

ماهر يوسع دائرة الحوار:

- هناك قضية أخرى مثارة حاليا في الإعلام تخص الصناديق الخاصة.

الخبير الاقتصادي يقاطع ماهر:

- الصناديق الخاصة لم تخضع لأى جهة رقابية منـذ نشـأتها، حيـث تجـاوزت التريليون جنيه - بحسب تأكيد المتخصصين - والسؤال المطروح هنا هو:

- من الذى استفاد ويستفيد من هذه الأموال طَوالَ عهود الفسـاد التـي أكلـت الأخضر واليابس؟!

ميرفت تدلي برأيها:

- معذرة على تدخلي في حديث مـن هـذا النـوع، ولكنـى قـرأت مقـالا لأحـد الكتاب الكبار يوضح أن هناك من تعمدوا إصدار قرارات بإنشاء صـناديق خاصـة تابعة للهيئات والمؤسسات والوزارات خارج الموازنة العامة للدولة وبعيـداً عـن الأجهزة الرقابية.

ماهر يسأل كافة الحضور:

- طيب يا جماعة «الاستهبال» ده نتيجته إيه؟؟

الخبير الاقتصادي يجيب:

- نتيجته الطبيعية أنه أتاح الفرصة لأصحاب الضمائر «الخربة» بسرقة أموال الشعب بطرق مقننة للأسف الشديد!!

من ضمن حضور الندوة علاء عبد الصمد (أربعيني معارض وعضو برلماني سابق)، كان له جولات وصولات في فساد المحليات، فسأله ماهر عن رأيه في هذا الملف.

يُرحب البرلماني السابق والمعارض المعروف، فيقول:

- بالنسبة لفساد المحليات، فقد تعدى كل الخطوط الحمراء، بداية من نهب أموال المرافق والخدمات دون النظر للجودة والمواصفات، مرورًا بنهب ميزانية الصيانة والتجديد للطرق وشبكات مياه الشرب والصرف والكهرباء، ختامًا بجعلهم الأراضي الزراعية بضاعة رائجة في سوق المعمار، ويردف:

- أما المخالفات الخاصة بالمباني، فحّدث ولا حرج، فقد وضعت هذه النماذج تسعيرة لكل مخالفة حسب مستوى الراشي والمرتشي وكذلك مستوى المنطقة، وهناك مخالفات أخرى يرتكبها المسئولون يوميا دون أن يحاسبهم عليها أحد، مثل أن يمنحوا موظفًا مكافآت وبدلات من: المواقف والنظافة والخبز والغاز و.... بآلاف الجنيهات لمجرد أنه ضمن أفراد «العصابة»، في الوقت الذى يحرمون فيه موظفًا شريفًا آخر غير مرضى عنه، وبالتأكيد سيكون أكفأ منه!!

ميرفت تُعطى طرف الحديث - لضيق الوقت والمساحة المحددة للنشر – إلى الخبير الزراعي المهندس أحمد البنداري (ستيني مخضرم) ليحكي عن ملف أراضي الدولة المنهوبة وغيره من الملفات:

- بالنسبة لأراضي الدولة المنهوبة فى عهد «المخلوع»، فقد حصل عليها أهل الحظوة والمحسوبية من رجال لجنة السياسات وغيرهم، وهؤلاء معروفون

بالاسم، فأحدهم – على سبيل المثال لا الحصر – استولى على 100 مليون متر مربع في خليج السويس بسعر 5 جنيهات للمتر، في حين يتعدى ثمنها أضعاف أضعاف هذا المبلغ التافه، وتم بعد ذلك تقسيم هذه الأرض وبيعها لحسابه الشخصي على الرغم من أنه لم يُسدد من ثمنها سوى 10 ٪ فقط!!، ويُكمل:

– كما حصل نفس المواطن أيضاً على 500 فدان في مطروح و8 ملايين متر في شرم الشيخ و1500 متر في مرسى علم، إلى جانب 7 ملايين متر بحق الانتفاع و60 فداناً في أكتوبر و17 ألفاً فى شرق العوينات وعشرات القطع في المدن الجديدة، بحسب ما نشرته مجلة أسبوعية تابعة للدولة، هذا نموذج صارخ للفساد ضمن سلسلة من أصحاب الضمائر الخربة الذين حصلوا على أراضي الدولة بملاليم ليبيعوها بعد ذلك بالملايين.

ويتطرق «البنداري» إلى جرائم الزراعة المرتبطة بالمال العام وأملاك الدولة أيضا، فيقول:

– في الحقيقة تورطت الأنظمة السابقة في عدد من القضايا التي تهدد أمننا القومي؛ لذا لابد وأن نشير إلى المساحات الزراعية الشاسعة التي تعرضت لتعديات صارخة وخطيرة تمت بالمخالفة للقانون والدستور ؛ استنادا إلى قوانين بالية فُصلت خصيصا لتقنين الفساد وحماية اللصوص، بمساعدة مسئولين سابقين تربحوا نظير تخصيص هذه الأراضي لأصحاب النفوذ والسطوة.

ويضيف الخبير الزراعي:

– وخير دليل على ذلك الـ «40 ألف» فدان التي نهبتها الشركة المصرية – الكويتية بـ «ملاليم» في منطقة العياط، ليتم تحويلها بعد ذلك بـ «الرشاوى» طبعا من زراعية إلى سكنية ؛ لتباع بمليارات الجنيهات، دون أن تتحرك الحكومات المتعاقبة لوقف مثل هذه الجرائم!!، ويضيف:

– أما عن جريمة الأدوية المسرطنة التي دخلت مصر منذ عقد مضى تقريبًا،

فلنتحدث بلا حرج، فضلا عن الخضراوات الملوثة بمياه الصرف الصحي والفواكه المملوءة بالهرمونات، واللحوم المستوردة غير الصالحة للاستهلاك الآدمي، والمزارع السمكية المشبعة بالسموم و.....

بعد ملف نهب أراضي الدولة والزراعة، استأذن ماهر خبيرا آخر في الإعلام، الدكتور ياسر عبد ربه (خمسيني وطني حتى النخاع، خبير الإذاعة والتليفزيون) ليكشف جزءا من فساد ماسبيرو، فيقول:

– فساد إعلام الدولة في ماسبيرو فاق كل الحدود، فقيل إن موازنة هذا المبنى وقتها تقدر بأربعة مليارات جنيه، وتساءل: كيف يتم إهدار هذه المبالغ على قنوات التليفزيون الرسمي رغم أنه في ذيل قائمة القنوات الفضائية؟! كما أن المعلن «مخاصم» ماسبيرو منذ زمن بعيد، لأن التليفزيون والإذاعة بشكلهما وإداراتهما الحالية لا يسران عدوًّا ولا حبيبا.

ووجه الخبير الإعلامي سؤالا آخر: ما السر إذًا لإعطاء وتجديد إجازات لأكثر من 250 مذيعا من الكوادر المتميزة في ماسبيرو؛ ليعملوا فى الفضائيات الخاصة بالمخالفة للقانون؟!

ماهر يتفق في الرأي مع الخبير الإعلامي:

– عندك حق والله دكتور ياسر، فكل مواهب ماسبيرو تركته، ولم يبقَ فيه سوى متوسطي الخبرة والشهرة، حتى إن كبار المسئولين رفضوا الظهور في تليفزيون الدولة لسببين: الأول: عدم وجود محاور جيد يظهر معهم، والثاني: يعتبرون ظهورهم على الشاشة الرسمية مضيعة للوقت لانصراف المشاهد عنها.

استراحة قليلة، يرتشف فيها ضيوف الندوة بعض المشروبات المثلجة مع الكيك، ثم يتجاذبون أطراف الحديث عن تردي الأحوال المعيشية والأمنية التي سادت مصر عقب أحداث يناير 2011، ويتفقون على ضرورة القضاء على الإرهاب والفساد معا وبأي ثمن؛ حتى تعود هيبة الدولة إلى سابق عهدها، ثم

يعودون مرة أخرى لاستكمال الحديث عن ملفات الفساد التي أزكمت الأنوف، فيبدءون بالمعونة الخارجية التي تسلمتها مصر منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد وحتى عام 2009.

الدكتور أحمد محرز (أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية) يكشف المستور في ملف المعونة الخارجية:

- لقد وصلت أرقام المعونات الخارجية إلى أرقام خيالية، فمثلا حصلنا على 15.7 مليار دولار أمريكي لمساندة التجارة والاستثمار، و5.75 مليار للبنية التحتية، و1.14 مليار للتعليم، و93.9 مليار للصحة، و 1.13 مليار للديمقراطية والمجتمع المدني، و3 مليارات للقطاعات أو البنود المختلفة، هذا بخلاف معونات وقروض أخرى من هنا وهناك، ويتساءل: أين تلك الأموال؟!

لم يستطع أحد من الحضور الإجابة عن مصير هذه المعونات، ومن ثم انتقل كل من ماهر و زوزو وميرفت لسؤال خبير البيئة الدكتور وائل النحاس عن الفساد المستشري في القطاع البيئي.

يصمت الخبير البيئي قليلا، ثم يبدأ حديثه بحسرة وألم:

- عندما نتكلم عن مشاكل البيئة، فيجب أن نشير إلى الثالوث الناتج عن شركات الأسمنت الأجنبية في عدد من الأماكن الآهلة بالسكان، أهمها منطقة حلوان، بالإضافة إلى عدد من المخالفات الأخرى التي ترتكبها شركات متورطة في مخالفات جنائية خلال عملها ضمن مشروعات مكافحة التلوث، فمثلا مدينة الكوثر بسوهاج شملتها منحة بقيمة 2.5 مليار جنيه مقدمة من بنك التعمير الألماني عام 2007، ومع ذلك ضربت الوزارة بالتوصية عرض الحائط. ويُكمل:

وللأسف الشديد اكتفت الوزارة بنقل مسئول جهاز شئون البيئة إلى عمل آخر، ناهيكم عن المخلفات السائلة والصلبة التي تلقيها المصانع والشركات والمستشفيات الخاصة والعامة في مياه البحر والترع والمصارف بشكل يومي،

وكذلك القمامة التي ملأت شوارع العواصم والمدن الكبرى وحتى القرى، وأصبحت تمثل معضلة حقيقية أمام الأجهزة المعنية.

ينتقل ماهر وزوزو وميرفت إلى الحديث عن الفساد المستشري في الوسط الفني، وحالة التدني التي ضربت قوتنا الناعمة في مقتل بفعل فاعل، فيفسحون المجال في الحديث للفنان المسرحي محمد لاشين (أحد الفنانين المحترمين) من جيل «الكبار»:

– الفن عندنا، أو «القوة الناعمة» كما يحلو للكثيرين تسميتها، بحاجة إلى وقفة جادة للقضاء على سماسرة الدراما الذين شوهوا صورة المجتمع المصري عربيًّا وعالميًّا، بل وأشاعوا الفوضى، وركزوا على السلبيات دون الإيجابيات، وأظهروا المصريين في أعمالهم الفنية وكأنهم مجموعات من البلطجية وتجار المخدرات والفهلوية والراقصات وبنات الليل. حدث هذا العبث في غفلة من الزمن بعد ثورة 25 يناير 2011. ويُكمل:

– أكرر، حدث ذلك ولا يزال وكأنه تخطيط متعمد أرادوا به القضاء على شباب مصر وتدمير مستقبلهم، ودعونا نقولها صراحة: لن ينصلح حال الفن المصري إلا بتطهيره من الشوائب التي علقت به مؤخرا، وأنتجت لنا أعمالا كثيرة تشبه إلى حد كبير أفلام البورنو بواسطة تُجار اللحم الرخيص ومخرجي وكتاب وممثلي السبوبة، وارتباط أي عمل فنى مهما كانت قيمته بالأمن القومي المصري مقارنة بسينما هوليوود الأمريكية وبوليوود الهندية، وهذا لن يحدث أيضًا إلا إذا كان لدينا رقابة صارمة من النقابات المعنية وكذلك الجهات الرقابية.

وجاء الدور في الحديث للدكتورة ولاء الشيتي (أستاذ الطب البشري)، فطلبت منها دكتورة زوزو إلقاء الضوء على الفساد والمفسدين في مجالي: الصحة والأدوية، فقالت:

– الصحة في مصر تحتاج إلى شرفاء في جميع التخصصات؛ للاطلاع على أمراض الشعب، خصوصا الخطيرة منها، والتي تحصد أرواحنا يوما بعد يوم،

مثل: فيروس «سي» والسرطان والفشل الكلوي و....، يضاف إلى ذلك الإهمال المتعمد بحق المرضى فى المستشفيات العامة وربما الخاصة أيضا. وتردف دكتورة ولاء:

– هناك قضية أخرى خاصة بفساد الأدوية المغشوشة ومنتهية الصلاحية ومافيا الأدوية وأباطرة الطب بشكل عام. هؤلاء الذين لاهم لهم سوى الربح فقط على حساب صحة المواطن. وأظن أن جميعنا قرأ وتابع فى وسائل الإعلام تقارير أو أخبارا مأساوية عن مواطنين يدخلون إلى المستشفى للعلاج، ونفاجأ بخروجهم جثثا هامدة، أو في حالات أخرى يصابون بمضاعفات أكثر؛ بسبب الإهمال وعدم الرعاية الطبية اللازمة. وإذا اشتكى أهل المريض، فلن يحصلوا على حقه ببساطة؛ لأن نقابة الأطباء غالبًا تقف بجوار أعضائها!!

ويتجه ماهر وزوزو وميرفت ناحية الأديبة الكبيرة رقية الشواف (أحد الكتاب المثقفين الكبار)؛ ليطالبوها بالحديث عن مكامن الخلل في هذا الملف الخطير.

تبدأ الأديبة الوقورة بكلمات الثناء والشكر لمنظمي الندوة والسادة الحضور، ثم تتحدث بحسرة:

– عندما نتحدث عن الوضع الثقافي والأدبي في مصر الآن، لابد من الرجوع إلى زمن العمالقة الكبار، زمن: العقاد والحكيم وطه حسين وبيرم و..... ثم نقارن ما كنا فيه، وما أصبحنا عليه. هذا على اعتبار أننا – حقا – نريد الإصلاح والارتقاء بمستقبل مصر وشبابها، وتردف:

– إن حال الثقافة المصرية سبق ولخصه وزير ثقافة أسبق عندما قال: «جميع مثقفي مصر دخلوا حظيرة الوزارة»؛ لذا نؤكد أن «المخلوع» نجح بالفعل في تحييد أي معارض لسياسته بشكل أو بآخر..، ولن أتطرق أيضا إلى اختفاء سجلات جرد المخطوطات المهمة.. أو الفساد في ترميم المسرح القومي والأموال التي أنفقت فيه.. ولا عن التجاوزات المالية في مهرجان القاهرة

السينمائي.. ولا عن استئثار أصحاب الحظوة والسطوة بالمناصب القيادية بالوزارة.. ولا عن نوعية الكُتب التي توافق علي طباعتها الجهات المعنية من موازنة الدولة، أو حتى الشخصيات التي يتم اختيارها للجان المختلفة في الوزارة.

وتكمل الأديبة الكبيرة:

– لن أتحدث بالشرح عن كل ذلك.. ولكنى ألقى الضوء على حالة الانحطاط الثقافي التي وصلنا إليها مؤخرا؛ بسبب تفشى الفكر المنحل والألفاظ البذيئة، التي ملأت الكتب ووسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، والتي باتت تحاصرنا أينما نذهب.. في الشارع وفى الجامعات والمعاهد والمدارس والمواصلات.. ناهيكم عن دور العرض وما يتلفظ به الفنانون تحت زعم «الإبداع».. وهذا ما كنت وسأظل أطالب به أعضاء البرلمان في اللجان: الثقافية والإعلامية والأمنية و.... أن يدرسوه جيدا، ويضعوا لنا تشريعات فاعلة وقابلة للتنفيذ؛ حتى نستعيد هويتنا التي أصابها العطب المتعمد.

الحضور يسعد جدًّا بقوة وصحة كلمة الأديبة الكبيرة، ويصفقون لها بحرارة تزيد على الخمس دقائق.

بنظرة فاحصة يفاجئ ماهر ودكتورة زوزو وميرفت الدكتور منير جورجي (أستاذ علم النفس والاجتماع وأحد القيادات المهتمة بملف أصحاب المعاشات) بالسؤال عن مآسي كبار السن والمطلقات والأرامل والعوانس من أصحاب المعاشات الهزيلة.

– ينظر الدكتور منير نظرة يأس، ويطالب الحضور بالدعاء على كل من تسبب في لحظة ألم أو تعاسة لصاحب معاش أفنى عمره في خدمة بلده، خصوصًا المرضى منهم.

الحضور يستجيبون، ويدعون الله بالانتقام العادل من كل ظالم أو متعنت كان سببا في آلام 8 ملايين أسرة مصرية أو أكثر.

يبدأ أستاذ علم الاجتماع بعد ذلك الحديث:

– لقد شهد مجتمعنا مؤخرا عددا من المشاكل الاجتماعية التي عصفت بأمنه واستقراره، وتسببت في العديد من المشاكل الاجتماعية، التي أثرت بشكل أو بآخر على حياتنا اليومية، أهمها ما يتعرض له الملايين من أصحاب المعاشات من ضيق الحال وحرمانهم من أبسط حقوقهم، التي استحوذت عليها حكوماتنا المتعاقبة. وهذه كارثة حقيقية لا يجب إغفالها تحت أي ظرف، أيضا انتشار ظاهرة الطلاق والعنوسة والأرامل.

ويردف دكتور منير غاضبا:

– مشكلة الأرامل والمطلقات مشكلة – جد – خطيرة وكبرى، تصيب أي مجتمع مهما كانت قوته في مقتل. كل ذلك بسبب تدني المعيشة وقلة الوازع الديني والتفكك الأسري؛ نتيجة العولمة البغيضة، وكذلك قوانين الأسرة التي ابتُلينا بها مؤخرا، وتحتاج منا إلى وقفة جادة وحاسمة؛ حتى نتعرف على أسبابها، ونحاول قدر المستطاع أن نجد لها حلولا علمية وعملية بنوع من الوعى، عن طريق تشريعات قانونية تتسق مع ما نصت عليه الأديان السماوية.

ومن ملف الأرامل والمطلقات وأصحاب المعاشات، يطلب ماهر وزوزو وميرفت من الدكتور على بدران (خبير التعليم) الإدلاء بما لديه من معلومات عن فساد التعليم.

تتجه أنظار الحضور إلى خبير التعليم، فيفاجئ الجميع:

– أشكركم جميعا على هذه الندوة التي – حقيقة – أسعدتني جدًّا، وأعادت لي أملا كاد أن يتلاشى؛ بسبب ما تشهده مصر حاليا من كوارث على يد فئة ضالة من أبنائها، يساندها في ذلك قوة استعمارية بغيضة تخطط منذ زمن للقضاء على التعليم في مصر، هذا أولا.

– ثانيا التعليم عندنا مؤخرا أصبحت مصيبته كبرى، فجامعة القاهرة على سبيل

المثال أنشئت بمجهود المتبرعين العظام، رواد وعباقرة العلم والفكر والأدب، وكذلك الأثرياء والوجهاء لخدمة أبناء هذا الوطن دون مقابل. أما الآن فرأينا ما يُدمي القلب، ويبكي العين، من معظم رموز العلم، فقد تحول هذا الوضع إلى مأساة حقيقية، عندما سمح هؤلاء لأنفسهم بأن يتربحوا من علمهم تحت غطاء الاستثمار، فسمعنا حينها عن المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية التي أفرغت التعليم الحكومي من مناهجه وأساتذته مع الأسف الشديد. ويضيف:

– أما التعليم الفني فحينما فكرت جمهورية الصين الشعبية أن تكون إحدى الدول الصناعية الكبرى، لم تجد طريقا أمامها إلا التوسع في هذا النوع من التعليم ، والطريق نفسه سلكته اليابان منذ أن ألقت عليها أمريكا قنبلتين نوويتين؛ لأن التعليم الفني هو الأساس الحقيقي للتنمية في أي مجال. ويردف خبير التعليم:

وفى الفترة الأخيرة تابعنا جميعا تدنى مستوى العمالة الفنية في الخارج، مقارنة بالعمالة الآسيوية التي غزت دول الخليج تحديدا، وأغلقت الباب في وجه العمالة المصرية.

وقبل أن يطلب ماهر وزوزو وميرفت سؤال الحضور عن ملف الخصخصة، نهض الخبير الاقتصادي من مكانه طالبا الكلمة عن ملف المستوردين والصناعة المحلية.

الحضور يرحبون، وينصتون جيدا لما سيكشفه الخبير الاقتصادي عن هذا الملف الكارثي، فيقول:

– حان الوقت لفتح ملف أزمة السلع الاستفزازية، وأثرياء وأغنياء الاستيراد في مصر والمستفيدين من تردى الأوضاع الاقتصادية الحالية، وما تتعرض له الصناعة المصرية من انهيار وتدمير، وتراجع الإنتاج المحلى أمام غول الاستيراد، وما تسبب عنه من أزمات اقتصادية داخلية، ربما أبرزها أزمة نقص الدولار وتراجع قيمة العملة المحلية، والاعتماد الكلى على الاستيراد على حساب الصناعة والإنتاج المحلى. ويُكمل:

رغم الأزمات المتلاحقة التي يعانى منها الاقتصاد المصري، إلا أن هناك من يستغل تلك الأزمات، ويسعى للثراء الفاحش على حساب الصناعة المصرية، فالسوق المصري ممتلئ بكبار التجار في عالم الاستيراد بإجمالي يتجاوز الـ30 مليار دولار سنويا، في مقابل أن الصناعة المصرية تعانى من الإهمال في قطاعات مختلفة بعد قضاء السلع المستوردة عليها وانتشارها في الأسواق.

ميرفت تقاطع الخبير الاقتصادي، وتسأله إن كانت لديه المعلومة الكافية عن ملف النظام الجمركي نظرا لخطورته.

الخبير الاقتصادي يرحب بالسؤال، ويجيب:

- بكل سرور أستاذة ميرفت، بالنسبة لنظامنا الجمركي فهو – حقيقة – يعاني الأمرَّيْنِ من التشوهات، ولم نتمكن من الحد من إيقاف أو مواجهة وتيرة الاستيراد من الخارج في تطبيق الرسوم الجمركية، للدرجة التي أصبحنا نستورد فيها «أكل الكلاب والقطط» والكافيار ولعب الأطفال وقمصان النوم بملايين الدولارات، وهو السبب في نفاد الاحتياطي الدولاري لدى البنك المركزي، كما نستورد وفقا لكبار التجار في الأسواق؛ السلع الاستراتيجية التي ننتجها في مصر مثل السكر الأبيض الذى يدخل بكميات كبيرة جدًّا. ويكمل:

وبكل أمانة أيضا لم تستطع حكوماتنا المتعاقبة مواجهة الحد من الاستيراد برفع الرسوم الجمركية على السلع التي لها بديل محلي، ويتم إنتاجها في مصر؛ للحفاظ على الصناعة المحلية، أو رفع الرسوم الجمركية؛ لإضعاف السلع غير الهامة، والتي لا يستخدمها سوى نسبة لا تتعدى الـ20٪ من المستهلكين،وتندرج تحت سلع «الرفاهية». كما أن الدراسات التي تعدها وزارتا التجارة والمالية لتحديد قائمة بالسلع التي يتم رفع الرسوم الجمركية عليها لم تخرج إلى النور حتى الآن منذ الحكومات المتتالية.

زوزو تتدخل في الحوار، وتؤكد أن الذين يهاجمون ترشيد الاستيراد هم كبار

المستوردين المستفيدون من غزو السلع لمصر والقضاء على الصناعة المحلية، في الوقت الذى يعانى فيه الاحتياطي من الدولار أزمة نقص شديد بسبب تدفق السلع غير الهامة للمواطنين، وتوضح:

وقد أشيع رفض حوت كبير – في عدد من تصريحاته – أي رسوم جمركية على السلع التي تهاجم الصناعة المصرية أو مراجعة اتفاقيات التجارة الحرة بين مصر وتركيا أو الدول الأخرى التي تتسبب في غزو السلع المستوردة على حساب الصناعة المحلية، وتتحول مصر حينها إلى دولة مستهلكة غير صناعية. وتعد اتفاقية التجارة الحرة بين مصر وتركيا من أكثر الاتفاقيات الضارة بالصناعة المحلية بعد غزو السلع التركية في مختلف قطاعات السوق المصري، أبرزها الحديد والأسمنت والملابس ولعب الأطفال، وغيرها من السلع الاستفزازية.

الخبير الاقتصادي يتفق في الرأي مع طرح دكتورة زوزو، ويستطرد:

– بالإضافة لكل ما سبق، فإن مصر تعاني حاليا ومن قبل من أزمة غزو الواردات الصينية فى مختلف القطاعات التي تقضى على الصناعة المحلية، كما أن مصر تستورد سلعا غذائية، رغم إنتاجها في السوق المحلى. وعلى سبيل المثال التفاح، وتساءل: لماذا تستورد مصر التفاح وعندنا التفاح المصري؟!

وناشد الخبير الاقتصادي أصحاب القرار ضرورة دعم الإنتاج المحلى ضد المستوردين الراغبين في تحقيق مصالح على حساب الصناعة المحلية وإضعاف الاحتياطي من الدولار، موضحا أن أبرز السلع المستوردة التي ترهق الاحتياطي من الدولار ولها بديل محلى: السكر والحديد والأسمنت والتفاح والخوخ والتمر والكيوي وقمر الدين وجوز الهند.

دكتور ماهر يلخص ملف الفساد في عهد مبارك وما قبله وما بعده في الآتي:

– طالما كان هناك مجال أوسع للحديث عن ملفات الفساد في حضرة قامات وطنية علمية ولها ثقلها ومصداقيتها عند الشعب، فلا يجب إغفال حديث أحدنا عن جريمة

برنامج الخصخصة، الذي يمكن وصفها بأنها أبشع جريمة ارتكبها النظام السابق بحق المصريين، بعدما عكف معدومو الضمير على تدمير مؤسسات القطاع العام، التي تعد إحدى أهم إنجازات ثورة 23 يوليو، ومن ثم تم بيع عشرات الشركات العامة بأثمان زهيدة لمستثمرين محليين وأجانب؛ لتقوم على أنقاضها أبراج سكنية ومنتجعات سياحية، تحوّل معها مئات آلاف العمال المصريين إلى عاطلين عن العمل.

وتضيف ميرفت:

– قبل الخوض في تفاصيل أكثر عن «الخصخصة»، يجب الرجوع إلى ما كشف عنه وزير قطاع أعمال سابق وأحد منظري برنامج الخصخصة عام 2008 عندما أوضح في حوار له بجريدة يومية أن أزمة 1987،وهو العام الذى توقفت فيه مصر عن سداد ديونها وعجزت عن ذلك تماما؛ نتيجة تعثر تجربة نمونا الاقتصادي، في ظل اقتصاد السوق، وكانت هناك خطط للإصلاح والتنمية وُضعت بعد عام 1974 في عهد الرئيس السادات تعتمد على اتباع نظام السوق، فيما عرف بالانفتاح الاقتصادي، ولو أن هذه السياسة تحققت بشكل جيد، لكانت أتت بنتائج جيدة طوال الـ 13 عاماً التي عقبتها، ولكن تعثرت سياسات الإصلاح، ولم تؤدِّ النتائج المرجوة؛ نظرا لخطأ في سياسات التنمية الاقتصادية واعتماد سياسات لا تناسبنا، حيث كان هناك اعتقاد بأن الشركات متعددة الجنسيات والاستثمار الأجنبي بشكل عام ستتولى نقل التكنولوجيا إلى مصر؛ مما سيؤثر في الاقتصاد بالإيجاب. وتواصل:

وبسؤال هذا الوزير حينها: وهل 13 عاما كافية للإصلاح الاقتصادي؟.. ادعى الرجل أن خمس سنوات كافية لنمو أي دولة،فقال:

– إذا أردنا العدل والحق، مؤكد أن سياسة مبارك في التعامل مع ملف الخصخصة هي نفسها سياسة السادات، وذلك كنوع من الاستمرارية لسياسة الانفتاح الاقتصادي التي اتبعها السادات، والخاصة بنظام السوق الحر، وتابع :

– بعد أزمة 1987 وقعنا اتفاقا مع صندوق النقد الدولي لجدولة الديون، وكان الحال الاقتصادي قد وصل إلى الحد الذى اضطرت فيه الدولة للاستدانة من الداخل،

خاصة من بعض شركات توظيف الأموال لشراء محصول الذرة وغيره من المحاصيل. المهم أن الوضع الاقتصادي في ذلك العام كان علامة على فشل التنمية بالمنهج الذى كان قائما من 1974 إلى 1987، وكان الحل هو طرح فكرة الإصلاح الاقتصادي من جديد، وقال البعض إننا مترددون اقتصاديا، واقتصادنا مختلط، ويجب أن نترك المهمة بالكامل للقطاع الخاص، ونخلص الاقتصاد من تدخل الدولة.

ماهر يسأل الخبير الاقتصادي عمن اقترح هذا البرنامج بشكل محدد، هل هم خبراء اقتصاد أم رجال أعمال أم وزراء؟

يرد الخبير الاقتصادي على ماهر، فيقول:

– سأجيبك بكلام وزير الأعمال السابق عندما قال بالنص: نحن في دولة، الحاكم فيها له اعتباره في توجيه دفة الأمور، وللأسف نسبة كبيرة من المثقفين والسياسيين يسيرون في ركب النظام، فالنظام اقترح ونسبة المؤيدين كانت كبيرة، فالخصخصة كانت بناء على توجه سياسي، وبعض المنافقين زفوا القرار.

زوزو تسأل الخبير الاقتصادي:

– لكن قيل إن برنامج الخصخصة كان اقتراحا من الخارج و.....

– هو اقتراح محلى، ولكن أحد الدوافع إليه هو التحالف الاستراتيجي مع أمريكا، وهذه بالمناسبة عبارة مستخدمة من قبل النظام وليست عبارتي، فهم يقولون لنا دائماً إن أمريكا حليف استراتيجي لمصر، وبالطبع لن أتحالف استراتيجيا مع أمريكا من ناحية، وأسير على نظام تتدخل فيه الدولة في الإنتاج من ناحية أخرى.

ماهر يكرر السؤال للخبير الاقتصادي:

– هل يعنى التحالف الاستراتيجي أن أطبق نظام أمريكا؟ ألا يمكن أن أتحالف معها سياسيا، وأطبق ما يناسبني من النظريات الاقتصادية؟

– يا عزيزي، أمريكا لم تكن لتقبل بذلك، فلنعد للحظة اتخاذ قرار الخصخصة من

جديد، ونسأل أنفسنا عما حدث بعد أزمة 1987 وجدولة جزء من الديون، حينها سارت الأمور بلا أي طفرة اقتصادية تذكر حتى عام 91، عندما عادت أزمة الديون للظهور من جديد، وفشلنا للمرة الثانية فى السداد، فاقتضى الأمر الرجوع إلى صندوق النقد والبنك الدوليين لحل الأزمة التي أسفرت عن توقيع اتفاق للإصلاح الاقتصادي، اقترح بمقتضاه تحويل كل النشاط العام إلى الخاص.. واتفق على أن يتم هذا البرنامج على عدة مراحل، كلما أنجزنا مرحلة ما، نأخذ مكافأة عن هذا الإنجاز، وتتمثل في تخفيض القيمة الحالية للدين المصري إلى النصف في مقابل نقل الاقتصاد المصري إلى اقتصاد حر تقوده آليات السوق الحرة،ويستطرد:

إن خبراء الاقتصاد والقانون ماضون في جمع المعلومات حول الصفقات المشبوهة التي تمت بموجبها عمليات الخصخصة بمبلغ يقترب من 176 مليار جنيه. فمع بدء عمليات الخصخصة في مطلع التسعينيات كانت توجد في مصر 314 شركة، بيع منها 161 بحوالي 23.677 مليار جنيه، علماً بأن قيمة هذه الشركات بلغت في المتوسط نحو 200 مليار جنيه، ما يعني أن النظام أهدر حوالى 176 مليار جنيه من خلال برنامج الخصخصة.

يقطع ماهر كلام الخبير الاقتصادي؛ لينقل بعض المعلومات عن هذا البرنامج على لسان أحد كتاب جريدته الكبار، فيقول:

– قرأت بعض المعلومات عن هذا الملف على لسان «.....» يكشف فيه أن الخسائر المترتبة على برنامج الخصخصة شملت تدمير جانب كبير من الصناعة المصرية؛ وبذلك فإن النتائج الاجتماعية للخصخصة كانت خروج 800 ألف مصري إلى المعاش المبكر، بعدما سرحتهم الحكومة لبيع الشركات، وقد انضم 86 في المئة منهم إلى طابور البطالة، يضاف إليهم عدد مماثل استكملت الشركات الخاصة عملية طردهم. كما أن الشركات التي لم تقم على أنقاضها منتجعات أو أبراج تحولت إلى احتكارات أجنبية، لا سيما في قطاع صناعة الأسمنت.

ميرفت تؤيد كلام ماهر وتضيف:

– الأسوأ من ذلك، بحسب مقالات المتخصصين في هذا الملف أيضا ، كان في سوء استخدام الأموال التي حصلت عليها حكوماتنا من خلال عملية الخصخصة، إذ توزعت بين 3.7 مليارات جنيه لبرنامج المعاش المبكر، و2.6 مليار جنيه لإعادة هيكلة ما تبقى من شركات عامة تمهيدا لبيعها هي أيضا، فيما ذهب الباقي (17.214 مليار جنيه) إلى الموازنة العامة للدولة.

زوزو تقترح:

– لتصحيح هذا الخلل الكبير، يجب أن تكون هناك بلاغات قُدِّمَت للنائب العام خلال السنوات الماضية، ولا تزال مركونة في الأدراج. فثمة حاجة إلى إعادة تحريك كل الدعاوى المرفوعة لإبطال الصفقات الفاسدة. كما أن هناك دعوات توجه لكل من يملك دليلاً حول هذه الصفقات المشبوهة لأن يقدمها؛ تمهيدا لاتخاذ ما يلزم من إجراءات قانونية تعيد للشعب المصري حقه المسلوب.

ماهر يختتم الندوة بتلك الكلمات:

– يوما بعد يوم تبدو الثورة المصرية أمام مهمات إضافية ترتبط جميعها بعملية التغيير السياسي. قد تبدو استعادة ثروات الشعب المصري عملية شاقة، لكن من المؤكد انها ليست مستحيلة في حال نجاح الثورة في بناء نظام وطني نزيه على أنقاض أوكار الفساد التي برع نظام حسني مبارك في حفرها.

إلى هنا انتهت الندوة، على أمل عقد ندوات أخرى تكشف فساد بقية القطاعات والشخصيات.. وقدم ماهر وزوز وميرفت كل الشكر والتقدير لضيوفهم على تلك المعلومات المهمة، وتم نشر الندوة كاملة في اليوم التالي مباشرة دون حذف أو تغيير أو اختصار ولو حرف واحد على 4 صفحات، وأحدثت صدى كبيرا جدًّا في جميع الأوساط، خصوصا السياسية والإعلامية.

■ الفصل الأخير
قلادة النيل

بعد أن قضى ماهر مع زوجته وأولاده وقتا جميلا، واطمأن على نجاح جريدته، وصحة زوجته ميار غيرة المستقرة؛ بسبب الآثار الجانبية من إصابتها برصاصات المجرمين، وبعد أن ضمن أيضا رضا أساتذته وزملائه في الجامعة، وكذلك تواصله المستمر مع دكتورة زوزو؛ للاطمئنان عليها وعلى طفلها بعد وفاة زوجها، عاد إلى كاليفورنيا بالتنسيق مع أحمد بك.

في مطار لوس أنجلوس وقفت سارة تنتظر زوجها قادما من القاهرة في رحلة «مصر للطيران».

بدت سارة أصغر بكثير من عمرها الحقيقي، خصوصا في زيها الفرعوني الذي تفضل ارتداءه في مناسبات بعينها؛ لتتشبه بمليكتها الفرعونية المفضلة كليوباترا، كما ظهر على وجهها أسمى معاني السعادة والحب وكل أنواع المودة والحنان. أما

نظراتها فكانت ترمق ماهر بسهام قاتلة في كل خطوة يتقرب فيها منها (هكذا رآها ماهر).

وحانت اللحظة، وعلى بعد عدة أمتار، هرولت سارة ناحية ماهر، واحتضنته لأكثر من 7 دقائق، أشبعته فيها قُبلا وكلاما جميلا، والشيء نفسه فعله ماهر معها، وفي طريقهما إلى الفيلا، مرا على مطعم؛ ليتناولا وجبة سريعة، وأثناء تناولهما الوجبة، أعجبتهما رقصة على موسيقى «اللامبادا البرازيلية»، استمتعا بالرقصة، بعدها ذهبا إلى فيلتهما.

بعد مرور شهرين ونصف من وجودهما معا، همست سارة في أذن ماهر:

- حبيبي، عاوزة أقول لك على خبر، بس مش عارفة إن كان ممكن يسعدك أو.....

ماهر بلهفة وشوق:

- خير حبيبتي؟ مخبية عليَّ حاجة سارة؟!

سارة بابتسامة جميلة وصوت هادئ تمازح ماهر بعد أن تُلقِي بجسدها الرخو على صدره:

- بصراحة أيوه حبيبي، مخبية عليك حاجة، وحاجة حلوة جدًّا كمان، من يومين انتابني شعور غريب لم أعهده من قبل، ذهبت للطبيب حتى أطمئن، وإذ به يؤكد أنني حامل.

ماهر بدا سعيدا بالخبر، ثم أحاط سارة بذراعيه، وأخذ ينظر لعينيها كأنه لم يرَهما من قبل، ثم هنأها كما هنأ نفسه:

- ألف ألف مبروك يا عمري. طيب اجلسي مكانك بشويش. اجلسي هنا على الكرسي ده.

نظرت سارة إلى رد فعل ماهر إثر إبلاغه بالخبر، وتأكدت من أصالته،

وتحققت من شهامة عرقه العربي الإسلامي في التعامل مع الغير في لحظة ضعفه، ثم دمعت عيناها ومازحته:

- حبيبي، إنت عاوز الولد أو البنت اللي في بطني حبيبي، مش كده؟

بحضور ذهني سريع ومتقد ونظرات بها كل معاني الحب، أجاب ماهر:

- ده ابننا يا عمري، إزاي ما اعوزوش؟!

تنهض سارة من مقعدها في ريسبشن الفيلا، وترتمي في حضن ماهر مرة أخرى، وتحدث نفسها صمتا:

- كما توقعتك بالضبط أيها المصري الأصيل، سليل الفراعنة العظام، فأنت أيها الشاب المصري، تثبت لي يوما بعد يوم أصالتك وحسن اختياري لك، وحسن ظني بك.

ماهر يهدئ من روع سارة وهو يتلمس ظهرها بحنو، ثم يستأذنها أن تجلس بهدوء على اقرب كرسي بجوارها وينهض مسرعا؛ ليجهز لها غداء خاصا يتناسب وحالتها الصحية المستجدة.

بعد ذلك يستمتعان بوقتهما قبل أن يذهبا إلى مخدعهما، ويقضيا ليلتهما في نقاش ومرح وسعادة وحديث مستمر عن المولود الجديد وكيف ستكون علاقته بشقيقه وشقيقته من ميار.

في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي أوصى ماهر الخادمتين الفلبينيتين بإعداد وجبات تناسب الظروف التي طرأت على زوجته.

ولأن «كوهين» خال سارة كان قد جند إحدى الخادمتين لنقل أخبار ماهر وسارة بمقابل مادي مُغرٍ؛ فقد حصل على الخبر فور حدوثه.

جُن جنون «كوهين» بسبب ما سمعه من الخادمة الفلبينية عن حمل سارة من ماهر، وبدأ يتواصل مع بقية شركاء سارة في الجريدة التي يرأس مجلس إدارتها

وتحريرها ماهر، واجتمعوا في فيلا والدة سارة بباريس للنقاش واتخاذ موقف حيال «المصيبة» الجديدة، هكذا وصفوا «حمل» سارة من ماهر.

وجاء القرار حاسما وحازما باجتماع ثانٍ يضمهم مع سارة في منزل شقيقها بنيامين بإنجلترا. سافرت سارة إلى إنجلترا تلبية لدعوة شركائها، بعد أن أخبرت ماهر برحلتها؛ للاطمئنان على شقيقها ليوم واحد.

في هذا الاجتماع اقترح شركاء سارة عليها، مرة بالترهيب وأخرى بالترغيب، أن تتخلص من جنينها، لكنها رفضت اقتراحهم بشكل قاطع.

ثم حاولت هي من جانبها أن تشرح لهم خصوصية علاقتها بزوجها وتمسكها بجنينها، مع ضمان استمرار خطتهم في الحفاظ على استقرار البعثات الأثرية الأجنبية في مصر عن طريق جريدة ماهر، لكنهم لم يقتنعوا نهائيًّا، وظلوا أكثر من ساعتين يشرحون لها نصوصا توراتية معادية للعرب وديانتهم و.....، لكنها أيضا لم تقتنع، وظلت متمسكة برأيها.

انفرد بها شقيقها، وبدأ يذكرها بما نصت عليه التوراة:

- في الإصحاح 15 من سفر التكوين نقرأ: «وفي ذات اليوم قطع الرب إبراهيم ميثاقا قائلاً: لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»، ويُكمل:

- وفي الإصحاح 11 من سفر أشعيا: «ويكون في ذلك اليوم أن يجمع الرب جميع المشتتين والمنفيين من أبناء بني إسرائيل ويهوذا من أربعة أطراف الأرض، لينقضّ الجميع على أكتاف الفلسطينيين عربًا، وينهموا بني مشرق معًا، يكون على آدم وموآب امتداد أيديهم، وبنو عمون في طاعتهم، ويبيد الرب لسان بحر مصر، ويهزّ يده على النهر قوة ريحه، ويضربه إلى سبع سَواقٍ يعبر فيها بنو إسرائيل بالأحذية، وتكون سكة لبقية شعبه كما كان لإسرائيل يوم الخروج من أرض مصر».

انتهت كلمات بنيامين لشقيقته، دون أن تقتنع ولو بحرف واحد مما قاله.

أتى دور خالها «كوهين»، فقرأ لها أيضا ما تيسر من التوراة بحق المسلمين العرب عامة، والمصريين خاصة في الإصحاح 43 من نفس السفر:

- «لأني أنا الرب، إلهك قدوس إسرائيل مخلصك، جعلت مصر فديتك»، وفي مكان آخر من السفر ذاته: «أهيج مصريين على مصريين، فيحال كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه مدينة مدينة ومملكة وتراق روح مصر داخلها، وتضيع مشورتها، فيسأل كل واحد العرافيين والتوابع والجن، وأغلق على المصريين في يد حاكم قاسٍ، فيتسلط عليهم، وتجف الحياة من البحر، ويجف النهر، وتنتن الأنهار، وتضعف السواقي، ويتلف الزروع، وتجف الرياض والحقول على ضفاف النيل، والصيادون لا يجدون صيدًا، وكل من يلقي بسطح إلى النيل ينوح، ويكتئب كل عامل بالأجرة»، ويردف:

- «ولقد ألقى الرب عليها روحا شريرة أوقعت مصر في ضلال وأضلت أبناءها، فإذا بهم يترنحون كالسكران في قيئه، فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب، في ذلك اليوم تكون مصر كالنساء ترتعد وترتجف من يد رب الجنود وهو يهزها، وتكون أرض إسرائيل ويهوذا رعبًا لمصر، كل من ذكرها يرتعد، في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان، وتقدم القرابين لرب الجنود، يقال لأحدها مدينة شمس، ويصرخ المصريون، ويقيمون في وسطهم عمودًا ومذبحًا للرب، فيرسل الرب لهم محلميا مخلصًا يخلصهم، ويرجعون للرب، فيستجيب لهم ويشفيهم. في ذلك اليوم تكون سكة مصر إلى آشور (سوريا)، فيجيء الآشوريون إلى مصر، ويذهب المصريون إلى آشور، وتكون إسرائيل هي الثالثة وهي البركة في وسط الكل».

تنظر سارة إلى شقيقها وخالها، ثم تسألهما بعد أن تأكدت من شعاع الغدر يتجه نحوها من نظراتهما:

- أولسنا بشرا من رجل واحد وأم واحدة، هما آدم وحوا؟

وقبل أن تسترسل سارة في حديثها، ينظر «كوهين» إلى «بنيامين» نظرة يأس، كمن حسم أمره بقرار التخلص من: سارة وزوجها وجنينهما في آن واحد.

وبأسرع وقت ممكن، ومن خلال صمت وملامح وجه الخال والأخ، بدأ القلق ينتاب سارة، فمنحت ساقيها الحرية والقدرة اللازمتين لمغادرة مقر الاجتماع؛ لتتجه مسرعة ناحية مطار لندن؛ حتى تلحق بأول طائرة متجهة إلى مطار نيويورك ومنه إلى كاليفورنيا.

في الوقت نفسه كان أحمد بك يزور ماهر من وقت لآخر في المعرض، ويطالبه بتوخي الحذر من شركاء سارة ومعارفها؛ بناء على معلومات شبه مؤكدة للإضرار به.

وقبل أن ينصرف أحمد بك، سأل ماهر عما إذا كان لديه جديد عن توصله لأي معلومات عن سرداب فيلا بروفيسور سارة المليء بآثارنا وأسرارنا.

ماهر يوضح حقيقة الأمر:

- تعرف يا افندم أن الفيلا ملغمة بكل أنواع الكاميرات في الخارج والداخل، إضافة إلى ذلك، فالسرداب له بوابة إلكترونية، وليس من السهل- حسبما رأيت - أن أنجح في فك طلاسم هذا السيستم الإلكتروني اللعين.

يصمت أحمد بك لثوانٍ، ثم يضع يده على رأسه، ويتمتم مع نفسه صمتا:

- كيف خانتني ذاكرتي لتعليم ماهر بعض الأساليب التي تمكنه من مواجهة عقبة بسيطة من هذا النوع؟!

ماهر يسأل أحمد بك:

- حضرتك بتكلمني يا افندم؟

أحمد بك ينتبه لصوت ماهر:

- لا لا ماهر حبيبي. أنا بس سرحت شويتين في مصر وحبايبنا فيها وبُعدنا

عنهم. عموما يا عم ماهر أنا هسلمك بعض الأدوات التي تسهل لك مثل هذه الأمور، وسأدربك على استخدامها الآن.

وما هي إلا ساعات معدودة حتى استوعب ماهر بعض الأساليب الأمنية اللازمة للتعامل مع العقبات الطارئة، وبعد عودته إلى الفيلا تعامل بحرفية عالية جدًّا مع الدائرة الكهربية والإلكترونية للسرداب، وذلك عندما تسلل إليه بمصباح كهربائي؛ ليكتشف بداخله كل صغيرة وكبيرة تحدث عنها أحمد بك، سواء بعض القطع الأثرية التي تَوقَّعَ سرقتها من مقبرة الملك توت عنخ آمون لحظة اكتشاف المقبرة على يد هيوارد كارتر وكارنرفون، أو تلك البرديات الفرعونية القديمة التي يُشتبَه فيها بأن تكون هي ذاتها الخاصة بـ«خروج اليهود من مصر»، لكن لأنه يجهل اللغة الهيروغليفية؛ فضل عدم استباق الأحداث.

من ضمن ما وقع تحت يد ماهر قائمة بالقطع الأثرية المصرية في معظم متاحف العالم باللغة الإنجليزية:

- فعلى سبيل المثال لا الحصر المتحف البريطاني بلندن به 100 ألف قطعة، وتشمل مجموعة وندورف التي أُهديت إلى المتحف سنة 2001، والتي تضم ستة ملايين قطعة أثرية ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ في كل من مصر والسودان، والمتحف المصري الجديد في برلين به 80 ألف قطعة أثرية، ومتحف بتري للآثار المصرية، المملكة به 80 ألف قطعة.

وكذلك متحف اللوفر، باريس، فرنسا به حوالي 50 ألف قطعة، ومتحف الفنون الجميلة، بوسطن، الولايات المتحدة 45 ألف قطعة، ومتحف كيسلي لعلم الآثار، آن أربر، الولايات المتحدة 45 ألف قطعة، ومتحف جامعة بنسلفانيا لعلم الآثار والأنثروبولوجيا، بنسلفانيا، الولايات المتحدة 42 ألف قطعة، والمتحف الأشمولي، أكسفورد، المملكة المتحدة 40 ألف قطعة، والمتحف المصري، تورينو، إيطاليا 32500 قطعة، والمعهد الشرقي، شيكاغو، الولايات المتحدة 30

ألف قطعة، ومتحف المتروبوليتان للفنون، نيويورك، الولايات المتحدة 26 ألف قطعة، ومتحف أونتاريو الملكي، تورنتو، كندا 25 ألف قطعة، ومتحف هيرست للإنثروبولوجيا، بيركلي، كاليفورنيا 17 ألف قطعة، ومتحف فيتزوليم، كامبردج، المملكة المتحدة 16 ألف قطعة و.....

لم يُتوقف ماهر طَوالَ 4 ساعات من الليل قضاها في البحث والاستطلاع داخل هذا السرداب، سوى عند سماع صوت ظنه لإحدى الخادمتين الفلبينيتين، فارتبك وانقبض قلبه، ونهض بسرعة لإغلاق باب السرداب من الداخل؛ كنوع من التمويه؛ حتى لا يُكتشف أمره، فيقع في مشاكل لا يمكن له الخروج منها. وعندما راقب مصدر الصوت بحذر شديد، وجده للقطة السيامي «ناني» التي تتبناها سارة، وتراعيها كما لو أنها ابنتها.

اطمأن ماهر، وعاد لاستكمال مهمته فترة معقولة استطاع خلالها إنجاز مهمته ببراعة، لم يوقفه هذه المرة سوى تليفون من سارة، تطلب منه أن ينتظرها في مطار لوس أنجلوس بعد ساعتين على أكثر احتمال من بداية المكالمة، فقال لها:

- عيوني حاضر، قبل الساعتين سأكون في انتظارك يا عمرى.

اكتفى ماهر بالوقت الذي قضاه بالسرداب، والذي تجاوزالأربع ساعات متواصلة، فنهض مسرعا لإعادة كل شيء على حاله؛عملاً بنصيحة أحمد بك، ثم خرج من السرداب على الفور،وأعاد أيضا سيستم الدائرتين: الكهربائية والإلكترونية بنفس تعقيداته قبل أن تستيقظ الخادمتان الفلبينيتان.

استقبل ماهر سارة في المطار، ولأنه لاحظ على وجهها حالة من الهم والغم الشديدين؛ فظل يداعبها طوال فترة حبسها لنفسها إراديا داخل غرفتها واعتزالها لكل معارفها، فزادت محبته في قلبها وتمسكها به أكثر فأكثر. ولإحساسها بتجنيد خالها للخادمتين أو إحداهما؛ أسرعت بإنهاء خدمتهما، بعد أن منحتهما مكافأة مادية مناسبة؛ خشية على نفسها وجنينها وزوجها منهما.

وسرعان ما اتخذت سارة قرارا جريئا بالتفرغ لرعاية نفسها وجنينها بالتناوب مع زوجها، حتى تضع مولودها في أمان، وشاركها ماهر الرأي، بل وشجعها على ذلك، كما اقترح عليها أن تقضي بعض الوقت مع والده ووالدته في مصر؛حتى يطلعهما على خبر زواجه وحملها منه، وفي الوقت ذاته يدرس رد فعل هذه المستجدَّات على زوجته ميار.

سعدت جدًّا سارة بهذا الاقتراح الذي لم يخطر لها على بال ولو للحظة، وتأكدت فعلا أنها في يد أمينة مع ماهر وأسرته، وبدأت تفكر جديا في إعادة ترتيب حياتها حسب المستجدَّات الجديدة، ثم سألت نفسها عدة أسئلة، منها:

– ما قيمة الحياة مع أهل يخططون للغدر بابنتهم؟! وما الغاية من اعتناق ديانة يُكِنُّ أبناؤها البغض والحقد لأصحاب الأديان الأخرى؟! وتواصل الأسئلة:

ولماذا لا نعيش كذلك حياتنا كما نريد مع من نريد؟! وإذا كنا فعلا أولاد حواء وآدم، فعلامَ هذا الصراع البشري المرير و..... ؟!

وظلت سارة شاردة، تسأل نفسها سؤالا يلي الآخر، لم يوقظها من هذه الحالة سوى حضن وقبلة من ماهر في الوقت المناسب؛ لينام حتى الصباح نوما هانئا.

كعادته في كل صباح قام ماهر على أطراف أصابعه من سريره؛ حتى لا يزعج سارة؛ ليعد لها فطورا شهيا من «اللي وصى عليه النبي داود».. هكذا كان يردد على مسامع سارة كلما أعد لها فنجان القهوة الذي تحبه، ثم همس في أذنها بعد أن طبع قبلة على جبينها: سارة، سارة، سارة حبيبتي.

سارة بوجه صبوح وسعادة غامرة:

– صباح الخير حبيبي. إيه اللي مصحِّيك بدري كده؟

ماهر مازحا:

– بدري إيه يا عمري؟ الساعة 8 صباحا، ولازم أنهض أفتح المعرض. عموما

أنا حضَّرت لك الفطار، بيض مسلوق وكوب لبن مع عسل أبيض وقطعة جبن مع الخبز اللي انت بتحبيه، واللي سبق ووصى عليه نبينا ونبيكم داوود. هههههه.

تنظر سارة إلى نوع وتنظيم الطعام على الصينية أمامها في الفراش:

- موووووووه حبيبي. كل ده علشاني؟

ماهر باهتمام زائد:

- أكيد يا عمري، لازم تخلي بالك من نفسك والجنين. عموما أنا جاهز الآن للخروج. أشوفك على ألف خير. موووووووووووووه.

سارة بنظرة مفعمة بالحنان والحب:

- ألف سلامة يا عمري. خلى بالك من نفسك، وابقى طمني عليك حبيبي بمجرد ما توصل، وافتكر تقبَّض عمال وحرس المعرض رواتبهم؛ لأني نسيت أقبَّضهم الشهر ده.

بعد أن اجتمع ماهر مع عمال وحرس المعرض، ومنحهم رواتبهم بالإضافة إلى مكافأة مجزية بمناسبة حمل سارة غير المعلن، ذهب كل منهم إلى مكانه، وقام هو بتعطيل كاميرات المعرض كما كان يفعل دائما حينما يزوره أحمد بك.

وبعد دقائق معدودة، وبناء على مكالمة بينهما، حضر أحمد بك، وسلم على ماهر، تناقشا في كل المستجدَّات التي طرأت على حياة سارة لمدة ساعة تقريبا، فنصحه أحمد بك بالتمهل في زيارة سارة لأهله بمصر.

كما أكد عليه أن يدع الأمور تسير بشكل طبيعي جدًّا؛ لعل الله يحدث في الأمور أفضل مما يتمناه البشر، وقبل أن يفترقا سأله أحمد بك عن أي معلومة جديدة بالنسبة لمحتويات السرداب، فكشف له ماهر عن كل صغيرة وكبيرة رآها، وأمده بصور وفيديوهات منها.

انبهر أحمد بك بما شاهده من فيديوهات للكنوز المصرية على هاتف ماهر،

وانتفض من مكانه ليحتضنه ويقبله، بل ويهنئه على إنجازه غير المسبوق لهذا العمل الرائع.

وخلال ثوانٍ معدودة كان أحمد بك قد نقل كل شيء يخص السرداب من هاتف ماهر إلى هاتفه الشخصي، ثم أمر ماهر بتدمير هاتفه، بعدما أهداه هاتفا يليق به تحسبا لأي ظرف غير متوقع. وهذه إجراءات متعارف عليها في مثل هذه الأمور.

وخلال دقائق معدودة أيضا، ينقل أحمد كل المعلومات الخاصة بمحتويات سرداب سارة إلى أعلى شخصية في جهازه ، عبر الأجهزة المؤمنة، لتبدأ دورة جديدة من الترتيبات الأمنية ؛ لتأمين حياة ماهر مع سارة وجنينهما.

وطوال شهرين كاملين ظلت الأمور هادئة وسعيدة بين ماهر وسارة، سواء على مستوى العمل في المعرض، أو داخل مسكنهما.

وعلى الجانب الآخر لم يهمل ماهر قَطُّ في تواصله مع زوجته ميار وولديه، وأسرته وأسرة زوجته، فكان الاتصال بينهما لحظيا، سواء عن طريق المكالمات المباشرة بالهاتف المحمول، أو عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي (الفيس والواتس و.....).

كما كان حريصا جدًّا على مواصلة إشرافه على جريدته الأسبوعية «الرأي الحر» في مصر، الورقية والإلكترونية، ولم يكن يسمح بنشر أي شيء إلا بعد أن ترسله له مساعدته ميرفت أيوب (رئيس التحرير)؛ وذلك لثقته الشديدة بها من جانب، ومن الجانب الآخر لأنها كانت زميلته بإعلام القاهرة، وفي الوقت نفسه شقيقة دكتورة مارجريت زوجة محاميه وصديقه الصدوق دكتور مدحت.

في منتصف ليل أحد الأيام انتاب سارة بعض التقلصات في البطن، نهض ماهر من نومه، واصطحبها إلى طبيبتها الخاصة وصديقتها، مونيكا ليفي، وبعد إجراء الكشف وبعض الفحوصات على الأم وجنينها، اطمأن ماهر، وخرج ليستقل

سيارته مع زوجته، ويعودا كما جاءا.

بجوار عملها كطبيبة، كانت مونيكا ليفي ضمن شركاء سارة في الجريدة التي يرأس تحريرها ماهر؛ لذا خشيت من كل التبعات المترتبة على جنين سارة عندما يرى الحياة. وبمجرد خروج سارة وماهر من عيادتها، كانت قد أخبرت بقية الشركاء بآخر التطورات، وطلبت منهم سرعة التحرك لوأد هذه الكارثة قبل وقوعها (هكذا قالت للشركاء).

وكانت عيون الشركاء تراقب وتنتظر اللحظة المناسبة التي تتواجد فيها سارة مع ماهر؛ ليصيبوا ثلاثة عصافير بحجر واحد (الزوجين وجنينهما)، وها هي اللحظة قد حانت، حيث أعطوا أوامرهم للقناص الإيطالي الذي استأجروه، وأعطوه كل ما يلزمه من مال؛ مقابل ارتكابه هذه الجريمة.

وبعد أن درس القناص كل شبر بجوار فيلا ومعرض سارة، استقر رأيه على الاختباء فوق شجرة قريبة من الفيلا حتى لا تلتقطه الكاميرات التي تملأ المنطقة، وبناء على مكالمة من مونيكا ليفي لبقية الشركاء، تم تحديد وقت وصول سيارة الزوجين، وما هي إلا لحظات حتى وقعت الجريمة.

ولأن أحمد بك كان يتوقع ما حدث؛ كان دائم الحرص على التواجد بالقرب من ماهر عند أي تحرك يقوم به لحمايته، ولأنه كان أيضا قد أوصى ماهر بارتداء صدرية واقية من الرصاص تحسبا لأي موقف من هذا القبيل؛ فلم تؤثر في ماهر رصاصات الصدر التي أطلقها عليه القناص بعد أن قتل سارة.

فر القناص هاربا بعد ارتكابه جريمته، فيما أسرع أحمد بك بإبلاغ شرطة كاليفورنيا بالحادث، فهرع الجميع، ونقلوا سارة وماهر إلى المستشفى.

قبل أن تلفظ سارة أنفاسها الأخيرة بساعة واحدة من وصولها إلى المستشفى؛ نتيجة إصابتها بأربع رصاصات بالقلب، كشفت لماهر عن وصية كتبتها منذ أيام قليلة بنقل كل أملاكها لشخصه، كما أوصته بدفن جثمانها في مقبرة اليهود بجوار

والديها بمصر، وكشفت له أيضا عن سر يخص «المحروسة» كان قد ائتمنها عليه زوجها السابق داخل ثلاثة صناديق في بعضها بسرداب سحري بالفيلا، كما أوصت ماهر بنقل هذه الصناديق إلى السفارة المصرية؛ حتى تتولى هي مسئوليتها، لا لقلة ثقتها به، ولكن خوفا عليه.

وقبل خروج الروح بلحظة، سلمته هاتفيها المحمولين، واستحلفته بالخالق وكل أنبياء الله أن يتلفهما، وأن يعمل بالوصية، ويدعو لها ولجنينهما الذي لم يرَ النور، بعد أن يجمعهما الله به في الآخرة، كما أوصته بعدم بيع فيلتها، وأن يقيم فيها مع زوجته ميار وولديهما كلما سمحت ظروفهم بذلك، فوعدها بتنفيذ كل وصاياها، ثم أمسك بيدها واحتضنها وظل يبكيها بمرارة، إلى أن فاضت روحها لبارئها.

نفذ ماهر وصية سارة بالحرف، ثم أوكل مسئولية تسفير جثمانها لتدفن بمصر بجوار والديها إلى أحمد بك والسفارة المصرية بأمريكا والجالية اليهودية بالقاهرة، وقد كان له ما أراد.

كما أبلى أحمد بك وأعضاء السفارة المصرية بأمريكا ووزارة الخارجية بلاءً حسنا في المهمة الموكلة إليهم؛ إكراما وتكريما لابن بار من أبناء مصر؛ ليعود أحمد بك بعد مراسم دفن سارة إلى أمريكا بسرعة؛ حتى يكون بجواره؛ خشية أن يصيبه ما أصاب زوجته.

حاول خال سارة وشركاؤه سرقة الوصية التي كتبتها سارة قبل مقتلها لزوجها بأي مقابل، ولكن مدير البنك الذي استأمنته سارة على وصيتها رفض كل إغراءاتهم، وحتى التهديدات التي وصلته منهم، وسلم الوصية لماهر بعد علمه بجريمة قتل سارة وجنينها التي هزت أمريكا.

ظل أحمد بك – بدعم من رؤسائه – بجوار ماهر، لم يتركه لحظة، حتى أنهى جميع الإجراءات الخاصة بنقل ميراثه من زوجته إلى مصر.

وبعد التنسيق مع الإدارة الأمريكية ومنظمة اليونيسكو، سافر عدد لا بأس به من رجالنا الأشداء داخل طائرة مصر للطيران؛ لنقل ماهر وممتلكاته من أمريكا إلى مصر، وفي طريق عودته أخرج ماهر نسختين مصورتين من الورق كان قد أعدهما جيدا، وسلمهما لشخصية أمنية كبيرة بواسطة أحمد بك، الأولى:

مذكراته التي دوَّنها بدمه داخل غرفة الحجز وخارجها.

والثانية بأسماء مافيا الآثار المصرية والأجنبية الذين تعاملت معهم زوجته سارة؛ لتُحفظ في ملف «سري للغاية» ضمن الملفات الأمنية المهمة. وبعد دخول الطائرة الأجواء المصرية، أخبره رئيس شرطة كاليفورنيا هاتفيا بنبأ القبض على قاتل زوجته، فرد عليه ماهر أنه أوكل الأمر برمته للسفارة المصرية بأمريكا ونقابة المحامين العرب، وسيتابع معهم سير القضية للقصاص من القاتل ومن يقف خلفه.

وما هي إلا لحظات قليلة من وصول الطائرة أرض مطار القاهرة، حتى فوجئ ماهر بمسئول أمني كبير، وكبار رجالات الدولة، وعدد لا بأس به من وسائل الإعلام المحلية والعالمية وأيضا دكتورة زوزو، والديه وشقيقته وزوجها ومحاميه في استقباله باستثناء ولديه وزوجته ميار.

وقبل أن يسأل ماهر والديه وشقيقته عن عدم حضور زوجته وولديه لاستقباله، فوجئ باحتضان المسئول الأمني الكبير له، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة، منحه هذا المسئول قلادة النيل على مجهوده المتميز لصالح وطنه، ثم همس في أذنه:

أنت بطل قومي يا دكتور ماهر. شد حيلك.. البقاء والدوام لله في زوجتك دكتورة ميار. لقد توفيت منذ وقت قصير داخل المركز الطبي لقواتنا المسلحة إثر الإصابة التي تعرضت لها معك في العملية الإجرامية إياها. وأنا الذي أمرت بألا يخبروك بوفاتها إلا بعد وصولك إلى أرض الوطن.

بعد حالة الانهيار التي أصابت ماهر حوالي 10 دقائق، عاد ليستجمع قوته مرة

أخرى، ويرضى بقضاء الله، فشد المسئول الأمني الكبير على يديه، ثم طمأنه قائلا:

– كمان أنا عاوزك ما تشيلش هم أي شيء. ملف الآثار سيكون في يد أمينة بعد الآن، وسنعاقب كل من سرق وهرب أي قطعة من آثارنا، كما أعدك بمتابعة كل من حامت حولهم الشبهات بالتنسيق مع بقية أجهزتنا المعنية. أما جريدتك فستستمر بدعم وتمويل من الدولة مثلها مثل الجرائد الكبرى، فقط مطلوب منك تطويرها لتواكب التحديات التي تواجهها مصر، خصوصا في ملف الإرهاب والفساد بشكل عام، والآثار بشكل خاص.

انتهى حفل استقبال ماهر الرسمي، واستأذن مستقبليه ليستقل سيارة صهره ومعهما شقيقته، ويتجهوا إلى فيلته بـــ 6 أكتوبر، يحتضن طفليه ويذهب بهما بسيارته الخاصة لزيارة قبر زوجته ميار في قريته بالمنصورة، ويعاهدها أمام الله وولديه بأن يتفرغ لتربية فلذتي كبديهما، وألا يتركهما بعد ذلك أبدا.. الختام.

▪ ... الخاتمة ...

... أعزائي القراء ...

أتمنى أن أكون قد وفقت للوصول معكم - بهذا العمل - إلى الحقيقة المُرة التي تعرضت وتتعرض لها حضارتنا وثقافتنا وإعلامنا وأدبنا وبيئتنا وعاداتنا وتقاليدنا.. والتي كشفت عنها دراسات ومؤلفات ومقالات وحوارات وتحقيقات عدد كبير من المتخصصين الأجانب والمصريين، كُلَّ في مجاله، وذلك من خلال قالب روائي يرتدي ثوب الخيال والواقع معًا.

لعل وعسى أن نستيقظ من غفلتنا الآن وليس بعد.. ونستطيع الحفاظ على ما تبقى فينا من روح كانت بالأمس محل إعجاب وإعجاز علماء العالم أجمع قبل عامته، والله أسأل أن يجمعني بكم عما قريب في أعمال أخرى إذا كان في العمر بقية.

الفهرس

إهداء 3

الفصل الأول

مصر العظيمة 5

الفصل الثـاني

ذكريـات الطفولة..... 23

الفصل الثالث

تطهير الذات 35

الفصل الرابع

وداع الأحبة..... 43

الفصل الخامس

«ماس» – فلوريدا 55

الفصل السادس

الحُب الأفلاطوني 91

الفصل السابع

دليل بـراءة 107

الفصل الثامن

ليلة العمر 129

الفصل التاسع

مهام استخباراتية 147

الفصل العاشر

المتُهم.. أستـاذاً 159

الفصل الحادي عشر

المهمة المقدسة 171

الفصل الثاني عشر

التمويل الأجــنبي 197

الفصل الثالث عشر

حقائق مُفجِعـــــــــة 207

الفصل الرابع عشر

البعثات الأجنبية 261

الفصل الخامس عشر

لصوص الآثار 281

الفصل السادس عشر

مفاهيم استعمارية 295

الفصل السابع عشر

المؤامرة الكـبرى 315

الفصل الأخير

قلادة النيل 333

الخاتمة 349

الفهرس 350